اللغة في المجتمع

تأليف

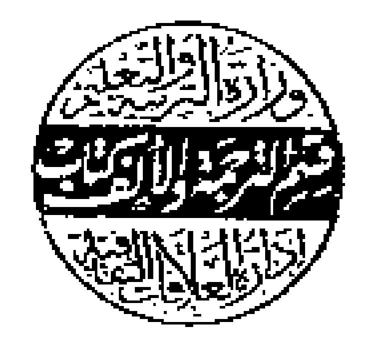
م. م. لويس

ترجمة

الدكتور تمام حسان

مراجعة

الدكتور إبراهيم أنيس



دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

١٩٥٩

تصدير

ظلت اللغة فيما مضى قرونا عدة وهى قائمة بمجال محدود فى البحث العلمى لا تكاد تجاوزه أو تتعداه ، حتى تنبهت الأذهان أخيرا إلى ماتضمنته الكلمات من دلالات ، وبدأ الدارسون يرون فى تلك الدلالات الغاية والهدف من كل لغة ، وأن اللغة فى حقيقتها لا تعدو أن تكون وسيلة من وسائل تنظيم المجتمع الإنسانى ، تربط بين الأفراد ، وتربط بين الجماعات ، وتربط بين الشعوب . وهنا نشأت المدرسة اللغوية الاجتماعيـة فى أوائل القرن العشرين ، وأخذ اللغوى الحديث يدرس اللغة فى ضوء الحياة الاجتماعية ، وظهر له بوضوح دور اللغة فى تشكيل المجتمع وتنظيمه .

ومن هؤلاء اللغويين المحدثين « لويس » صاحب كتاب « اللغة فى المجتمع » الذى قمنا بمراجعة ترجمته إلى العربية . فقد أفاض فى بيان صلة اللغة بالمجتمع وبرهن لنا بأمثلته الواضحة الناطقة على تغلغل اللغة فى كل شئوننا العامة والخاصة .

ويبدأ « لويس » كتابه بأن يلفت الأنظار إلى أننا الآن فى وسط ثورة لغوية بدأت باختراع الطباعة وانتشار الكتب والصحف التى أصبحت فى متناول الملايين من الناس ؛ وبذلك عمت الكلمة المكتوبة وانتشرت فى بقاع لم تكن تصل إليها من قبل ؛ فأصبح محو الأمية من الشعوب أمرا ممكنا نظريا وعمليا . ثم قويت تلك الثورة اللغوية باختراع الراديو وظهور الكلمة المنطوقة كمنافس قوى للكلمة المكتوبة .

ويبدو لى أن المؤلف هنا قد غالى بعض المغالاة فى أثر الكتابة والطباعة ونحوها من وسائل النشر . فتلك فى رأيى يتضاءل أثرها حين تقارن بالإذاعة التى عم انتشارها فى كل أوساط المجتمع وبيئاته . فالثورة اللغوية الحقة قد بدأت بانتشار الإذاعة ودخول الراديو فى كل بيت . وستبلغ تلك الثورة ذروتها حين تحل وسائل التسجيل الصوتى محل الكتابة الهجائية التى كانت فى كل العصور وسيلة ناقصة لتصوير اللغات . فالكتابة التى اصطنعت منذ القدم للتدوين والتسجيل قد ظلت نحو ثلاثين قرنا وهى على حالها المألوفة لنا من قصور فى تصوير الكلمات كما تُنطق ، واعتماد على حاسة البصر وحدها فى غالب الأحيان ، فسادت القراءة الصامتة حينا طويلا من الدهر ، وكادت اللغة من أجل هذا تفقد موسيقيتها .

ومع هذا فقد حققت الكتابة الهجائية كثيرا من أهدافها فيما مضى ، وكانت مصدر خير كثير للفكر الإنسانى فى كل العصور . غير أنها بعد اختراع الراديو وانتشار الإذاعة والفيلم الناطق بدأت تفقد كثيرا من أهميتها ، وأصبحنا الآن نتنبأ بمستقبل للغة فيه يعود للسمع سلطانه وفيه تمرن الآذان حتى تكون أكثر حساسية وإرهافا ، فتميز بين الفروق الصوتية مهما لطفت ، وتنفى من الكلام ما تأباه الأذن ، وما ينبو فى السمع ، وتصير اللغة إلى الموسيقية أو ما يشبه الغناء . وحينئذ يسود أدب الأذن تلك الأداة الطبيعية التى نشأت اللغات معها ، ونمت وازدهرت فى ظلالها آلافا من السنين فى قديم الزمان . فمصير الثقافة اللغوية كله مرهون بالإذاعة وانتشارها والتسجيل الصوتى وشيوعه .

ولا غرابة فى مثل هذه النبوءة التى ننادى بها دائما ، وينادى بها غيرنا من الدارسين ، فقد بدأ فجرها فى البزوغ ، وأصبحنا نسمع الآن عما يسمى بمجلة الهواء فى مصر وغير مصر ، وعن اسطوانات تباع فى الأسواق وقد سجلت عليها روايات شكسبير ، وعن كتب مسجلة على أشرطة فى بعض المكاتب الأمريكية العامة

يقرؤها المرء بأذنيه لا بعينيه . فليس بعجيب إذن أن نتصور كل بيت وقد حوى جهازا للتسجيل الصوتى ، يلجأ إليه الناس حتى فى كتابة رسائلهم الخاصة ، وذلك بإملاء الرسالة على آلة التسجيل و إرسالها فى بريد الطائرة إلى مسافات بعيدة ، وهناك يفضّها المرسل إليه ، و يضعها فى جهاز للاستماع ، فيسمع صوت صاحب الرسالة يحدثه كأنما هو معه فى حجرة واحدة . وحينئذ سنتمكن حقا من محو الأمية العقلية ، ولا يكون محو الأمية أمرا صوريا كالذى نشهده الآن ، حين يدعى الكثيرون أن مجرد استطاعة المتعلم قراءة بعض الجمل والعبارات أو كتابتها قد أزال أميته ، وجعله ينتفع بلغته . رغم أنا نعلم تمام العلم أن معظم أولئك الذين قيل عنهم إنهم قد محيت أميتهم قد عادوا إليها ، حين لم تتح لهم فرص الحياة الاستمرار فى التعلم ، وممارسة ماتعلموه .

و يبدأ المؤلف بعد حديثه فى المقدمة عن الثورة اللغوية بالكلام عن اكتساب الطفل للغة ، فيؤكد لنا أن هناك قوتين إحداهما جاذبة والأخرى طاردة : فالأولى تدفع الطفل نحو مجتمعه ، وتلقى به فى أحضانه ، كى يصبح عضوا فيه يحس بأحاسيسه و يتعاون مع أفراده ، والأخرى تحاول منعه عن ذلك المجتمع ليحتفظ باستقلاله وكيانه الشخصى . ثم يؤكد لنا أن نفس القوتين تظهران بين الشعوب : فإحداهما توثق الشعب بغيره من الشعوب وتجعل من الأمم مجتمعا إنسانيا مترابطا أو متكاملا ، والأخرى تحاول الاحتفاظ لكل شعب باستقلاله وكيانه . وهو يرى أن الغلبة كانت فى أغلب الحالات للقوة الجاذبة التى تخلق من الأفراد مجتمعاً متعاونا ومن الشعوب مجتمعا إنسانيا عالميا .

و يعتقد « لو يس » أن صيحات الطفل ومناغاته تتضمن جذور اللغة الإنسانية . فهو بهذا يؤمن بمذهب « داروين » فى التطور ، الذى كان ينادى بأن الحيوان ينطق والإنسان ينطق ، ولافرق بين النطقين إلا فى الدرجة . فى حين أن فريقا آخر من العلماء وعلى رأسهم « هويتنى » قد سموا بلغة الإنسان إلى مستوى أرقى كثيرا مما

يمكن أن يكون لدى الحيوان ، ورأوا اللغة الإنسانية وليد الذكاء الإنسانى والعقل الذى امتاز به الإنسان وحده . فبين لغة الحيوان ولغة الإنسان فجوة عميقة أوطفرة عظيمة لا يصح معها أن نربط بين اللغتين . ويبدو اتجاه المؤلف بصورة واضحة حين حاول فى آخر الكتاب التوفيق بين مذهب « داروين » ومذهب « هو بتنى » فقرر أن للمذهبين فى الحقيقةغير متعارضين أومتناقضين ، وأن ما نادىبه « هو بتنى »ينتهى فى آخر الأمر إلى ما نادى به داروين . كذلك يبدو اتجاهه بصورة أوضح حين أكد لنا فى كتاب آخر له هو « لغة الطفل Infant speech » أن الطفل فى أثناء غضبه وتذمره يتكرر فى مناغاته أصوات أنفية كالنون والميم ونحوها ، فى حين أنه فى أثناء رضاه وسروره تشتمل تلك المناغاة على بعض أصوات أقصى الفم والحلق كالكاف والخاء والغين ونحوها . ثم يستمد من تلك الملاحظة ملاحظة أخرى تتلخص فى أن أدوات النفى فى كل اللغات أوجلها تتضمن فى أساسها تلك الأصوات الأنفية التى بدت من الأطفال فى أثناء ضجرهم وعدم رضاهم . أى أنه يرى أن أدوات النفى قد استمدت وجودها من تلك الجذور الفطرية أو الغريزية .

ويتردد فى كتاب لويس « اللغة فى المجتمع » مصطلحان هامان هما فى رأيه خير تعبير عن وظيفتى اللغة فى الفرد والمجتمع : .Declarative و Manipulative

ويتضح من شرحه لهذين المصطلحين ومن الأمثلة التى ساقها للتفرقة بينهما أن الوظيفة الأولى للغة : « Manipulative » هى أن تكون اللغة بمثابة العملة التى يتخذها الناس وسيلة فى تبادل المنافع . فكلما احتاجوا إلى أمر يستعينون به على قضاء حوائجهم الدنيوية لجأوا إلى اللغة فقضت لهم حوائجهم وحققت أغراضهم . ومن أجل هذا ترجمنا المصطلح بكلمة « التعاملية » .

أما الوظيفة الأخرى : « Declarative » فقد وجدنا أن خير ما تترجم به هو « الوظيفة التنفيسية » ، وتلك هى التى تتمثل لنا بوضوح فى كثيرمن أحاديث الناس

التى لايراد بها قضاء الحوائج ، وإنما تنطلق من الأفواه رغبة فى الكلام لذات الكلام. وهى وظيفة تسود المجتمعات وتتراوح بين تحيات عابرة أوحديث تليفونى لايهدف إلى شىء معين محدد ، ثم قد ترق تلك الوظيفة وتبلغ مداها فى كل الآثار الأدبية التى لاتهدف إلا إلى التعبير عن الجمال والتأثير فى النفوس والقلوب .

فلما انتهى المؤلف من اكتساب الطفل للغة عرّج على اكتساب الكبار لها ، ورأى أن المرء فى المجتمع الحديث لايكاد ينتهى اكتسابه للغة إلا بانتهاء الحياة . فلغة كلٍّ منّا دائمة النمو والتطور ، وذلك لسهولة وسائل الاتصال فى العصر الحديث، وشيوع الأدوات والوسائل التى تعمل على هـذا النمو والتطور ، من صحف وأفلام سينمائية وإذاعة : بل حتى الحروب ساعدت على هذا من حيث ندرى ولا ندرى . من أجل هذا اتجه القادة نحو اللغة لاستغلالها فى توحيد أهداف الناس وأحاسيسهم وميولهم ، ووجدت الدول العظيمة أن خير مجمّع لتلك الأهداف والأحاسيس هواللغة المشتركة التى تنتظم كل نواحى الدولة ومجتمعاتها . وتعمل أمريكا الآن وروسيا وبريطانيا مع بلاد « الكمنولث » على نشر تلك اللغة المشتركة ودعمها .

وهنا يتنبأ « لويس » بأن الإنسان صائر إلى خلق تلك اللغة العالمية التى ستوحّد بين ميول الشعوب وأحاسيسها . فكلما زادت وسائل الاتصال فى العالم زادت الحاجة إلى تلك الوسيلة العالمية التى يرجو المؤلف أن تجعل من بنى الإنسان مجتمعا عالميا يسوده التفاهم والوئام . وهذا حلم قديم نادى به بعض المفكرين فى القرن السابع عشر ، ووضعوا له عدة لغات أو محاولات لتلك اللغة العالمية ، كالاسبرنتو وغيرها ، وإن باءت تلك المحاولات بالفشل ، بسبب ما يسمى بلعنة « بابل » إشارةً إلى قصة « بابل » التى جاءت فى العهد القديم وهى التى يعبر عنها أحيانا بحتمية تشعب اللغة إلى لهجات ، وهذا هو رأى المتشائمين من اللغويين . ولـكن « لويس » هنا لم يكن متشائما ، بل يكاد يلمح فجر تلك اللغة العالمية فى الأفق ، لأن السبب الذى كان فى

قديم الزمان يؤدى إلى تفتت اللغات إلى لهجات ، ومن ثَمّ إلى استحالة استمرار تلك اللغة العالمية أو دوامها ، قد تضاءل أثره ، وضعفت قوته بفضل الاتصال وسهولة وسائله فى العصر الحديث . أى أن العزلة لم يعد لها مكان الآن بين الشعوب ؛ فهم يعتمدون بعضهم على بعض ، ويتأثرون بعضهم ببعض ويرون الحاجة الملحة فى هذا الاتصال .

ثم يرى « لويس » أن نشأة تلك اللغة العالمية ستبدأ بأن يصطنع الناس فى كل أمة لغتين : إحداهما محلية والأخرى عامة لبنى الإنسان ، ثم تنتهى الحال إلى أن تنتظمهم جميعا تلك اللغة العامة .

وفى الحق أن تحقق ذلك الحلم القديم سيكون مصدر خير كبير للإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، ذلك لأن اللغات الآن تشبه الحصون التى فرقت بين الإنسان وأخيه الإنسان .

وعمد « لويس » فى كتابه قبل الشروع فى الحديث عن الأهداف الأساسية له، إلى عقد عدة فصول عن العقل الفردى والعقل الجماعى ، وأخذ يحلق بنا فى دراسات فلسفية ونفسية ، فيحدثنا طورا عن السلوك الجماعى واختلافه بين المجتمع الحديث والمجتمع البدائى ، وأخرى يحدثنا عن الشعور الجماعى ،ويرينا كيف أن الأمم البدائية لاتحتاج أو لاتستغلّ اللغة بالقدر الذى نلحظه فى مجتمعنا الحديث . وكل هذا لينتهى بنا إلى تلك الحقيقة العلمية التى توثق الربط بين التفكير واللغة ، والتى تنادى بأن الرمز بكل أنواعه أمر أساسى فى كل سلوك وتفكير ، وأنه لاسلوك ولا تفكير بغير الرمز الذى يبعث الصورة أو الفكرة من نطاق اللاشعور إلى نطاق الشعور . واللغة فى حقيقة أمرها لاتعدو أن تكون رمزا .

ولا غرابة إذن أن يقال إنه لا تفكير ولا سلوك بغير تلك الرموز اللغوية التى نسميها ألفاظا أو كلمات .

فإذا انتهى أخيرا إلى الهدف الأساسى من الكتاب وهو بيان دور اللغة فى

المجتمع الحديث وجد أن أوضح نواحي النشاط في المجتمع الحديث أمور ثلاثة: [الصناعة. الحروب العامة . نظم الحكم المتعارضة] . أما حديثه عن الصناعة ودور اللغة فيها فلم يكن في الحقيقة مقنعا . فبينما يرى أن شرط الصانع الناجح في المصنع الحديث أن يكون كالآلة يؤدي عمله في صمت ودون تصرف ، أي أن حاجته إلى اللغة قليلة أو غير أساسية ، يعود فيتحدث عن الرؤساء في المصانع وضرورة النهوض بمستواهم الثقافي ، ومن ثمّ رقيّ اللغة أو سموها بينهم .

أما حديثه عن الحرب ونظم الحكم في العالم فكان حديثا رائعا ممتعا ، يلمس فيه القارىء أصالة الفكر وحسن العرض ، ولا غرو فقد أَلَّفَ الكتاب في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وشهد صاحبه أحداث تلك الحرب التي تصارعت فيها قوى ثلاث ذات أنظمة مختلفة في الحكم هي : الديمقراطية الغربية وروسيا الشيوعية وألمانيا النازية .

وكان من الطبيعي إذن أن تترك الحرب أثرا قويا في ذهن المؤلف ، فهو يكرر ذكر الحرب الحديثة في أكثر من موضع من الكتاب ، ويرينا كيف تتأثر وتتلون لغة الجندي في أثناء الحرب ، وكيف تنشأ بينهم ألفاظ جديدة في بنيتها أوفي دلالتها . ويبين لنا كيف أن تضخم الجيوش وتعقد النظم الحربية الحديثة تطلب قدرا أكبر من الاتصال اللغوي ، ولاسيما في صورته المنطوقة ، وكيف استغلت اللغة في الدعاية وتجميع القوى في المجتمع نحو هدف واحد وميول واحدة . وهنا يحدثنا « لويس » عما يسميه بالحوافز الخفية Incentives والدوافع المعلنة أو الذرائع Motives » وكيف يوازن عادة بينها قادة الشعوب ، حتى تتفق مع ما للتلك الشعوب، من مثل عليا . فللحروب في رأيه حوافز حقيقية يخفيها القادة عادة عن شعوبهم خشية أن تصدمهم في مثلهم أو عقائدهم . ويستوحي القادة بعض الدوافع أو الذرائع المعلنة التي يواجهون بها الشعوب ويبررون بها الحروب . وهو في ضربه الأمثال للحوافز والدوافع يتخرج في التماسه لها من ظروف الحرب العالمية الثانية ، لأن

المعاصرة حجاب ، وقلما يلجأ إلى التاريخ فيرينا فيه ظروف الحروب « النابليونية » ، وكيف أن امبراطور النمسا أعلن شكواه من فرنسا ، لأنها شجعت الثورة فى بلجيكا ، ولأنها اختطفت جزءا من أملاك البابا الرئيس الدينى العظيم ، ولأنها تنادى بحق الشعوب فى تقرير المصير أو الولاء ، إلى غير ذلك من دوافع أوذرائع جعلها حكام أوروبا وملوكها مبررا لمحاربة نابليون ، وإن لم تكن الأسباب الحقيقية أوالحوافز الخفية التى كانت تتلخص فى خوف الملوك على عروشهم من ثورة فرنسا .

أى أن اللغة فى رأيه سلاح فتاك من أسلحة الحروب لايقل أثرا عن القنابل والمدافع .

أما دور اللغة فى استقرار نظم الحكم الحديثة فقد ظهر بوضوح لقادة الشعوب والأمم . فعملت روسيا جاهدة على محو الأمية ، ففى خلال عشرين عاما بعد الثورة الروسية أمكن محو الأمية بين ٣٥ مليونا من كبار السن . كذلك يقال لنا إن الصين الحديثة استطاعت خلال سنتين اثنتين أن تمحو الأمية بين ٢٥ مليونا من كبار السن . وهكذا تنبهت كل الأمم الكبرى إلى ضرورة تنمية اللغة وترقيتها فى المجتمعات والأفراد حرصا على توحيد الأفكار والأحاسيس والميول فى الشعب الواحد .

فنظام الحكم فى روسيانظام درجى يؤسس على الهيئات والنقابات فى كل قرية ، ومنها تستمد هيئات أكبر أونقابات أكبر فى المدن ، ثم تصب هذه فى الهيئات الشيوعية العليا التى تتركزفى موسكو . ورغم أن مجال النقاش والجدل فى تلك الهيئات المتدرجة مقصور على اتجاه معين هو ماينسجم وأهداف الحزب الشيوعى ومُثله ، فهى على كل حال بحاجة إلى اللغة كأداة للقول والإقناع .

أما فى ألمانيا الهتلرية فرغم أن نظامها درجى أيضا لكنه كان أشبه بهرم مقلوب ، يستقر على قمته التى هى فى النظام النازى القائد أو الزعيم الذى اختارته العناية الإلهية ،

ثم هو اختار الهيئة الحاكمة ذات المركز السامى ، ثم إن هذه الهيئة اختارت أو عينت من يليها من هيئة أدنى منها وهكذا . فكل هيئة تدين بالطاعة العمياء للهيئة التى تعلوها مركزا أو مقاما . وتتجه كل هذه الهيئات نحو هدف واحد هو الصالح العام للمجتمع والتضحية بصالح الفرد فى سبيل المجموع .

وأدرك « هتلر » تمام الإدراك أهمية اللغة وشأنها فى قيادة الشعوب فقال كلمته المشهورة فى كتابه « كفاحى » : (إن من يملك السيطرة على الكلمة المنطوقة هو القادر حقا على تملك زمام الحكم) . ومن أجل هذا أسس فى يده حكمه منظمته المشهورة فى الدعاية عن طريق الصحف والنشرات حينا، وعن طريق الإذاعة أحيانا.

ولكن الإذاعة هنا كانت سلاحا ذا حدين فهى بينما تعمل فى الداخل على توحيد القوى وتجميع الجهود كانت من الخارج أداة للهدم وتفكك الشعوب . ولم يتمكن هتلر أو غيره من السيطرة التامة على تلك الأداة الفعالة لأنها لا تعرف الحدود لتقف عندها ، بل يحمل الأثير أخبار هؤلاء وهؤلاء من القوى المتصارعة فى العالم .

أما فى النظام الديمقراطى بين أمم الغرب فأساسه حرية القول بين الأفراد . ففى الهيئات والأحزاب يصطنعون اللغة فى الجدل الحر ، والنقاش الحر ، ويقرعون الحجة بالحجة ، حتى يتبين الحق من الباطل ، أو الصحيح من الزيف ، أمام الأغلبية من الناس ، فينتصر الرأى ويؤخذ به سواء كان فى حقيقة أمره ضد الصالح العام أو فى جانبه ، فهو على كل حال رأى جمهور الناس أو الكثرة الغالبة منهم ، ولا بد من احترامه والعمل به . والمؤلف هنا يرينا أن كلمة « برلمان » قد استمدت وجودها من معنى الكلام والنقاش والجدل .

وينتهى من كل هذا إلى أن اللغة مهما كان نظام الحكم تعدّ أهم عامل فى الترابط الاجتماعى أو تكامل المجتمع .

غير أنه يعود فتكاد تسيطر عليه روح من التشاؤم [illegible] يسميه

« باللغة والنزاع فى المجتمع » ، فيرينا كيف أن اللغة كثيرا ماتساعد على خلق هذا النزاع واشتعاله ، ولا سيما فى الأمم الديمقراطية . ثم يفيض فى حديثه عن مشكلة الزنوج فى أمريكا تلك المشكلة التى تتلخص حوافزها الخفية فى كره السود واحتقارهم وبغض كل ما هو أجنبى . غير أن تلك الحوافز لم يسمح لها أبدا بالظهور ، لأنها تتعارض مع الدستور الأمريكى الذى ينادى بالمساواة بين كل سكان أمريكا . ولهذا اتخذ لها الأمريكيون البيض دوافع معلنة : كحماية البيض أنفسهم من المنافسة الاقتصادية التى تبدو من الزنوج ، وكتنقية الجنس الأبيض من كل ما يشوبه من الأجناس الأخرى . وبذلك برّروا مسلكهم أمام القانون الأمريكى الذى يدعو إلى المساواة .

كذلك قد تعمل اللغة على خلق النزاع بين الشعوب وقد تستغل فى بعث الكره ، والضغينة بين أمة وأخرى . فكلمة « نازى » كلة منحوتة من كلمتين ألمانيتين معناهما « القومية والاشتراكية » ، قد استغلها الألمان من ناحية لخلق جو جديد من الوطنية الهتلرية لا يكاد يشعر معه الفرد الألمانى بما كانت عليه ألمانيا من « قومية اشتراكية » قبل عهد هتلر ، واستغلها البريطانيون أيضا بعد أن اختفت معالمها ، وجهل الناس أصلها فى دعاية مضادة ، وجعلوا منها دلالة بغيضة كريهة فى أذهان الجمهور حتى أصبحت تفيد مزيجا من الوحشية والبربرية .

فاللغة إذن قد تستغل استغلالا سيئا ، وتتخذ وسيلة لاخفاء الحوافز البغيضة ، وتوجيه الجهود نحو هدف معين ، فى صورة دوافع براقة جذابة يخدع بها القادة الشعوب ، ويزيفون عليهم الحقائق .

وأخيرا ينتهى « لويس » من كتابه بأن يتساءل إلى أى مدى يمكن التغلب على ذلك النزاع الداخلى أو الخارجى الناشىء عن نمو اللغة وشيوع استخدامها؟ ولكنه لم يكن التوفيق حليفه فى الاجابة على هـذا التساؤل ، إذ جعل الأمر كله رهنا برغبة

الشعوب فى القضاء على مثل هذا النزاع ، وأن تكون تلك الرغبة عامة وغير مقصورة على القادة والزعماء ، أو على حسب تعبيره هو (ليس من الضرورى أن يتولد التفاهم بزيادة الاتصال اللغوى بل إذا وجد فلن يؤدى إلى حل النزاع الداخلى أو الخارجى إلا إذا وجدت الرغبة فى هـذا . يجب إذن أن تكون لدينا الرغبة المخلصة فى حل النزاع وأن تكون لنا الرغبة الأكيدة فى استخدام اللغة لهذا الهدف) .

ولكن أنّى لنا هذه الرغبة ؟ وكيف تتأتى لتلك الشعوب المتصارعة المتناحرة فى العالم ؟ لا نكاد ندرى ولا يكاد المؤلف يدرى أيضا ! إلاّ أن ينزل الله السكينة على قلوب الناس ويهديهم طريق الرشاد .

وبعد : فهذا كتاب شيق ممتع حافز على التأمل والتفكير ، غير أنى أنصح القارئ أن يتناوله فى أناة ورفق وأن يقرأه فى عناية وإمعان ، حتى تتضح له أهداف المؤلف واتجاهاته ، فتزداد متعته ويستطيع بعد الفراغ منه أن يستمد العبرة والعظة . والله ولى التوفيق .

إبراهيم أنيس

أبريل ١٩٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة في المجتمع

مقدمة

الثورة اللغوية

(١)

نحن فى وسط ثورة لغوية . فنى السنوات الخمسين الأخيرة تأثر كل تحول كبير فى حياة الناس فى المجتمع بنمو وسائل المواصلات المادية ، ولم يكن تأثره بنمو الاتصال اللغوى أقل من ذلك . ولسنا إلا فى بداية ما لابد أن يكون تغيرا شاملا فى وظائف اللغة بالنسبة للإنسانية ؛ فاليوم لأول مرة فى التاريخ نرى إمكان تعميم القراءة والكتابة ، وإمكان أن يستمع الناس جميعا إلى صوت واحد أو أن يقرأوا كلمات بعينها فى نفس الوقت .

وقد تم فى تطور سيطرة الإنسان على اللغة أربع مراحل تقدمية كلها ذو دلالة عظيمة فى تاريخ حياته وفكره ؛ تلك هى نمو اللغة نفسها ، وبدء الكتابة ، واختراع الطباعة ، ثم توصيل الكلام والكتابة فى التو واللحظة فى الوقت الحاضر .

والثورة اللغوية أثر مجمّع لكل هذه التغيرات الأربعة . فهى أثر آلات الكلام فى عالم كان قد تأثر تأثرا عميقا بآلة الطباعة ؛ عالم تُطاول فيه الكلمة المكتوبة سرعة التفكير . ولقد جاءت الآلات الحديثة فى جيل أكثر انشغالا بالكلمات من أى وقت آخر فى تاريخ الإنسانية . جيل يبدو فيه تعميم القراءة والكتابة سهل المنال ،

حتى لنعتبره أمرا مسلما ؛ ولكن مثل هـذا التعميم كان يبدو غريبا فى نظر أفلاطون لوخطر له ؛ ولربما بدا كذلك غريبا حتى فى نظر الدكتور جونسون . إن عالما كل من فيه يقرأ لعالم جديد . فالصحيفة ، والكتاب الرخيص ، والمكتبة المجانية ، كل أولئك جاء بالمطبوعات إلى أماكن لم تكن تصل إليها من قبل .

ويجب أن نفهم أهمية هذا التحول ، إذا أردنا أن نفهم مايمكن أن يؤدى إليه فى تفكير الناس وسلوكهم . أما الصحف ، فكل بيت فى هذه البلاد (بريطانيا) يشترى فى المتوسط عشرا منها فى الأسبوع [١] . وفى كل عام تظهر مئات الآلاف من نسخ الكتب الرخيصة ، والطبعات المعادة . وتخدم المكتبات المجانية جمهورا ضخما ؛ فسبع سكان بريطانيا العظمى وإيرلندة ، على وجه التقريب يستعيرون منها ؛ ويستعير كل منهم ثلاثين كتابا فى العام [٢] . وأكثر من هـذا أن نشر الكتب والصحف لم يعد محدودا بالحدود القومية ، فوسائل توصيل الكلام والاتصال بواسطته فى يومنا هذا تجعل من الممكن أن يتم « نشر مجلة كاملة فى نفس الوقت فى القارات الخمس بعد ثمان وأربعين ساعة من كتابة مادتها فى مكتب تحرير مركزى فى نيويورك أو لندن أو باريس أو موسكو أو شونجكنج . . . ومن الممكن الآن عمليا أن تجعل المادة الثقافية من كل الأقطار فى متناول كل من يريدون أن يتثقفوا ، فى مقابل مايساوى أقل من خمسة وعشرين سنتا للنسخة الواحدة » [٣] . ولأول مرة فى التاريخ ينشر كتاب فى عالم كل من فيه قارىء أولديه الاستعداد لتعلم القراءة .

يقرأ الناس أكثر من ذى قبل ، ويكتبون أكثر كذلك . وإن التوسع فى محو الأمية ، وإخراج طابع بريد قيمته بنس واحد ، وإختراع التلغراف ، قد منح

---

(١) PEP ارجع إلى آخر الكتاب لمعرفة معنى الرموز المشيرة إلى المراجع

(٢) Jast Le 199

(٣) هذا تقرير قيم من لجنة حرية الصحافة الذائعة فى جامعة شيكاغو White, pp. 10

الناس أكثر من وسيلة للاتصال الحر رغم المسافات البعيدة ، كل أولئك قد جعل الـكتابة أشبه بالعادة ؛ وذلك تحول فى العادات الاجتماعية ، ربما كان أثره عميقا فى تفـكير المجتمع وسلوكه وتـكوينه .

وقد تحولت المجتمعات التى لم يكن يقرأ ويكتب فيها إلا القليل إلى مجتمعات لا يعجز فيها عن ذلك إلا القليل . والأمى فى مجتمع كمجتمعنا هذا صائر بسرعة إلى أن يصبح شذوذا اجتماعيا ، مثله مثل الرجل الذى لا يستطيع العمل أو القتال فى المجتمعات البدائية ، وربما قاسى الأول عقوبات ليست أقل عنفا مما يلقاه الثانى . ويعتقد الملاحظون المدققون أن السلوك المعادى للمجتمع ، الصادر من الأطفال المنحرفين ، إنما هو تعبير عن التوتر العاطفى الناتج عن تأخرهم اللغوى فى المدرسة [١] .

وفى هذا العالم القارئ الـكاتب يجرى اليوم بعث للـكلمة المنطوقة ، وهو تغيير ربما كان أعظم دلالة مما سبق ؛ أمّا حقائق ذلك فمألوفة تماما ، وأما دلالته فربما كانت أقل وضوحا . ففى سنة ١٨٧٦ اخترع « بِلْ » التليفون ، وفى سنة ١٨٧٧ اخترع اديسون الجرامافون ، وبعد ذلك بعشرين عاما ، جاء استخدام ماركونى للاسلـكى فى الاتصال ، وبعدها بثلاثين عاما ، استخدم الفلم الناطق . وهكذا جاءنا نصف قرن بآلات أربع ، أصبحت اليوم جزءا من حياتنا إلى درجة أننا لم نعد نتأمل خطرها الشخصى والاجتماعى . ولـكن النتائج الممكنة من هذه الآلات أذهلت الناس فى بداية هذا العهد منذ سبعين عاما . فبعد اختراع التليفون بشهور قليلة ، قالت التيمس : « لقد حدث تغير عظيم فى ظروف الإنسانيـة ؛ فأصبح الجنس الإنسانى كله فجأة ، وبدون ضجة ، محصورا فى مسافة صالحة للتكلم والاستماع ويندر فى التاريخ الإنسانى أن تعلقت رغبة الإنسان بشىء أبعد منالا من هذا » [٢] .

---

(١) Burt YD 336 ; Schonell BS 507

(٢) المقال الافتتاحى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٧٧

ونحن نرى اليوم أن ازدياد قوة الاتصال ، سواء أكان ذلك بالكلام أم بالكتابة ، ليس إلا مجرد مظهر لهذا التغيير . فالتكلم بدلا من الكتابة ، واستماع ما نطق بدلا من قراءة ما كتب ، واستماع الجماهير التي لاحصر لها إلى نفس الكلمات في نفس الوقت ، والكلام في نفس الوقت إلى الناس جميعا ، بدلا من الكتابة إلى قلة منهم ، في كل جيل من الأجيال المتلاحقة ، والتفات الزعماء مرة أخرى إلى الكلمة المنطوقة ، باعتبارها وسيلة للاتصال بالجماهير ، بعد قرون من نمو استعمال الكلمة المكتوبة ، وتوصيل الكلمة المكتوبة في لحظة إلى جميع أجزاء العالم ، كل أولئك معناه أكثر من التوسع في الاتصال ، والإسراع به . فهذه تحولات في السلوك الإنساني يجب أن تؤثر في التفكير ، والإحساس ، والدوافع ، كما تؤثر كذلك في التصرف العلمي . وهي أكثر بكثير من ثورة لغوية . إذ هي جزء من تغيرات شاملة في الحياة الاجتماعية للإنسان لا نستطيع حتى الآن إلا إدراك بداياتها فحسب .

(٢)

ولا نستطيع أن نفهم طبيعة الثورة اللغوية إلا إذا اعترفنا بصلتها بالتحول الاجتماعي ، فمن وراء الثورة اللغوية تختبيء الثورة الفرنسية . ومعنى التوسع في حقوق المواطن توسع في محو الأمية . وفي القرن التاسع عشر ، ولأول مرة منذ الدولة الإغريقية القديمة ، منح اعتماد الحكومة على جمهرة الشعب مكانا مرموقا للمناقشات العامة في السياسة مرة أخرى . ومن المعروف في تاريخ التربية الإنجليزية في القرن التاسع عشر أن أكبر خطوتين تقدميتين تشريعيتين في توسيع حقوق المواطن قد أتبعتا بخطوتين تقدميتين في محو الأمية . فقانون الإصلاح الصادر في ١٨٣٢ تلته الهبة الأولى من الخزانة للتربية عام ١٨٣٣ ، وقانون الإصلاح الصادر في ١٨٦٧ تلاه قانون التربية الصادر في عام ١٨٧٠ . ومما يزيد الأمر وضوحا أن نلاحظ القوى

التي كانت تعمل في كل جانب في هاتين اللحظتين ، وظلت في نزاع دام طوال القرن ؛ هذا النزاع لا يكاد ينتهي إلى يومنا هذا .

ففي أحد الجانبين وقف المصلحون الفلسفيون الذين رأوا ضرورة إحداث التغيرات ، ووقف في الجانب الآخر هؤلاء العمليون الذين أحدثوا هذه التغيرات فعلا . فماذا كانت نياتُ هذا الجانب وذاك ؟ لقد بقي لنا في كتاباتهم اتهاماتهم للفلاسفة الاجتماعيين ، ولمدنهم الفاضلة ؛ ولكن الأصعب من ذلك هو الوقوف على ما كان في أذهان المشرعين ، الذين كانوا أكثر إحساسا بضغط القوى المسيطرة في أيامهم . ولم يكن الفلاسفة حكاما إلا عند أفلاطون فحسب : أما في انجلترا في القرن التاسع عشر ، فكان محو الأمية حقل معركة هؤلاء الفلاسفة . وقوبل كل مطلب من مطالب المصلحين ، بعد كفاح ، بحل وسط وضعه العمليون ، بحيث يسمح بأقل تغير ممكن . لقد رضوا بمحو الأمية بين الجماهير بكل تأكيد ، ولكن بالقدر الذي يجعل الجماهير أكثر صلاحية لأن تُحكم .

وحارب المصلحون في جبهتين . فجعلوا همهم أن يقدموا قدراً أكبر من الكتب لمن كانوا يقرأون ، وطالبوا في إلحاح بالتشريع لمحو الأمية . وقد جاء بعد كتاب بروجهام « ملاحظات عملية على تثقيف الأمة » (١٨٢٥) تأسيس جمعية لنشر المعارف النافعة (١٨٢٧) وإخراج مجلة تباع بينس واحد ، فكانت بداية طوفان من المادة الثقافية المكتوبة . وبعد ذلك بثلاثين عاما قدر ما أخرجه « جون كاسل » أحد الناشرين وحده بما بين ٢٥ و ٣٠ مليون نسخة كل عام من النشرات التي تباع بينس واحد [١] .

وبينما كان هذا التوسع في تثقيف البالغين مستمراً ، كان المصلحون يواصلون

---

(١) Trans. Brit. Assoc. 1862. 174.

الضغط من أجل بلوغ هدفهم الخاص بتعميم محو الأمية . وكانوا فى كل ذلك مدفوعين بدافعين لا يتفقان فى اتجاههما اتفاقا تاما . فباعتبارهم فلاسفة اجتماعيين ، وناشرين للكتب الرخيصة ، ومعممين للمكتبات المجانية ، كانت دوافعهم إنسانية ، تعترف بكون الثقافة خيرا فى نفسها ، وطالبوا من أجل ذلك فى عدالة ودون تفريق بألا يحرم منها إنسان . ولكنهم باعتبارهم من عداد الطبقات الحاكمة ، رأوا أيضا أن التوسع فى محو الأمية يمكن أن يكون وسيلة من وسائل الحكم . إذ يمكن أن يكون الأداة الرئيسية لتحسين الأحوال الاجتماعية ، للنهوض بالجماهير التى هبطت الحياة الصناعية بمستواها ، ولجعلها صالحة لأن تتم السيطرة عليها ، ولقد قال بنتام : إن فن الحكومة هو فن التربية ؛ فكلما ازدادت التربية قلت الجرائم [١] .

أما فى أيدى العمليين ، فقد كان التوسع فى محو الأمية أداة ذات حد أمضى ، ومدى أضيق ، فى التطبيق . فحين وافقوا عام ١٨٣٣ على المنحة الأولى من الخزانة ، لمعونة التربية ، كان ذلك ضروريا ، دون شك ، بسبب تحريض الفلاسفة الراديكاليين ، ولكن سبب الإسراع به كان يرجع إلى التغيرات السياسية الحديثة العهد . وسرعان ما أصبح من الواضح بعد تنفيذ قانون الإصلاح الصادر فى السنة السابقة أن الناخبين الأميين قد يصبحون خطرا على هؤلاء الذين يريدون أن يظلوا حكاما عليهم . ولم يضيع المصلحون الراديكاليون فرصة لتشديد الهجوم فى هذه اللحظة من لحظات الخوف . فى خلال حديث فى مجلس العموم لتأييد هبة الخزانة ، قال روباك أحد البنثاميين : « إن الكثرة المحكومة حتى الآن توشك أن تصبح عظيمة الخطر فى الدولة » وذلك فى نفس اللحظة تحذير من المخاطر التى تنجم عن تحكم الجماهير ، وتذكير بأن محو الأمية ، إذا أحسن توجيهه ، ربما أصبح وسيلة لضمان الانقياد . وكان من المناسب لمجرى الأمور فى الصناعة التى جرت على قاعدة التنافس فى تلك

---

(١) Bentham PM (ii) 236, PL (i) 569.

الأيام أن البدء فى التعبير عن مسئولية الدولة حيالها قد اتخذ شكل إعانة للمشروعات الخاصة وللإنتاج بالجملة أيضاً ؛ وذلك هو نظام العرفاء monitorial system الذى قال به « بل » و« لانكستر » .

ومضى ثلاثون عاما ، فتضخمت الهبة السنوية التى كانت عشرين ألفا من الجنيهات إلى مايبلغ على وجه التقريب أربعة ملايين ونصف مليون ؛ ولقد كان من الطبيعى بالنسبة إلى المجتمع الصناعى أن يبحث فيما إذا كانت السلعة التى تنفق عليها هذه النفقات الباهظة « جيدة ورخيصة » فى آن واحد . وقد جاء فى تقرير لجنة نيوكاسل المشكلة عام ١٨٦١ أن هذا النوع من الاستغلال كان بعيدا كل البعد عن أن يكون مربحا . وقد أشار واحد من أكثر أعضاء اللجنة وعيا وهو جيمس فريزر ، الذى أصبح فيما بعد أسقف مانشستر ، إلى أنه إذا قصد بالإصلاح التربية أكثر مما يقصد به محو الأمية ، فلن تستطيع المدارس أن تصل إلى أيهما . فما الذى يمكن أن يرجى فى تلك المناطق الآهلة ، حيث يتحتم على الغلمان أن يتوقفوا عن الذهاب إلى المدرسة فى سن العاشرة أو الحادية عشرة ؟ إنه لا يعدو هجاء الكلمات التى سيضطر الغلام إلى استعمالها ، وقراءة قصة عادية أو مقطوعة من إحدى الصحف ، وكتابة خطاب واضح مفهوم ، ووضع حساب متجر أو مراجعته ، وأخذ فكرة عن مواقع البلاد الأجنبية على الكرة الأرضية ، ومعرفة الإنجيل معرفة كافية لمتابعة عظة بسيطة ، وتذكر ما يكفى من الأسئلة والأجوبة فى كتاب التعليم المسيحى (Catechism) لمعرفة واجبه حيال الله والناس . وقد كان فريزر من الصراحة بحيث كان من رأيه أن هذا القدر ممكن التنفيذ وأن معظم المدارس حين اتخذت هدفا أبعد لم تبلغ إلا غاية أدنى[1] » .

وكان معنى هذا هو السماح بقدر من محو الأمية كاف لتدعيم البناء الاجتماعى

(١) Newcastle Commission Report, 1861 (ii) 46.

والاقتصادى القائم ، فى مجتمع تتحكم فيه مُثُلُ للمشروعات الخاصة ، وتنافس الصناعة . وكانت طريقة توفير هذا القدر مناسبة لهذه المثل ، وهى نظام « لو» Lowe « البيع بالنتائج » ، أى عدم البيع إلا حين يبدو من النماذج المختبرة أن البضاعة فى المستوى المطلوب [(١)] .

ولكن نظام « لو » مال أيضا إلى توسيع الهوة بين محو الأمية و بين التربية ، فقد منح المدارس المعانة دورا فريدا ، هو إعطاء العامل قدرا من معرفة اللغة المكتوبة، يجعله يستطيع أداء عمله بكفاية ، و يعيش فى طاعة سادته الاقتصاديين والسياسيين ، ولكنه فى نفس الوقت يقطع هذه المعرفة الفجة عن نتائجها الطبيعية فى التربية وهى نمو الشخصية ، والثقافة والتطور ، والسيطرة على المعرفة ، وتربية الذوق . لقد بدا الأمر كما لو كان الحكام قد أخذوا بالقول المأثور عن روباك (Roebuck) : وهو السماح للجمهرة المحكومة بقدر من محو الأمية ، كاف لأن يمنعهم من أن يكونوا عظيمى الخطر فى الدولة .

ولم يسكت الفلاسفة على أى حال ، ولم ينفذ النظام الجديد إلا فى مواجهة احتجاجاتهم . و بعد وقت قصير ، وجد تحولٌ آخر فى البناء السياسى منح الفلاسفة فرصة لدفع محو الأمية مرة أخرى إلى المقدمة . فإن قانون الإصلاح الصادر فى ١٨٦٧ بمضاعفته عدد الناخبين، قد جعل مجرد القدرة على القراءة والكتابة ليس غير مناسب فحسب ، بل خطرا كذلك . ولقد كان تحذير « لو » لمجلس العموم بقوله : « يجب أن نثقف سادتنا [(٢)] بمثابة الذخيرة المستعارة من العدو — وتردد تحذير روباك السابق

---

(١) The Standards of the « New Code » of 1862 embodied in the specifications of Fraser : Adamson EE 231.

(٢) لقد كان هذا هو التعبير الذى شاع فى طول البلاد وعرضها . أما كلمات « لو » الأصلية فقد كانت أقل شبها بجوامع الكلم: « أعتقد أنه من الضرورى تماما أنكم ينبغى عليكم أن تقنعوا سادة المستقبل بتعلم الكتابة » .

باعتباره إنذاراً لهؤلاء الذين فى دست الحكم ، بأنهم إذا كان عليهم أن يرضخوا لأن تحكمهم الأكثرية ، فمن الخير لهم أن يكون حكامهم متمدنين .

ولقد حاول قانون ١٨٧٠ أن يوجد توازنا بين التوسع فى منح الحقوق السياسية وبين التوسع فى التربية ، ولربما خلق من المشاكل أكثر مما توصل إلى حله . إن منح المرء قدرا من القراءة والكتابة صالحا لأن يجعله أكثر استعدادا للخضوع للسيطرة الاقتصادية والسياسية والخلقية أمر واضح ، بل ربما كان عمليا ؛ ولكن فكرة الثقافة للجميع تفتح آفاقا من المصاعب لا تنتهى . ونحن نرى اليوم نتائج تبنّى أجدادنا لفكرتى محو الأمية والثقافة معا .

ولقد كانوا هم أنفسهم أبعد ما يكونون عن الجهل بخطورة تعقد المشكلة . فرأى اللغويون والمشتغلون بما وراء الطبيعة فى ذلك الوقت بوضوح تام أن طبيعة اللغة لا تفهم إلا إذا نظرنا إلى وظائفها فى المجتمع[1] . فلئن ورثنا المشاكل التى خلقها لنا السياسيون منهم ، فقد ورثنا أيضا فهمها الذى أوحى به فلاسفتهم .

(٣)

والمشاكل واحدة فى العالم جميعه فى يومنا هذا ، لأنها نبعت من تغيرات فى الوظائف الاجتماعية للغة ، وهى الوظائف التى يتميز بها الوقت الحاضر . فالتوسع فى محو الأمية ، وتطور الاتصال اللغوى ، ربما أديا إلى الإسراف فى جعل الرجل العامى تحت سيطرة القلة بدل أن يحررا عقله وروحه . وإن الكلمة المكتوبة أولا ، فالمنطوقة ثانيا — أو الصحافة والإذاعة — ولو أنهما وسيلتان ممكنتان من وسائل وضع كل إنسان فى دائرة الاتصال ، ومن ثم تجعلانه عضوا من أعضاء المجتمع يقرر لنفسه بنفسه ، فربما تصيرانه فى الحقيقة خاضعاً لأى إنسان ينجح فى الاستيلاء على مصدر الاتصال . والكلمة مع هذا تُعتِق إذ تقيدّ ، وإذا أنت حاولت أن تجعل المرء قادرا على القراءة

(١) انظر إلى الملحق الذى فى آخر الكتاب تحت عنوان « تغيرات فى فلسفة اللغة » .

والكتابة لتحكمه فربما تجعله بذلك أكثر قدرة على حكم نفسه بنفسه ، وأشد رغبة فى ذلك .

وكان الاعتراف العملى بهذه الحقيقة مباشرا عميق الأثر فى الدول الجديدة ، التى نشأت بين الحربين . والمثال الواضح لذلك هو الاتحاد السوفيتى ، حيث كان محو الأمية هدفا رئيسيا من أهداف التخطيط، إلى جانب تطور الصناعة، والنقل، والتسلح. « لا وجود للسياسة بلا قراءة وكتابة؛ بل بدونهما توجد الإشاعات ، ومجرد الكلام ، والأحقاد » وهذه الكلمات مما قاله لينين (١) .

هنالك شرع قادة الدولة عمدا فى إضافة آلة جديدة إلى تجهيز كل عضو من أعضائها، والآن يقرأ هؤلاء الذين كان الكلام وسيلتهم الوحيدة للاتصال ويكتبون كذلك؛ وإن الأمر ليبدو كأن عضوا من أعضاء الجسم قد استُخدم عصوراً طويلة أصبح يدرَّبُ الآن على وظيفة جديدة ، أو كأن رجلا كان يستطيع المشى والجرى أصبح يستمع الآن إلى الموسيقى لأول مرة ، ويتعلم الرقص . أما بالنسبة لهؤلاء الذين يتعلمون القراءة والكتابة فى الكبر ، فلابد أن هذه التجربة مذهلة — ونستطيع أن نرى شيئا من آثارها فى السرور الذى تبديه الجماهير السوفيتية بصور الكلمات ، وفى الحروف الضخمة التى تمتد عبر بيارقهم .

والكلمات التى كانت طافية زائلة ، طالما تُكُلِّمَ بها ، واستُمع إليها ، تصبح الآن مجسمة ثابتة مرئية . وحتى بالنسبة للجيل الثانى من أبناء هؤلاء الرجال والنساء ربما يظل محو الأمية عندالجميع شيئاً غير مألوف،إذ أنهم يعيشون فى عالم من الكهول الذين لا تزال الكلمة المكتوبة فى نظرهم شيئا غريباً .

وكل ذلك على أى حال أثر على السطح ، أما الآثار الأبلغ فإنها تتغلغل بعمق فى فكر الناس ، وشعورهم ، وعملهم ، باعتبارهم أعضاء فى المجتمع . فى حصولهم

(١) Webb SC 891

على الأدوات التي تجعلهم أول الأمر أكثر قابلية للسيطرة عليهم من الناحية السياسية والاجتماعية والصناعية ، يحصلون على وسائل مقاومة هذه السيطرة . وإن اللغة المشتركة التي تجعل من الممكن توحيد الفكر والشعور والعمل في أنحاء اتحاد شاسع من الجمهوريات، ربما جعلت أعضاءه كذلك شاعرين بنواحي الاختلاف الحقيقية بينهم . فقد تتسبب اللغة المشتركة في تنازع كما تتسبب في توحيد الفكر والشعور والعمل .

ولقد ظهر في ألمانيا النازية نموذج مشابه نوعا ما ؛ وإن كان يختص بنواح تختلف عن ذلك : فسرعان ما عرف هتلر أن السلطة في يومنا هـذا تقع في يد من يستطيع أن يتحكم في استغلال الكلمات . ولقد قال : « إن القيادة فن إثارة مشاعر الجماهير »[1] . ولكن إثارة مشاعر رجال ونساء ولدت فيهم الأجيال المتلاحقة القارئة الكاتبة ضعف التأثر بالكلمة المكتوبة يتطلب من القائد أن يكون قادراً على إعطاء الكلمة المنطوقة حياة وقوة جـديدة . وهنا تصبح الكلمة المنطوقة لهذا السبب في غاية الخطورة ، ويبث المذياع رسالته في كل شارع وبيت . « أنا أعلم أن الناس يتأثرون بالكلمة المكتوبة أقل مما يتأثرون بالكلمة المنطوقة ، وأن كل حركة هامة في العالم مدينة بنموها لكبار المتكلمين أكثر من دينها لكبار الكتاب[2] » .

وربما كان هتلر في زمانه ومكانه على صواب . فالكلمة المكتوبة بالنسبة لرجل حديث العهد بها ، قوة سحرية تقريبا ، ولكن مع ازدياد الممارسة ، ينشأ عند قلة من الناس نوع من القدرة على النقد والتمييز ، كما ينشأ عند الكثرة منهم الشك والإنكار ، بل حتى السلبية الكاملة . أما بالنظر إلى هؤلاء الذين أصبحت القراءة

---

(١) « Denn Führen heisst : Massen bewegen Konnen » Hitler MK 650.

(٢) « Ich weiss, dass man Menschen weniger durch das geschriebene Wort als vielmehr durch dass gesspochene zu gewinnen vermag, dass jede grosse Bewegung auf dieser Erde ihr Wachsen, den grossen Rednern und nicht den grossen Schrieber verdankt » Hitler MK. pref.

بالنسبة لهم عادة وضعفت عنـدهم المبادرة بالاستجابة لها ، بسبب الممارسة المستمرة ، فمن الضرورى إيجاد منبه جديد ــ هو الخطيب ــ إذ تتضخم ذبذبات شخصيته بمكبر الصوت .

ولكن من نافلة القول أن نشير إلى أنه مع احتمال استماع الناس جميعا ، فى نفس الوقت إلى نفس الكلمات ، ومع أن أعمالهم وكلماتهم المنطوقة ربما كانت واحـدة ، فليس هناك من سيطرة على الكلمات غير المنطوقة التى يمكن أن تتوالد . وكلما زاد امتزاج حياة المجتمع بالكلمات ، زاد احتمال التعبير عن أفكار وأحاسيس ، ربما تبقى غير معبر عنها لو لم يزد هذا الامتزاج . وازدياد التحكم المركزى فى وسيلة مخاطبة الجماهير يبعث فى هذه الجماهير استجابات تتجه نحو الإفلات من هذا التحكم، وهنا نجد احتمال النزاع مرة أخرى، و يظهر فى الديموقراطيات أخيرا نموذج مشابه، بخصائص مميزة أيضا . فالصحافة والإذاعة ، إذ يجعلان الناس أكثر تعرضا للسيطرة الآتية من هؤلاء الذين يتحكمون فى مصادر القوة ، تقدمان إلى القراء والمستمعين فى نفس الوقت سلاحا لمقاومة هذه السيطرة . وإن حرية الكلام قد تكون منبعا لا للوحدة ؛ بل للتفرق فى المجتمع .

ولا نستطيع ، فى أى شكل من أشكال المجتمع ، أن نغير حـدود اللغة ، ولا طبيعتها ، ولا وظائفها ، دون أن تسبب تغيرات أخرى، ربما كانت غير مقصودة؛ ذلك بأن اللغة وطيدة الصلة بأفكار الناس ، وأحاسيسهم ، وأعمالهم . وإن اللغة أساسية جدا وعميقة الأثر فى كل السلوك الإنسانى ، فى حياة الإنسان فردا ، وفى حياته الاجتماعية ، حتى إن تغيرات كهذه التى تخلق ثورة لغوية لابد أن تخلق ضغطا وقلقا وتوترا ، واختلافات فى الفكر والإحساس والعمل .

وهدفنا فى الفصول اللاحقـة أن نبحث الثورة اللغوية فى محيطها فى الحياة الاجتماعية ، وسوف ننظر كيف تعمل اللغة فى المجتمع و بين المجتمعات فى عالم اليوم ؛

وأثرها فى التوحد وفى النزاع الاجتماعى كليهما. ونبدأ بالتنشئة اللغوية للفرد فى المجتمع، من الطفولة إلى الرجولة . ثم نتعدى عن ذلك إلى تحليل لوظائف اللغة فى مجتمع ما ، وعلاقتها من ثم بالفكر والإحساس والعمل الجماعى . ثم نعود أخيراً إلى أمثلة عملية لهذه الوظائف الجماعية للغة ، فى مختلف المجتمعات الحديثة ، و بين بعضها و بعض، والتأثير المتبادل بين التغييرات الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، و بين الثورة اللغوية .



القسم الأول

التنشئة اللغوية
أو
اكتساب اللغة

الفصل الأول

الطفل

(١)

إن الهدف الدائم لكل مجتمع هو أن يصبغ أعضاءه بالصبغة الاجتماعية . ثم إن السلوك الاجتماعي فى أى مجتمع بدائى إنما هو عمل عضلى فى الغالب ، وإن تاريخ الحضارة لقصة تحكى تدخل اللغة فى السلوك الاجتماعى . أما فى يومنا هذا ، فاللغة أولا وسيلة لصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعيـة . وكلما ازداد توغلا فى عضويته للمجتمع اللغوى ، لعبت اللغة دورا متزايدا ، لا فى حياته الاجتماعية فحسب ، بل فى سلوكه ، وإحساسه ، وتفكيره الشخصى . أما عضويته الفعالة فى مجتمعه ، فتعتمد مباشرة على قدرته على الاتصال بزملائه ، وقدرته على الاتصال بدورها عامل أساسى فى نموه باعتباره فردا . ومن هنا يجب أن نبدأ بعرض للطريقة التى يُنَشَّأ بها الفرد فى المجتمع اللغوى ، وبدء اللغة عند الطفل ، ونموها فى المدرسة ، ثم بالتعلم البطىء المستمر للغة الذى يظل طوال حياة الإنسان البالغ .

وصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية عملية يدوم فيها النزاع بين قوى مؤلِّفة وأخرى مشتِّتة ـ فالطفل فى نموه فى المجتمع ـ إن لم يكن بسبب ميول فى نفسه فلدرانه فى مبدأ طفولته ـ مضطر إلى طلب المعونة من الآخرين وإلى أن يرتبط بمجتمعهم وهو يسعى فى نفس الوقت إلى أن يحافظ على فرديته وينشق عنهم . ثم إن هؤلاء الآخرين يسعون من ناحيتهم إلى أن تتشرب جماعتهم هذا الطفل ولكنهم فى سعيهم هذا

يثيرون وينمون تلك القوى التى تمكنه من المحافظة على فرديته بشكل أوضح — أى على الانشقاق عنهم .

وما دامت تنشئة الطفل فى مجتمع من المتكلمين هى الوسيلة الوحيدة لصبغه بالصبغة الاجتماعية فإنها لا بد أن تقع فى نطاق هذا النزاع بين القوى المؤلِّفة والمشتِّتة . وإن جذور اللغة لتوجد عند الطفل منذ البداية ، ولكنها توجد فردية ، غير عرفية ، ولا اجتماعية ، إذ تبدو فى صورة صيحات وضوضاء معبِّرة فحسب ؛ وهى فى البداية لا تخاطب الآخرين بأى شكل من الأشكال . وتُعْنَى الجماعة بهذه الأسس الكلامية غير المُشَكَّلة فتشكلها فى صورة لغة ، وتحدد وظائفها ، لتكون وسيلة للمخالطة الاجتماعية . ولكن كلام الطفل فى كل لحظة من لحظات هذه العملية التى لا تنقطع — أى عملية الصبغ بالصبغة الاجتماعية — يظل وثيق الصلة بنفس الطفل ومعبراً عنها .

وليس معنى هذا بالطبع أن الطفل أو الجماعة يشعران بهذه القوى . فربما يظل الطفل مدة طويلة غير مدرك للأهداف التى تَلْزمه بإتقان الكلام . ومن جهة أخرى نرى أن الجماعات الأوفر حظاً من الذكاء هى التى تعى وعياً كاملا بالطرق التى تستخدمها فى تنمية لغة أطفالها . ومن هنا يجب أن يكون فهمنا لسيكولوجية الدوافع التى تدفع الفرد والجماعة إلى تنمية اللغة ، آتيا من كيفية تعبير هذه الدوافع عن نفسها فى التصرف الظاهر . ونحن نرى أن أول وظائف الكلام بالنسبة للطفل هى الاتصال بالآخرين ، والاحتفاظ بشخصيته كذلك ؛ حتى بينما يضعه الاتصال بالتأكيد تحت سيطرة الآخرين ، يقوى كذلك من فرديته ، لأنه يفتح له مسارب ربما تسيل فيها تجارب الجماعة إليه ، ليغترف منها . أما بالنسبة للجماعة من جهة أخرى فالوظيفة الأولى للغة هى تمكينها من التصرف السريع مع الوافد الجديد فيها ، ومع هذا فإن الجماعة بمنحها اللغة لكل عضو من أعضائها ، لا تجعله واحداً منها

فحسب ، بل تجعله أكثر فردية . وكلما زادت سيطرته على اللغة باعتبارها وسيلة للاتصال الاجتماعي زادت سيطرته على اللغة باعتبارها تعبيرا عن النفس .

✓ وواضح أن عملية التنمية هذه تستمر طالما كان الفرد عضوا فى جماعة؛ واكتساب الفرد للغة عملية تدوم مادامت الحياة : فى الطفولة ، وفى المدرسة ، وفى الحياة العملية، يتعلم كل فرد كيف يتصل بزملائه . فلا يكاد الطفل يلج باب الحياة حتى يبدأ فى الحصول على أسس لغة الأم . وفى خلال سنوات ثلاث أوحولها ، يستكمل المعرفة بمجموع أصواتها . ونظام بنيتها ، ومفرداتها معرفة كافية لجعله واضحا فى تعبيره عن حاجاته الملحة ، ولاستجابته استجابة مناسبة لما يطلبه منه الآخرون مما يتصل بهذه الحاجات . وكل هذا الدور الإعدادى من التنشئة اللغوية يجرى فى البيت بأقل توجيه متعمد من المحيطين بالطفل .

ثم يأتى عهد التربية الموجهة حينما يتطلب المجتمع بواسطة المدرسة وهى الأداة المتخصصة هدفا رئيسيا ، هو أن ينمى الطفل قدراته على التفاهم والتعبير . ثم تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل التنشئة اللغوية ، حين تنتهى التلمذة ، وتلك هى اكتساب اللغة طول الحياة ، والتوسيع والتهذيب الدائمان للقدرة على الاختلاط اللغوى . تلك عملية واضحة البطء والضآلة عند بعض أعضاء المجتمع حين يقارنون بالآخرين ، وربما بلغت هـذه العملية من البطء والضآلة قدرا يجعلها لاتكاد تتضح ، ولكنها ربما لاتنعدم انعداما تاما أبدا . وهذه العملية فى اللحظة الحاضرة من التاريخ أسرع منها فى أية لحظة منذ عصر طويل مضى ، وهذه السرعة مع الاستمرار فى التربية اللغوية طول الحياة ، هى فى الحقيقة ، ناحية من نواحى ماسميناه الثورة اللغوية .

دعنا ننظر الآن عن كثب إلى كل من هذه المراحل الثلاث .

(٢)

إن أولى مراحل اكتساب اللغة وهى ـ عملية التنشئة التى تبدأ عند الميلاد ـ

تعتبر عملية نمو أكثر منها عملية تعلم . فلايتعلم الطفل لغة أمه كما قد يتعلم المرء لغة أجنبية فى الحياة التالية ، فهو كلما كبر كبرت اللغة فيه .

ويقع أساس كل اللغة فى الأصوات الأولى المعبرة عند الطفل ؛ فبعد الولادة بساعات ، يبدأ فى الصياح عندما يريد التعبير عن القلق ، وهذا هو الصياح الشائع عند كل الأطفال ، ثم بعد أسابيع قليلة ، يبدأ فى نوع جديد من النطق المعبر ، وذلك فى صورة الأصوات الدالة على الراحة ، وهى شائعة تقريبا ، ومتشابهة أيضا ، عند جميع الأطفال [١] .

إن الطفل ليصيح و يصدر أصواته المعهودة ، كما يفعل كل حيوان ذى صوت ، وتستجيب أمه له ، كما يفعل كل حيوان ذى صوت كذلك . ومن المعقول أن نفترض أن نطق الصيحات ، والاستجابة لها ، ميول فطرية فينا ، كما هى فى الحيوانات الأخرى . أما الواضح تماما ، فهو أن كلا هذين الميلين يعدَّل و يتطور كثيرا بالحياة فى المجتمع . ولكون الأم تعيش فى مجتمع من المتكلمين ، تتأثر استجابتها كثيرا بالتقاليد ، أى الميراث الاجتماعى ، الذى اكتسبته خلال نموها وهى لاتكاد تشعر به . وعما يرجع لوراثتها البيولوجية والاجتماعية معا أن صيحات طفلها ترغمها على النهوض للعناية به . فتأتى إليه ، وتناغيه ، وتخفف عنه القلق ، إذا كان فى ضيق ، ثم هى تشاركه السرور ، وتزيده منه بالابتسام واللعب معه ، إذا كان مسرورا . وسرعان ماتعطى هـذه الاستجابات منها لنطق الطفل معنى يدركه هو . وكلما أتبعت صيحة القلق ، أوصوت السرور ، بلواحق معينة من التجربة ، باطراد ، أصبح الطفل يتوقع هـذه اللواحق ، التى تمسى عنده جزءا من معنى الصيحة التى ينطقها . فمعنى تلك الأصوات عند الطفل معقد بالنسبة له ، فيدل الصوت على تجربة الطفل التى يحس بها

---

(١) تميل الأصوات إلى التشابه عند جميع الأطفال ، لأن أصلهم الفسيولوجى متحد . وهذه الأصوات معبرة بالمعنى الذى يقصده داروين (Darwin EE) وهناك نقاش مفصل لهذه الحقائق فى كتاب لويس « كلام الأطفال » (Lewis I S) .

وقت صدور هذا الصوت عنه ، وعلى مايتبع ذلك من استجابات أمه لهذه الأصوات ، وإذاً لاتنبع دلالة اللغة عند الفرد منذ البداية من نفسه فحسب ، ولكنها تحدد من الخارج بواسطة بيئته الاجتماعية .

وفى النهاية يصبح نطق الطفل مقصوداً ، فيستعمل كلمات واضحة إلى حد ما ، يعنى بها أنه غير مستريح مثلا ، ويقصد بها أنه يرغب فى أن تفعل أمه شيئا من أجله، ويستعمل كلمات أخرى ليعبر عن السرور ، ويقصد بها الحصول على استجابة معينة من الذين حوله . ولكن عاملين يبدآن فى العمل قبل نمو هذا التعمد فى استعمال اللغة، ويبدو من كليهما تشابك القوى المؤلِّفة والمشتِّتة ، من حيث الناحيتان الاجتماعية والفردية ، تلك القوى التى يصطبغ بها كل نمو لغوى . وهذان العاملان هما التقليد والمناغاة (Babbling) .

(٣)

والتقليد ، كالتعبير ، نوع من أنواع السلوك تتميز به حيوانات أخرى كثيرة غير الإنسان ، فإذا نظرنا إليه باعتباره فطريا فى الإنسان فليس يصدق ذلك إلا بالنسبة لجذوره فحسب . والقدرة التى تصادفها عند الطفل فى أشهره الأولى على تقليد اللغة فجة جدا ، فالتقليد نفسه فن يكتسب ، واكتسابه محدد اجتماعيا [١] . والكبار من حول الطفل يشجعونه دائما على تقليدهم ، ويبدون الاستحسان حين ينجح ، ويصححون أخطاءه . وربما كان تقليدهم إياه أكثر معونة له فى نموه ،فهم يستعملون كلماته الطفلية باعتبارها وسيلة لتقريب لغتهم من لغته ، ومن ثم للتفاهم معه ، كما استعمل التجار الأوروبيون فى الصين نوعا محرفا من اللغة الإنجليزية (Pidgin English) . فتقدم الطفل فى التقليد أمر لامفر منه، يصاحب نموه فى مجتمع من المتكلمين ، وتحتمه ضرورة دفع الطفل بأقصى سرعة ممكنة فى داخل دائرة الاختلاط الإنسانى .

---

(١) التحديد الاجتماعى للتقليد فى عمومه ناقشه ميلر (SL) وفى سلوك الأطفال ناقشه جيوم (IE) وفى علاقته باللغة ناقشه لويس (IS) .

ولا يعتبر الطفل واحدا منا حتى يبدأ فى الكلام ، وأكثر الأفكار إثارة للفزع بالنسبة للأم ، الشابة التى تأخر كلام طفلها ، أن هذا الطفل ربما لا يتكلم أبدا ، فيظل شيئا أقل من إنسان . ومادام الطفل لا يعتبر متكلما إلا حين يستعمل كلمات نرى فيها شبها بكلماتنا ، فإن الجماعة دائما تتعجل قدرة الطفل على التقليد .

وتدل الملاحظة على أن التقدم فى تقليد اللغة يقع فى العادة فى ثلاث مراحل . فمن سن الثلاثة الشهور ، يستجيب الطفل كثيرا لكلام الآخرين بأصوات من عنده ، ثم يزيد من قربه منهم على الأخص ، إذا حاول المحيطون به أن ينطقوا أصواتا شبيهة بما ينطق . ثم يأتى من بعد ذلك وقت — يغلب أن يكون فى آخر السنة الأولى — ينمحى فيه التقليد البدائى ، وتزداد استجابات الطفل لمعنى ما يسمع ؛ وبعد مرور عدة أشهر ، يتجدد التقليد ، ولكن عناية الطفل هنا بالأصوات لذاتها ، أقل من عنايته بها لعلاقتها بمعانيها . فتقليده الآن موجه إلى الصيغ والوظائف فى الكلام المسموع والمنطوق ؛ فليس بصحيح من ثم أن يقال إن التقليد استجابة حتمية للأصوات المسموعة تحددها الفطرة . ويتقدم الطفل فى تقليده للأصوات بالمران ، والدافع الرئيسى لهذا المران هو أن الأصوات التى يسمعها ذات معان هامة بالنسبة إليه . وبهذه الطريقة يقرب ما بين حصيلته الخاصة من الأصوات وبين اللغة التى تُنطق من حوله ، ويصبغ كلامه بالصبغة الاجتماعية . وربما ظل زمنا طويلا يحافظ على فرديته شعرَ بهذا أو لم يشعر ، عن طريق مقاومته قدر ما يستطيع ، لصبغ كلامه بالصبغة الاجتماعية ويظل كثير من الأطفال يستخدم اللغة الطفلية ، حتى أواخر مرحلة الطفولة ، وإن القلة منهم تظل كذلك حتى الرجولة (١) . وهكذا ينطبع التقليد بطابع النزاع الذى أشرنا إليه بين الفرد والجماعة ، وإن حدوث كل هذا بأقل قدر من الشعور

---

(١) يبدو أن الغلمان أكثر مقاومة من البنات فهم كثيرا ما يتأخرون فى كسب الكلام ، وتشيع التهتهة والعيوب الكلامية الأخرى بينهم (انظر مثلا (Seth SC 117 - 177) ويميل المرء إلى اعتبار هذا مثلا لميل خاص بالذكورة إلى مقاومة الصبغة الاجتماعية .

ليذكرنا بالتأصل العميق لعملية التنشئة اللغوية فى السلوك الإنسانى ، ويمكن أن يحدث هذا فى الحياة اليومية ، دون أى شعور بحدوثه من جانب المتخاطبين .

والعامل الهام الثانى فى اكتساب الطفل للغة ، هو صبغ مناغاته (Babbling) أيضا بالصبغة الاجتماعية ، فبينما يتعلم التقليد ، ينفق الكثير من وقته فى المناغاة ، فيتلاعب بالأصوات ، ويبدو هذا التلاعب لأول وهلة أكثر مايكون فردية ، وأقل مايكون اجتماعية ؛ ولكن هذا أيضا يوضع فى النهاية تحت نفوذ اجتماعى ، ويُسَخَّر للمساهمة فى إنماء اللغة .

ونقصد بالمناغاة نطق الطفل بأصواته لا ليعبر بها عن قلقه أوسروره ، بل من أجل الاستمتاع الذى يجلبه هذا النطق . ويبدو أن هذا يحدث عند جميع الأطفال بنفس الطريقة ، ويتكون من سلاسل من الأصوات لامعنى لها ، تتكرر فى نماذج توقيعية ، وبنغمات خاصة (١) . فالطفل يلعب بالأصوات ، وإن منابع المناغاة من الناحية النفسية لمن نفس النوع الذى تنتمى إليه الأشكال الأخرى من لعب الأطفال . ولسنا بحاجة هنا إلى مناقشة هذه الظواهر النفسية فى المناغاة ، وعلاقتها بجمال التعبير الأدبى والتذوق . ويكفى أن نشير إلى أن المناغاة كالنواحى الأخرى من اللغة ، تنبع أولا من السلوك غير الاجتماعى ؛ وأنها سرعان مايتلقفها المجتمع ، ويصبغها بالصبغة الاجتماعية، وتتجه إلى تقوية تيار الاتصال النامى بين الجماعة والطفل .

وكون المناغاة غير اجتماعية فى مبدئها واضح من ملاحظة أن جميع الأطفال ، حتى الصم ، يناغون أنفسهم دون أن يُثاروا إلى ذلك . وتبقى المناغاة فى حياة الطفل ، وتصبح عادة عنده ، كأشكال اللعب الأخرى؛ فتصبح غاية فى نفسها، وذلك لما يجلب القيام بها من المتعة . وتظل عند معظمنا أحد الدوافع التى تدفعنا إلى نطق اللغة ، وقليل من الناس من لا يستمتع بالاستماع إلى نفسه وهو يتكلم ، مهما تقدمت به السنون .

---

(١) Lewis IS Chapter V.

وتظل المناغاة بهذا المعنى شكلا من أشكال اللّعب لإنعاش الذات ، وللاستغراق النفسى . ولـكن الجماعة لاتسمح للمناغاة أن تظل فى هذا النطاق ؛ فحين تسمع مناغاة الطفل ، يبدأ الذين حوله فى التدخل ، فيعترضون مجرى المناغاة بكلمات من عندهم ، ليصير الطفل إلى تقليد بعضها ، ويتخذ منها نقطة بداية فى مناغاة أخرى . وتؤدى به هـذه الطريقة إلى المران لاعلى أصواته الشخصية الخاصة ، غير الاجتماعية، التى لامعنى لها ، ولـكن تؤدى كذلك إلى أصوات لغة الأم ، وكلماتها ، وجملها ، وتنغيمها ؛ وهكذا يصطبغ لعبه اللغوى بالصبغة الاجتماعية ، وينتفع به فى أغراض الاتصال . ويحدث هذا أيضا بأقل قدر من الشعور منه أومن الجماعة .

(٤)

وهكذا يكتسب الطفل أصول الكلام ؛ بيد أن جعل هـذه الأصول وسيلة للاتصال بينه وبين الجماعة يتطلب طبعا أن تكون قريبة الشبه من لغة الجماعة ، من حيث الصيغة والوظيفة . فصيغ الـكلام التى يستعملها الطفل ، والمعانى التى يعطيها لهذه الصيغ ، يجب أن تقرب قدر الإمكان من صيغ لغة التخاطب من حوله . وهذا القرب شرط ضرورى لتنمية الاتصال ، ولـكن نمو الاتصال بدوره ينتهى بالتقارب بين لغة الطفل ولغة بيئته الإجتماعية . فعملية الإتصال ، والمقاربة فى الصيغة ، والوظيفة تتبادلان التأثير .

دعنا نأخذ مثالا من تاريخ الكلمة التى تعتبر فى غاية الأهمية فى مبدأ حياة الطفل : « ماما » . إن أكثر الأطفال ينطقون هذه الـكلمة أوشيئا يشبهها كثيرا فى أولى صيحاتهم ، ويتخذها معظمهم واحدة من أوليات « كلماتهم » . ومن هنا كان لنا وثائق عديدة لتطورها ، جاءت من مراقبين متعددين ، يمكن أن تصف تطورها المعروف ببعض الدقة [١] .

---

(١) Lewis I S انظر كلمة « ماما » فى فهرس الأعلام والموضوعات .

وترد بعض الأصوات ، مثل ما . . ما ، على وجه العموم فى أثناء الصيحات المعبرة فى خلال الشهور الستة الأولى ؛ ونجد الطفل عموما قرب نهاية سنته الأولى يستعمل « كلمة » لها نفس الشكل ، ويعطيها المعنى المحدد ؛ أى أنه يبدأ استعمالها فى ظروف خاصة ، بمعنى خاص ، ويستجيب لسماعها بطرق خاصة .

والتصرف الظاهر من ناحية الطفل فى هذه المرحلة هو بالطبع دليلنا المفرد إلى « المعنى » . والطريق الوحيد إلى فهم ما « يقصده » طفل فى الشهر العاشر من عمره من كلمة « ماما » هو أن نلاحظ ما يفعله حين يسمعها ، وما يقوم به حين ينطقها هو بنفسه .

ولقد وجدنا فى الحالة النموذجية (K) أن المراحل الرئيسية فى التطور كانت كما يلى : سُمع الطفل فى الشهر السادس يقول : م . . . م . . . م ، فى أثناء سلسلة من المناغاة ؛ وبعدها بشهور ثلاثة كان يقول : « ماما » حين يشعر بالقلق أو بالحاجة إلى شىء ما . أما فى شهره الثانى عشر ، فقد قال : « ماما » حين كان ينظر إلى أمه ، ويضربها على وجهها ؛ وبعدها بشهرين قالها يعنى بها سيدة زائرة ، وحين كان عمره ثمانية عشر شهرا قالها حين رأى صورة امرأة غير أمه . وصار الطفل فى نفس الوقت إلى الاستجابة إلى الكلمة بطرق خاصة . وقد حدث أول مثل من هذه الاستجابة الطفلية الظاهرة للكلمة حين كانت سنه اثنى عشر شهرا ؛ اذ أمسك بكسرة خبز مقددة ، حين قيل له « أعط ماما لقمة » (Give Mummy Crustie) ، وربما كان بعد ذلك بقليل يعطى الكسرة لأبيه ، بقدر ما كان يعطيها لأمه . ثم بعد ذلك بشهر كان يسند رأسه إلى كتف أمه ، إذا سمع من يقول : « أحب ماما » Love Mummy وفى الشهر السادس عشر كان يأتى إليها أحيانا حين تقول له : « تعال إلى ماما » (Come to Mummy) ، وفى الشهر الثامن عشر كان إذا سئل « أين ماما ؟ Where's Mummy? أشار فى العادة إلى الاتجاه الصحيح .

إن طبيعة الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب تمنع من التوغل في تفاصيل أكثر أو إعطاء أمثلة أخرى ؛ فهذا التخطيط المختصر يكفي لأن يوضح الخطوط العامة للتطور ، الناتجة عن ملاحظات متعددة.

وواضح أن هـذا القسط من كلام الطفل في البداية « يعني » بالنسبة إليه سلوكه الوجداني والنزوعي[1] ، وأن المعنى الإدراكي المحدد له لا ينمو إلا بالتدريج . فكلمة « ماما » بتنغيماتها المختلفة ، تعبر في البداية بالنسبة إليه عن إثارات وجدانية، ورغبات نزوعية ، ومن ثم تبدأ في الارتباط الإدراكي الغامض غير الوثيق ، ببعض الموضوعات ذات العلاقة بهذه التجارب الوجدانية والنزوعية ، كطعام الطفل ، ولعبه، وأمه . ثم يميل معنى الكلمة بالتدريج إلى أن ينطبق على الأم بسبب من يحيطون به إذ يستجيبون له ويتكلمون إليه بطريقة محددة ، حتى إن الكلمة لتبدأ في اكتساب دلالة إدراكية على الأم أكثر من دلالتها على الأشياء الأخرى . ولكن ضعف ارتباط الدلالة وغموضها لايزال واضحا من ربط الطفل بين الكلمة وبين تجاربه المتصلة بأشخاص غير أمه . فهو يستعملها بنفسه ، باعتبارها أمرا مصاحبا لتصرفه حيال شخص ما ؛ وحين يسمعها قد لا يعتبرها أكثر من حافز يحفزه على أداء عمل ما . ثم يتعود الطفل بعد ذلك بالتدريج ، وتحت ضغط اجتماعي مستمر ، على استعمال الكلمة ، والاستجابة إليها بدلالتها العرفية ، على الشخص المخصوص ؛ وهي أمه . وفي نفس الوقت ، كلما ضاق مجال معنى هـذه الكلمة بالنسبة إليه في هـذا الاتجاه ، اكتسبت غنى في مضمونها؛ فيتعلم بالكثير من التجربة والخطإ أن النساء الأخريات اللاتي قد يسمهين على التو « مامي » لابد له أن يدل عليهن بطرق أخرى مثل « الجدة » أو « العمة » أو « السيدة » ؛ ويتعلم كذلك أن طفلا آخر أو أن أباه ،

---

(١) إن علماء النفس البريطانيين ولاسيما ايفلنج وفلوجل وسبيرمان قد استعملوا الاصطلاح « Orectic » باعتباره مساويا (affective- connative) ليشيروا إلى حقيقة أن الوجدان والنزوع يختلطان ويتشابكان في العادة، أما نحن فنستعمله هنا ومعه الاسم orexis حيث يبدو ذلك مفيداً .

له أم Mummy مثل أمه ، لأنه بعد زمن يطول أو يقصر سيتوخى استعمال الصيغة الاجتماعية التي يستعملها الكبار ، بدل كلمته الطفلية الخاصة . وفى سنته السادسة ، أو السابعة ، يكتسب فكرة عن العلاقة الاجتماعية التى تطلق عليها هذه الكلمة ، وفى سنته الرابعة عشرة ينمى معناها تنمية أكبر ، بواسطة مدركات أخرى ، مثل البلاد الأم mother country والطبيعة الأم Mother nature .

فإذا أخذنا تلك الصورة باعتبارها صورة نموذجية لما يحدث ، فهناك شيئان واضحان فيها : أولا أن لغة الطفل منذ البداية عميقة الجذور فى العمل العضوى ، ولا يمكن أن تنفصل عنه؛ ثانيا أن اللغة فى مبدئها معبرة فى معظمها عن الوجدان والنزوع، وتتطور إلى صيرورتها إدراكية ، و إلى كونها وسيلة للدلالة على الموضوعات والمواقف.

ومادامت صيحات الطفل تدمن بين الطرق الكثيرة المختلفة من طرق سلوكه حين يحاول أن يقضى حاجاته ، فصيحاته مثل من أمثلة رد الفعل العضلى تجاه حالة من حالات القلق . ومناغاته للاستمتاع ترتبط ارتباطا وثيقا برد الفعل العضلى ، حين تُقضى حاجاته . فإذا سألنا عن معانى الحالات الأولى من نطق الطفل ، فيجب أن نقول إن صيحاته ومناغاته كلتيهما تعبران عن حالات اشتهائية ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسلوك العضلى . فالكلام بالنسبة له لم يصبح بعد وسيلة لتسمية الأشياء التى يدركها ، بل سيمضى وقت طويل قبل أن يتمكن من استعماله كوسيلة لتكوين الأحكام ، أو للاشتغال بالتفكير المنطقى . ولا شك أن لغته تكتسب بالتدريج هذه الوظائف الإدراكية ، بمجرد النضج فى قواه العقلية من جهة ، ثم عن طريق ازدياد قدرته على الاتصال بمجتمعه . وشيئا فشيئا تضيف اللغة إلى التعبير عن الإحساس والرغبة قدرة على إيصال التفكير .

وفى خلال هذا التطور جميعه يوجد التآلف والتشتت كلاهما ، فى علاقات الطفل بمجتمعه . فهناك تآلف حين يسعى الطفل إلى جذب انتباه من حوله ، و يسعون إلى

جذب انتباهه . ويتعلم كيف يستخدم الكلام ، للحصول ، على مساعدة مادية ، أو استجابة عاطفية ، أوهما معا؛ ويتعلم ذلك كذلك فى نفس الاستجابة بهاتين الطريقتين لكلام الآخرين . وهناك تآلف أيضاً فى أشكال الكلام . فالطفل يقلد أصوات اللغة الصادرة من هؤلاء الذين حوله ، حين يقاربون بين كلامهم وكلامه الطفلى .أما التشتت فيوجد فى نفس الوقت ، فى وظائف اللغة وصيغها معا . فيظل الطفل أحيانا يستعمل « كلمات » لا شبه بينها وبين ما يسمع ؛ أو يظل يتوسع فى استعمال الكلمات المقبولة بطرق يأباها العرف . وربما كانت هذه الاستعمالات غير العرفية موضع تسامح من المجتمع أحيانا ، ولكن الطفل نفسه بعد زمن يطول أو يقصر ، يلجأ إلى مسايرة الاستعمال العام . وبهذا تتكون عنده بالتدريج وسيلة للاتصال بينه وبين مجتمعه .

واعترافنا بصدق هذه الصورة التطورية فى غاية الأهمية ، إذا أردنا أن نفهم وظائف اللغة فى المجتمع . ويظل معنى اللغة خلال الحياة عميق الجذور فى العمل،ومعبرا عن الإحساس ، أما الوظائف الإدراكية للغة،واستعمالها وسيلة لتحليل الصورة المدركة للعالم الذى حولنا ، وتركيبها ، ووسيلة لتكوين الفكر ، فهذه تثبت ببطء مع دوام التبادل اللغوى بين الفرد والجماعة .

(٥)

دعنا ننظر الآن من قريب إلى الدوافع التى تدفع الطفل إلى الاتصال بالآخرين ، حتى يصبح الطفل فى نطاق هذا النوع من السلوك الاجتماعى الذى نسميه اللغة.وتبدو الحوافز من نوعين رئيسيين ، يمكن أن نسميها الحوافز التعاملية manipulative ، والحوافز التنفسية declarative .

فالطفل يستعمل الكلام بغية التعامل ، حين يكون أداة للحصول على إرضاء حاجاته الأولية ، ليقضى على المتاعب ، أو ليحصل على تجارب سارة ، أو ليطيل التجارب السارة التى بدأت . والطفل غير المستريح يحاول فى المبدأ أن يتخلص من عدم

الراحة ؛ فالتواءات جسمه ، ورفع يديه ورجليه ، وصيحاته ، التي لا تقل عن ذلك أهمية كل أولئك طرق مختلفة تبدو فيها تلك المحاولة[1] .

ثم حين يعلم أن حصوله على شيء ما ، كالطعام مثلا ، يخفف من قلقه قد تتحول محاولته هذه إلى مدّ يده مدًّا هادفا ، من أجل الحصول على هـذا الشيء . و بنفس الطريقة ، إذا وقع نظره على لعبة ككرة زاهية اللون ، مدلاة من مهده ، صاح مسرورًا ، ومد يده إليها . ولكن وقتا طويلا يمضى بالطبع قبل أن يتحقق له مايريد ؛ وهنا فرصة لتدخل الجماعة من أجل مساعدته . إذ قد تسمع صيحته فيُحْضِر الطعام إليه . أو تسمع أمه صوته ، وتهز بيدها الحنون الكرة أمامه . وهكذا يصبح نطقه أداة لتحقيق مايريد ، وهى أداة تستعمل استعمالا أعمى فيه بعض التردد فى مبدأ الأمر ، ولكنها بمرور الأيام يصبح استعمالها مصحوبا بفهم فائدتها فهما أوضح . إنها لأداة اجتماعية ، ووسيلة للتعامل مع البيئة الإجتماعية التى تتعامل بدورها حينئذ مع البيئة الطبيعية ، بدل أن يتعامل هو مباشرة مع هذه البيئة الطبيعية .

أما الوظيفة التنفيسية فتلعب اللغة فيها دورًا آخر . و من الواضح أن الطفل لايحاول فى الغالب أن يمسك بشيء من بيئته الطبيعية ، قدر مايحاول أن يعبر ببساطة عن تأثير هذا الشيء عليه . وهو يستكفي عادة بالحصول على استجابة تعبيرية مناسبة من شخص آخر . فالطفل الراقد فى فراشه مثلا وهو يصيح من السرور برقصة الضوء والظل على السقف ، يصبح أكثر سعادة حين تشير أمه إلى ذلك الضوء الراقص ، و تعبر كذلك عن سرورها . وسرعان مايتضح أنه كان يحاول عمدا أن يحصل على استجابة منها ، وأنه يصرح بسروره ليزيد فيه عن طريق الاتصال الوجدانى بها . و بهذا الإستعمال التنفيسى للكلام يحاول الطفل أن يحصل من الآخرين لاعلى تعامل مع بيئته الطبيعية ، ولكنه يستكفى حينئذ بالحصول على استجابة بالتعبير . والكلام هنا لايزال أداة

---

(١) هذه فكرة دارون عن بداية التعبير فى Expressions of the Emotions (١٨٧٢).

اجتماعية ، ولـكنها الآن ليست موجهة إلى إحداث تغيير فى البيئة الطبيعية ، بل إلى استجابة اجتماعية تعتبر غاية فى نفسها .

وإذا أردنا أن نفهم وظائف اللغة فى المجتمع ، فمن المهم أن نعترف بهذين الدافعين إلى الاتصال ؛ لا أن نعترف بالتعامل فحسب ، بل بالتنفيس أيضا . ومن السهل علينا دائما أن نلحظ الوظيفة التعاملية للغة ولـكن ليس من اليسير علينا دائما أن نرى الوظيفة التنفسية . وإن ملاحظة الطفل ، ومراعاة الاستعمال اليومى للغة فى المجتمع ، لتوضح أن الدافعين ، التعاملى والتنفيسى توأمان يتم بهما تطور اللغة عند الطفل ، ويظلان الوظيفتين الجوهريتين للغة فى المجتمع .

وتخدم الوظيفة التعاملية فى أكثر صورها تطوراً مايمكن أن يسمى النشاط العملى ، للمجتمع فى عمومه ، ولأعضائه فرادى . ومدى هـذا النشاط واسع جدا ؛ فهو يشمل العمل اليومى المباشر ، من أجل تحقيق الحاجات الاقتصادية ، كما يشمل التنظيم السياسى للجماعة ، للمحافظة على شخصيتها فى عالم تسود فيه الحروب ، ويشمل أيضا التطبيق العلمى ، للسيطرة على العالم المادى . ويستطيع الفرد بواسطة اللغة أن يستعين بإمكانيات المجتمع ، من أجل تحقيق هـذه الأهداف ، كما تستطيع الجماعة بها أن تنظم سلوك الأعضاء من أفرادها .

أما الوظيفة التنفيسية فتمتد ، عنـد نموها الـكامل من المحادثة اليومية إلى أعلى مستوى من التفاهم والتعبير الجميلين . وإن قسطا كبيرا من المحادثة اليومية إنما يتم لذاته فهو نوع من اللعب الاجتماعى — أو هو ما يسميه مالينوفسكى [1] فى وصفه للمجتمعات البدائية اتصالا ارتباطيا (Phatic communication) — فنحن نقول صباح الخير ، أو كيف الحال ؟ أو نتكلم عن الطقس ، باعتبار ذلك وسيلة للاتصال بالشخص الآخر . والتليفون وهو الذى نظر إليه فى مبدأ الأمر باعتباره آلة اخترعت لتؤدى

---

(١) Ogden MM 315

أغراضا عملية ، أى آلة لتسهيل الحصول على الفائدة التعاملية للغة ، أصبح وسيلة لتوسيع مدى الاتصال بل لإطالة مدته أيضا . وهكذا نجد تلك المحادثات اليومية تنفيسية أكثر مما هى تعاملية فى معظم استعمالها .

وتبدو الأشكال العليا للوظيفة التنفيسية فى التعبير الجمالى : فكل الفن الأدبى تنفيس طالما حركته الدوافع الجمالية : كالشعر ، والقصة ، والمقالات ، والدراما . وتوصيل الأفكار العلمية غالبا ما يتخذ وظيفة جمالية ، وذلك حين يعنى الرياضى مثلا ، لا بالتطبيق العملى للرياضة ، بل بجمال التفكير المنظم نفسه ، ساعيا إلى مشاركة الآخرين فى المتعة بهذا . ولا شك أن (هُوجْبِنْ) قد نظر نظرة غير صائبة إلى مكان الرياضة فى المجتمع ، حين بالغ فى تأكيد نشأتها ، ووظائفها العملية . فالرياضة كما يعبر عنها هامة أساسا فى المجتمع ، ليصل بها إلى الحقيقة فى أشياء مثل الإحصائيات الاجتماعية ، واتجهات السكان ، والتكوين الوارثى للإنسان ، والميزان التجارى [1] . أما نظرة (وايتهيد) إليها فهى أكثر شمولا ، إذ يشير إلى أنه بينما نجد بعض أجزاء الرياضة ، كحساب المثلثات مثلا ، قد نشأ من مسائل عملية ، نجد أجزاء أخرى ، كالمخروطات ، بدأت للاهتمام بالناحية النظرية نفسها [2] . فإذا كتب الرياضى وهو مدفوع بهذه النزعة الأخيرة ، فسيستعمل لغة الرياضة استعمالا تنفيسيا . وفى كل المراحل الراقية للوظيفة التنفيسية تؤثر اللغة فى خلق شركة فى الفكر أو فى الإحساس ، أو فى كليهما ، أكثر مما تؤثر فى تنظيم الجماعة، من أجل العمل فيما يخص البيئة الطبيعية أو الاجتماعية .

والمجتمع الذى ينشأ فيه الطفل يستعمل اللغة دائما بوظيفتيها التعاملية والتنفيسية ، والطفل نفسه ، لكون اللغة بالنسبة إليه وسيلة لخلق صلته بالآخرين ، مرغم كذلك على أن يستعملها بهاتين الطريقتين . فحالات نطقه الأولى ، كما رأينا ، تثير استجابات

---

(١) Hogben MM 25

(٢) Whitehead IM 174

من نوعين : فالناس يؤدون خدمات له ، و يستجيبون وجدانيا لتعبيراته الوجدانية . وكذلك استجابته هو لكلام الآخرين تقع فى هذين النوعين . وهكذا يتزايد أداء الاتصال اللغوى بين الطفل ومجتمعه لهاتين الوظيفتين .

وإن أحد الآثار الرئيسيه لتربية الطفل فى المدرسة هو صبغ لغته بالصبغة الاجتماعية بالتدريج ، فى هذين الاتجاهين . وفى الوقت الذى يستعد فيه لمغادرته دائرة البيت الضيقة ، ليدخل مرحلة التربية المنظمة تنظيما أكبر فى المدرسة ، يكون قد اكتسب سيطرة عظيمة على اللغة ، باعتبارها أداة لخلق الصلة بينه و بين الآخرين . فهو يستطيع أن يعبر عن التفكير ، والإحساس ، والنزعات ، بقصد تعاملى أو تنفيسى ، وقد تعلم كيف يستجيب لهذه المقاصد فى لغة الآخرين . والتربية فى المدرسة فى معظم صورها تعد تقدما فى تطور هاتين الوظيفتين من وظائف اللغة، وفى صبغ سلوك الطفل صبغا منظما بالصبغة الاجتماعية، سواء أكان سلوكا عضليا، أم إدراكيا ، أم اشتهائيا.

الفصل الثانى

الطفل فى المدرسة

لقد رأينا كيف تبدأ اللغة ، وكيف تتطور فى البيت ؛ فماذا يحدث بعد ذلك ، حين يذهب الطفل إلى المدرسة؟ إن الهدف الرئيسى للمدرسة هو أن تتابع تنشئه الطفل اللغوية إلى مدى أبعد،لأن الطفل يصل بواسطة اللغة إلى طرق التفكير والإحساس السائدة فى المجتمع(. وطرق التفكير والإحساس من بين ما تشتمل عليه المفردات والبنية فى اللغة الدارجة ، وهى الطرق التقليدية التى نمت فى المجتمع ، حيث كافح أعضاؤه ، جيلا بعد جيل فيما بين أنفسهم ، وفيما بينهم و بين العالم المحيط بهم ، ثم هى الطرق الجديدة للتفكير والإحساس التى تجد وسيلتها التعبيرية المناسبة . ومن أجل أن تبدأ المدرسة بصبغ تفكير الطفل بالصبغة الاجتماعية . بواسطة اللغة ، تجتهد فى أن تنمى فى الطفل طرق التفكير السائدة فى مجتمعه ، كما تعلمه المعارف التى جاءت نتيجة هذه الطرق ؛ وكون بناء المعرفة يتم ضرورة بوساطة اللغة أمر معروف ، ولكن ربما لم يصبح كذلك إلا منذ أيام لوك Locke . ولقد كانت هذه الحقيقة جديدة بالنسبة إليه ، حتى إنه أعطاها تأكيدا خاصا . فقد قال : إن الناس يقسمون الأشياء، ويرتبون أفكارهم عنها ترتيبا منظما ، لا على أساس خصائصها فحسب ، ولكن من أجل قدرة بعضهم على الكلام عنها مع البعض « إذ تصنع الطبيعة أشياء معينة كثيرة يتفق بعضها مع بعض فى كثير من الصفات المحسوسة ؛ وربما اتفقت كذلك فى إطارها الداخلى وتركيبها ، ولكن ليس هذا الجوهر الحقيقى هو الذى يخالف بين

أنواعها ، بل إن الناس إذ يرون الصفات المتحدة فيها يقسمونها إلى أقسام بحسب تسميتها ، لتلائم رموز فهمهم لها[١] » .

ومنذ أن كتب لوك هذا الكلام ، أصبح من الواضح جدا أننا يجب أن نتقدم برأيه خطوة أخرى . فاذا كانت اللغة تحدد التفكير ، فإن الفعل يحدد اللغة . وقد جاءنا هذا من ابحاث طلاب دراسة السلالات الشعبية ethnologists . وإن بعض المراقبين منهم من أمثال « مالينوفسكى » ، و « هوكارت » ، أظهروا لنا بالتفصيل أن المفردات اللغوية فى أى مجتمع تعكس فى تقسيمها للاشياء النشاط العملى للجماعة ، فى تناول الجماعة لهذه الأشياء . « إن اللغة فى جوهرها متأصلة فى حقيقة الثقافة ونظم الحياة والعادات عند كل جماعة؛ ولا يمكن إيضاح اللغة إلا بالرجوع الدائم إلى المحيط الأوسع وهو الظروف التى يتم فيها النطق »[٢] .

ومادام الاهتمام العملى يختلف من جماعة إلى جماعة ، ومن عصر إلى عصر ، فلابد أن تختلف صيغ اللغة ، ووظائفها ، وتختلف مع هاتين الفروض الأساسية التى ينبنى عليها الفكر ، بل حتى الاجراءات المنطقية التى تستعمل فى التفكير . ويمكن أن تكون قوانين المنطق صادقة فى كل الأحوال ولكن تأكيد بعض الفروض والإجراءات أكثر من غيرها يختلف باختلاف الزمان والمكان .

وهذا واحد من الموضوعات الأساسية التى طرقها « باريتو » فى The Mind and Society ، ولكن باريتو لم يكن بحاجة إلى توسعه فى علاجه، وغنى إيضاحاته ، ليقنعنا بالحقيقة . خذ السحر والشعوذة witchraft مثلا . كتب « بودان » الفقيه العظيم عام ١٥٨٠ مؤلفه Démonomanie ، ليبرهن بالتحليل المنطقى على أن حقيقة ظواهر الشعوذة يجب أن يقبلها كل إنسان مستعد للتفكير المنطقى ، بلاتحيز ، وبكل دقة . أما اليوم ، فإن منهج أى فقيه خطير مثله قد يختلف

---

(١) Essay BK 3 ch. vi

(٢) Malinowski in Ogden MM 305 ; Hocart, Brit. J. Ps. 1912

من نواح متعددة عما قاله « بودان »، فهو قد لايقبل فروض « بودان » الأساسية ، مثل القول بالدقة التي لاشك فيها فى كل مايقوله الإنجيل وأرسطو ، وقد يتطلب شهادة شهداء موثوق فيهم لتحقيق اعترافات المشعوذات ، وفوق كل هـذا ، يحتمل أنه يفضل أن يفـكر بالاستقراء من الأقوال ، لابالقياس على المبادئ .

ثم إن الطرق الخاصة للتفـكير إنما تشيع فى المجتمع بوساطة الاتصال . ولانقصد الاتصال اللغوى فحسب ؛ فالرموز التصويرية ، وأعمال الطقوس تلعب دورها . ولكن بينما يميل الشكلان الأخيران من الرمزية إلى أن يعبرا عن الوجدان والنزوع ، و يشكلاها ، تظل اللغة الوسيلة الرئيسية للاتصال ، ومن ثم التأثير فى الإدراك بنحو تذكر الماضى عند الفرد والجماعة ، ووعيهما بالحاضر ، وتوقعهما ، وتنبؤهما بالمستقبل .

✓ فالفرد يكتسب من اللغة إذاً طرق التفـكير الشائعة ، فى المجتمع الذى نما فيه ، واكتساب اللغة اكتساب بالضرورة لطرق التفـكير ، أى أن فى اكتساب الطفل فى المدرسة للغة اكتسابا لطرق التفـكير الشائعة ، والفروض الأساسية ، التى ينبنى عليها تفـكيرنا ، والإجراءات الاستقرائية والقياسية ، التى أشاعها تطور العلوم فى القرون الثلاثة الأخيرة .

(٢)

فادور المدرسة فى هـذه العملية، يتضح لنا هنا أن ثمة عاملين هما : طبيعة الطفل ، وطابع المدرسة . وإن دور المدرسة ليقع دائما تحت نفوذ الملامح النفسية لتطور الطفل من جهة ، ثم لتقاليد ماضيها التاريخى ، ووظائفها الحاضرة ، باعتبارها مؤسسة اجتماعية ، من جهة أخرى . وثمة ملامح عامة فى التطور النفسى عند معظم الأطفال الناشئين فى المجتمعات الحديثة ، وملامح خاصة كذلك ، ناتجة عن نمو الطفل فى

مجتمع بعينه ، بتقاليده الخاصة . وسننظر فى هذين العاملين بالتتالى ، ونوضح آثار التقاليد ، والوظيفة الاجتماعية ، من ظروف المدارس البريطانية .

ما الملامح النفسية إذاً لتطور الطفل إلى التفكير المنطقى ؟ إنه لمن المذهل أننا بالرغم من البحث الدائم فى سيكولوجية الأطفال فى السنين الأخيرة لا نعرف بالتفصيل إلا القليل عن هذه الناحية الهامة من نموهم . وربما لاتزال عبارة بياجيه Piaget (١) خير عبارة مفيدة ، ولو أنها معرضة للنقد من بعض النواحى الخاصة ؛ إذ حاول أن يوجد صلة بين نتائج الدراسات الشعبية وعلم النفس العام ، وبين ملاحظاته الخاصة للأطفال . والصورة التى صورها لما يحدث تعطينا كثيرا من العمق فى فهم تشكيل المدرسة لطرق التفكير عند الطفل ، بواسطة اكتسابه للغة وتربينا كيف يتعلم الطفل هذا الاتصال اللغوى .

والأمور الرئيسية فى عبارة بياجيه هى أن نمو قوى الطفل على التفكير المنطقى يقع فى أربع مراحل : فتفكيره حتى السنة الثالثة آلى autistic ؛ ومن ذلك الوقت إلى السنة الرابعة ذاتى egocentric ؛ ومن السابعة حتى الحادية عشرة يعرف بالحاجة إلى التبرير المنطقى logical justication ؛ وبعد الحادية عشر يحسب منطقى حقيقى truely logical . فالمرحلتان الأوليان من الآلية والذاتية تكونان معا مرحلة ماقبل المنطق ؛ وهى فكرة أخذها « بياجيه » من علماء الاجتماع من مدرسة « دركايم » ، وعلى الأخص من « ليفى بريل » ؛ الذى شرح طرق التفكير الشائعة فى بعض المجتمعات البدائية ، باعتبارها غير مجانبة للمنطق ، أو مناقضة له ، بقدر ما هى سابقة لنمو المنطق الحقيقى .

ويقصد بياجيه بالتفكير الآلى autistic التفكير الذى تحدده حاجات الطفل ، ولا يدرك إلا قليلا حقيقة العالم خارج نفس الطفل . وذلك تفكير لا يكاد الطفل

---

(١) Piaget I. P and his subsequent works

نفسه بشعريه ؛ والسلوك الإدراكى الأساسى فيه غير موجه بالغرض الشعورى ، بل هو موجه بالحاجة اللاشعورية ، وهو تفكير يستعمل خيالات تصويرية Pictorial imagery ، أكثر مما يستعمل صوراً كلامية verbal imagery ، ولهذا لا يمكن التعبير عنه بواسطة اللغة . وواضح أن التفكير الآلى شبيه جدا بالعملية العقلية اللاشعورية ، كما يصفها فرويد [(١)] ؛ ويعترف بياجيه نفسه بأنه استعار الاصطلاح (autestie) من الدراسات التحليلية التى قام بها بليلر Bleuler [(٢)] .

وحين تتحول الآلية إلى الذاتية ، يظل تفكير الطفل تمليه حاجات وجدانية ، ولكنه يبدأ فى الشعور بتفكيره وفى توجيهه . وفى خلال ازدياد اتصاله بالآخرين ، وفى محاولته أن يجعل نفسه واضحا بالنسبة إليهم ، يبدأ فى الملاءمة بين تفكيره وبين حقائق بيئته ، ويوفق ما بينه وبين تفكير الآخرين . ومادامت هذه الملاءمة أولية وموزعة ، يبقى تفكير الطفل سابقا للمرحلة المنطقية فى طابعه . فحيث يستعمل الرجل استنباطا منطقيا ، ذا تعبير لفظى ومحددا بالحقيقة الموضوعية ، يستعمل الطفل تخطيطات بصرية ، تصورية ، مترابطة بغموض ، فى مجموعات كبيرة غير مميزة ، تربط بينها الإحساسات والحاجات الشخصية .

وفى المرحلة التالية فى أثناء السنوات مابين السابعة والحادية عشرة ، يتطلب الطفل تبريرا منطقيا لتفكيره ؛ فوعيه الاجتماعى المتزايد ، واعتماده على التوجيه الاجتماعى ، وحاجته إلى الاتصال ترغمه كلها على تطلب للمقدمات الصائبة التى ليست كلها شخصية بالنسبة إليه . ولكنه مادام لم يصل إلى مرحلة الحكم الموضوعى المنطقى الكافى ، فهو يقبل بدل ذلك قواعد وإيضاحات تأتيه من الكبار ، ولا يطلب لها تحقيقا . ويستنبط لنفسه استنباطات مستقلة من تجاربه ، ولكن هذه الاستنباطات تظل بديهية أكثر منها منطقية ، ومن النادر أن يعنى باختبار صدقها [(٣)] .

---

(١) See p. 90 below

(٢) Piaget L P 59

(٣) Piaget L P 256

وأخيرا بعد سن الحادية عشرة يبدأ التفكير المنطقي الحقيقي، المصطبغ بالملاحظة الدقيقة، والاستنتاج الاستنباطي والقياسي، يلعب دوراً في حياة الطفل.

والذي يهمنا من هذه العبارة التي جاء لنا بها بياجيه هو اعتقاده القوي أن تطور تفكير الطفل يرتبط عن قرب بالاصطباغ المتزايد بالصبغة الاجتماعية في لغته. فيتعلم أولا كيف يقوم بالأعمال، ثم كيف يتكلم عنها، ويفكر فيها تفكيرا منطقيا. ومقدرته على ممارسة الأشياء في المرحلة الأولى متقدمة كثيرا بالطبع عن مقدرته على التفكير المنطقي في هذه الأشياء؛ فالطفل القادر في سن السابعة على أن يركب دراجة، بل حتى على أن يهيئها للركوب، ربما يجد من المستحيل أن يصفها بالترتيب؛ أي أن يحلل بنيتها، ويركبها في كلمات منطوقة [١]. ولكن كلما مر الزمن بدأ الطفل يتكلم هنا وهناك مع الآخرين ويسأل، ويجيب على أسئلة عنها، وهكذا يقع تفكيره فيها في النهاية في نموذج مرتب. أي أنه يتعلم التفكير المنطقي بعملية الاتصال.

وجاء النقد الرئيسي لرأي بياجيه من المراقبين البريطانيين، وعلى الأخص « برت »، و « إزاك » و « هازليت » [٢]. وردهم المبنى على الملاحظة التي لاحظوها للأطفال أيضا أن بياجية يفرض شكلا جامداً على عملية هي في حقيقتها أكثر مرونة من ذلك. فتفكير الطفل في المراحل الأولى أقل في أسبقيته على المنطق مما يدعي بياجيه. فالطفل في سن الثالثة ربما كان قادراً تماما على التفكير المنطقي الدقيق، مادام يتناول تجارب مألوفة، ومادامت العمليات المنطقية المطلوبة غير معقدة. وفوق ذلك أن المراحل المرتبة زمنيا، التي أشار إليها بياجيه، لا تصدق كثيرا إذا أخذنا في حسابنا الأطفال المتفاوتين في القدرات العقلية والظروف الاجتماعية. وفي الحق أن من

(١) the same 105

(٢) The Appendix to the Primary School Report (1931); Isaacs Intellictual Growth of Young children (1930); Hazlitt Brit. J. Ps. (1930).

خصائص الطفل الشديد الذكاء أنه يقدر على التفكير المنطقى فى وقت مبكر .

ومع الاعتراف بصواب كل هـذا ، فهو لايؤثر فى دقة الخطوط العامة للصورة التى صورها بياجيه لتطور الطفل . ولاشك أن بعض الأطفال ينمو أسرع من البعض الآخر ، وفى أية لحظة من حياة الطفل قد تبدو فى تفكيره آثار الآلية autism والذاتية egocentucity والتبرير المنطقى logical justification كما تبدو فى تفكير الكبار أيضا ، جنبا إلى جنب مع التفكير المنطقى المعترف به . ولكن كل الدلائل تدل على أن اتجاه التطور هو أساسا كما وصفه بياجيه ، وبالأخص على أن الطفل يكتسب من التفكير المنطقى فى محاولته أن يتناول باللفظ ماأصبح فى إمكانه أن يعالجه عضليا ، وما دام تفكيره المنطقى ينشأ أثناء اتصاله الكلامى ، ويعبر عنه بألفاظ كلامية ، فإن هذا التفكير تشكلّه طرق التفكير فى المجتمع الذى ينمو فيه الطفل . ودور المدرسة فى معظمه هو جعل اللغة وسيلة فعالة فى صبغ تفكير الطفل بالصبغة الاجتماعية .

(٣)

ومن المهم أن نعرف أن بحث بياجيه، وردود نقاده فى هذه النقطة ، لايتناولان إلا جانبا واحدا من النمو العقلى عند الطفل ، هو نمو قواه الإدراكية . ولم يقل أحد شيئا إلى هذه اللحظة عن تطوره الاشتهائى Orectic . ويبدو أن علماء النفس قلما شغلوا أنفسهم بالعلاقة بين النمو اللغوى عند الطفل وبين سلوكه من تلك الناحية الاشتهائية . ويحاول المرء عند عدم الأدلة المفصلة أن يخمن أن لهذا التطور الاشتهائى طابع التطور الإدراكى . ويستطيع المرء أن يفرض أن انفعالات الطفل فى المراحل الأولى يغلب أن تكون ذاتية ، غير منظمة لكونها غير معبر عنها ؛ فهى ذاتية ، بمعنى أنها تثار أساسا فى مواقف وثيقة الصلة بالحاجات الاشتهائية المباشرة عند الطفل ، وهى غير منظمة ، لأنها لاتتسم بأية علاقة منظمة بين بعضها والبعض الآخر . ثم إن

الطفل ، تحت الضغط الاجتماعى الواضح فى اللغة باعتبارها وسطا لهذا الضغط فى معظم الحالات ، يكتسب النماذج الاشتهائية الشائعة فى المجتمع حوله ، وتتعود انفعالاته أن تثار فى نفس المواقف التى تثير انفعالات الآخرين ؛ فهى تنتظم لتصير عواطف sentiments ، واتجاهات attitudes ، وتتشكل الخصائص الانفعالية المميزة للطفل emotional idiosyncrasies فى نماذج مقبولة اجتماعيا .

ومن الضرورى كذلك أن نفهم أنه توجد بالنسبة للغة اختلافات هامة بين التطور الإدراكى والتطور الاشتهائى ؛ والمجتمع يصبغ الاشتهاء بالصبغة الاجتماعية ، أى يسوق شهية الفرد فى خدمة الجماعة ، بتشجيع الرمز إلى بعض نواحيها ، واستنكاره فى بعضها الآخر ؛ وتلك عملية سنبحثها بالتفصيل فيما بعد [1] . ولكن نستطيع أن نقول هنا إن أثرها على الفرد هو أن يظل الاشتهاء لديه غير معبر عنه أكثر مما يظل الإدراك . فالعقل الباطن فى الصورة التى صورها له فرويد مكون من عقد ، أكثر مما يتكون من تفكير منطقى ، ويمكن أن توصف العقدة بأنها عاطفة أو نمط اشتهائى لا يشعر به الشخص ، إلى درجة أنه لا يعبر عنه .

والجهة التى لا يعبر عنها باللغة من الاشتهاء تميل إلى أن تتخذ لنفسها تعبيرا غير لغوى عندما تدخل فى نطاق الاتصال الاجتماعى ، كالإشارة ، والأصوات غير المفهومة ، والصور ، والمراد بتلك الصور هو الطرق التعبيرية التى يتركها التفكير الإدراكى وراءه كلما نما باستعماله للغة . وحتى فى حياة الرجولة ، حيث تستعمل اللغة فى التعبير عن الاشتهاء وإطلاع الآخرين عليه تميل اللغة إلى أن تكون تصويرية . والحياة الاجتماعية فى يومنا هذا تتحكم فيها قوة الآلات الحديثة التى تستخدم الصور بالإضافة إلى الكلمات فى التعبير ؛ فإذاعة الصور فى لوحات لصق الإعلانات Hoardings ، وفى الصحافة ، والسينما ، وشاشة التليفزيون ، تزيد من الشحنة التصويرية للغة ،

---

(١) انظر الفصل التاسع .

ولاسيا حيث تكون الكلمة المصاحبة للصور منطوقة كما فى السينما ، والراديو ، ذلك لأن التنغيم فى أثناء النطق يزيد مافيها من الرمزية الاشتهائية . وإن المزج بين الحياة الاجتماعية وبين شيوع التصوير بواسطة الكلمات والصور المستعملة إلى درجة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ليستتبع آثارا اجتماعية هامة جدا [١] .

ولانكاد نعلم الآن شيئا ، عن الطريقة التى تؤثر بها تجربة الطفل الدائمة للكلمات والصور فى نمو الاشتهاء عند الفرد فى الطفولة . وكل مانستطيع أن نقوله هو أن النمو الإدراكى لدى هذا الفرد يصطبغ بالصبغة الاجتماعية عن طريق اللغة ، أما تطوره الاشتهائى فيظل نسبيا غير مصطبغ بالصبغة الاجتماعية . فإذا قدر له أن يصطبغ بها ، فإن ذلك يتم بواسطة الصور والاستعمالات اللغوية التصويرية .

(٤)

ونحن ننتقل الآن من سيكولوجية الطفل إلى تقاليد المدرسة ، وهى المجتمع الذى يتلقفه من البيت . إن المدرسة مجتمع له مقاصد ، وأشكال للسلوك ، ولغة مختلفة حقا من نواح متعددة عن لغة المجتمع الذى عاش فيه حتى هذه اللحظة . ولقد كان كلام الطفل فى العائلة مفهوما فى العادة ، مع أن لغته لم تكن كاملة : فكلماته نصف المنطوقة وإشاراته ، وحتى سكناته ، كانت تفهم بوضوح . ولكن مجتمع المدرسة غير مألوف للطفل ، وهو مختلف عن مجتمع العائلة : فهناك أساليب فى الكلام وطرق النطق ، والتنغيم ، والإشارات ، كلها جديدة على الطفل فى فهمها ، ثم هناك أشخاص غير مألوفين ، قد لاتنجح لغته وإشاراته العادية فى إفهامهم نفس معانيها التى كانت تفهم فى وسط الأسرة . وهكذا يدخل الطفل مجتمعا جديدا حقا ، فإذا كان جوه وطريقة الحياة فيه يشجعانه على تنمية حاجاته المتزايدة إلى الاتصال ، فسوف تنجح المدرسة

---

(١) انظر الفصل العاشر .

فى أداء إحدى وظائفها الكبرى ، وهى تربية الطفل على أساليب هـذا المجتمع الأضخم ، وعلى ما فيه من فكر و إحساس .

وفى الحق أن مثل هـذا الهدف كان دائما واضحا فى فكرة المدرسة . والهدف التقليدى من كل التربية المدرسية وخصائص عملها هو تنشئة الطفل فى اللغة . وهـذا صحيح بالنسبة لكل مجتمع متمدن عندنا وثائق تدلنا على نظمه التعليمية ، كالتربية الإغريقية ، والرومانية القديمتين ، والتربية العبرية خلال القرون الوسطى وما بعدها ، والتربية الصينية التى ظلت لغوية كلها لمدة تزيد على ألفين وخمسمائة عام [1] . وقد ظل هـذا سائدا فى التربية الحديثة منذ عصر النهضة . واعترافنا بهذا يمكننا من فهم بعض مصاعب التربية فى مدارسنا فى الوقت الحاضر . فالتقاليد اللغوية دليل من أكبر الأدلة فى دراسة تاريخ التربية فى العالم الحديث ، وهى من ثم دليل على انحرافاتها الغريبة ، ولاسيما على هذا الشذوذ فى المجتمعات الأوربية ، مثل الاستمرار فى العناية المفرطة بدراسة لغتين قديمتين ميتتين، على حساب إتقان اللغة الوطنية الحية. وفى خلال كل التغيرات التى حدثت فى التربية، لاتزال المدرسة متأثرة بميراثها من التقاليد اللغوية.

دعنا ننظر إذاً إلى الخلف ، ونسأل ما القيمة التى أعطيت لدراسة اللغات القديمة عند بدء التربية الحديثة فى أثناء النهضة ؟ والجواب على ذلك . لا يعتوره الشك ؛ لقد كان الظنُّ أن دراسة اللغات القديمة تكيف فكر الغلام وإحساسه وسلوكه ، طبقا لأهداف خلقية واجتماعية مرغوب فيها . وكان الطفل يربى باللغات القديمة فى مجتمع ممتد من خلفه فى الزمان ، ومنتشر من حوله فى المكان ، و يصبح عضوا فى مجتمع فكرى و إحساسى ، ممتد من الكتاب الأقدمين ، إلى وقته هو ؛ مجتمع يبدو بقاؤه المستمر ضمانا لبقاء المدنية نفسها. و يصبح كذلك عضوا فى مجتمع كل المتحضرين من البشر الذين يعيشون فى يومه ، أى المجتمع الذى كانت أداة المخالطة فيه هى اللغة

---

(١) لم يشر المؤلف إلى الحضارة الإسلامية ، وواضح أنه لم يقرأ عنها شيئا .

اللاتينية [1] لقد كان عدم معرفة الفرد باللاتينية شيئا يحط من قدره كإنسان ، وكانت الآداب الإغريقية واللاتينية تسمى الإنسانيات (humanities) ، ولم تكن اللغات القديمة فى نظر قادة الدراسات « الإنسانية » humanities غاية فى نفسها ، ولكنها كانت أداة للتربية الخلقية والاجتماعية . كان هذا هو الفهم الواضح تماما عند هؤلاء القادة للتربية «الإنسانية» مثل « فيتو رينو دا فلتر » Vettorino da Feltre فى القرن الرابع عشر ، و « إراسموس » Erasmus فى الخامس عشر و «فيفز» Vives فى السادس عشر « ولم يكن القديم بالنسبة إلى إراسموس موضوعا للدراسة الحرة فحسب، ولكنه كان مثلا أعلى قديما لنظام اجتماعى أريد تكييفه بكيفية الظروف الحديثة » . أما «إليوت » Elyot ، الذى كان كتابه The Governor (1531) أول بيان عن المثل الأعلى للتربية الحرة فى انجلترا ، فقد كان تلميذا مقربا لإراسموس ، وقد نمت تقاليد التربية الكلاسيكية فى المدارس الإنجليزية اللغوية [2] (Grammar Schools) باعتناق مبادئ « إليوت » .

ليس من المستغرب إذاً أن تظل دراسة اللغة مركزا للتربية، أو أن تظل الإضافات المتوالية للمنهج الكلاسيكى حتى يومنا هذا لغوية فى طبيعتها ، أو أن تتسم باتجاهات لغوية . وهكذا نرى أن التطورين الرئيسيين للجهد الإنسانى فى القرون التى لحقت النهضة ، أى نمو القوميات ، ونمو العلم الاستنباطى ، لم يأتيا للمدارس فى هذه البلاد الإنجليزية بإضافات إلى محتويات المنهج ، بقدر ما جاءا بتوسع فى التربية اللغوية . و بدا الأمر كأن إحساسا قد وجد بأن المجتمع تحول إلى آفاق جديدة من العمل والفكر، فكانت أولى الضرورات هى تنشئة الصغار على استعمال أدوات جديدة للاتصال ،وفى كلتا الحالتين ــ القوميات والعلم ــ كانت اللغة القومية إحدى الأدوات التى أخذت مكانها ، لأول مرة فى المدارس اللغوية .

---

(١) واضح أن المؤلف يتجاهل الحضارات الزاهرة التى وجدت خارج المجتمع الذى يتكلم عنه ومنها حضارة العرب التى كانت أسمى من المراحل التى عاصرتها حضارة أوربا .

(٢) Woodward ER (iii) 13, 186, 289.

ولقد انعكس نمو القومية على منهج الدراسة ، بازدياد العناية بتعليم اللغة الوطنية . وجاءت اللغة الدارجة إلى المدرسة فى أول الأمر باعتبارها أداة نافعة فى تعلم اللغات القديمة كما أتى بها ڤيڤز سنة ١٥٢٣ ، ولكنها بعد ذلك بعشرين سنة فقط بدأت تكتسب حقها فى الحصول على مكان فى التربية . وقد كتب أسكام Ascham مؤلفه Toxophilus بالإنجليزية عام ١٥٤٥،وهو يخبرنا بأنه فعل ذلك لأن الكثيرين من الذين كتب هذا المؤلف من أجلهم كانوا يجهلون اللاتينية . و بعد ذلك بثلاثين عاما ، طالب ملكاستر Mulcaster ،فى كتابه Elementarie عام ١٥٨٢ ،بتوجيه العناية الكاملة للغة الوطنية ، باعتبارها أداة لا يستغنى عنها من أدوات القومية النامية والأدب القومى المتزايد . و بعد ذلك بأربعين عاما ، حين بدأت القومية تتحول إلى استعمار ، نجد برنسلى Brinsley يستعجل ضرورة جعل الإنجليزية لغة دولية، لتؤدى حاجات الإمبراطورية النامية .وهو بوصفه معلما طموحا لابد أن يكون من أوائل الذين دافعوا عن الإنجليزية ، باعتبارها لغة الامبراطورية ؛ أى لتصبح اللغة الإنجليزية مفضلة فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وكان عام ١٦٢١ هو التاريخ الذى أصدر فيه كتابه المسمى A Consolation for our Grammar School : « وكل البلاد والأماكن المختلفة . . . . من أجل إيرلندة ، وويلز ، وڤرچينيا ، ومعها جزر الهند الغربية، ومن أجل اكتسابهم السريع للساننا الإنجليزى . . . . ليتكلم الجميع لغة واحدة » . إن الاستقرار فى جزر الهند الغربية the Bermudas جعل من الضرورى زيادة العناية بالمشاكل اللغوية من أجل الاستعمار ومؤلفه « العاصفة » The Yempest (١٦١١) ، الذى يقال إن الذى دعاه إلى كتابته هو هذا الاستقرار فى المستعمرات، يعكس شيئا من تلك العناية . وأن بروسپيرو Prospero ليسبق لوك Locke فى قوله للهمجى Caliban ، بأنه حين منحه اللغة وهبه فى نفس الوقت وسيلة إلى أن يصير شاعرا بسلوكه :

وحين لم تكن تعلم أيها الهمجى

معنى ما تنطق به ؛ ولكنك كنت ترطن كأى حيوان

وهبت مقاصدك كلمات ..

جعلت مقاصدك بينة مفهومة

وكان رد الهمجى على طريقة هؤلاء الذين يشكون فى النعم التى تجلبها الحضارة إلى المجتمعات البدائية :

لقد علمتنى اللغة فكان كسبى منها

أن أعرف كيف ألعن

وبعد ذلك بسنوات قلائل ، نشأت مشاكل التفاهم الضرورى لمواجهة حاجات العلم الاستنباطى ، فكانت المشاكل فى هذه المرة مشاكل عقلية . فبالاضافة إلى تهذيب رموز الرياضة ، والتوسع فى استعمالها ، اتجهت العناية إلى الملاءمة بين اللغة الدارجة و بين وسائل نقل الأفكار العلمية بدقة ؛ وهنا بدأت حركة فى اتجاه ماأطلق عليه مؤسسوا الجمعية الملكية : « البساطة الرياضية فى اللغة » Mathematical plainness of language . أما الرياضيات،فإن المؤرخين يخبروننا أنه حين بدأت الرياضة التطبيقية الحديثة على يدى نيوتن ، بدأت فى الحال مشكلة رموز الكتابة المناسبة ، وهى مشكلة وجه إليها بعض المفكرين من أمثال « ليبتز » اهتماما كبيرا [١] . وأما العلاقة بين العلم واللغة الدارجة ، فقد كان من أوائل مشروعات الجمعية الملكية أن تكون لجنة (١٦٦٤) ، للبحث فى استعمال الإنجليزية باعتبارها لغة بحوث ، واتصالات علمية ، وكان من نتائج ذلك أن أصبح من قواعد الجمعية أن « ترفض كل إطناب ، أوانحراف ، أومبالغة فى الأسلوب . . . . وفرضوا على الأعضاء طريقة تعبير دقيقة ، واضحة ، طبيعية . . . . تضع الأشياءجميعها أقرب موضع ممكن من البساطة الرياضية » [٢] .

---

(١) Bell DM 144 ; Cajori HM 211

(٢) Spart RS.

ومما له دلالة خاصة كذلك ، أنه حين أضيفت الموضوعات الواقعية « real » إلى المنهج – وهى التاريخ والجغرافيا والعلوم – كان تعليمها فى البداية يجرى بطريقة لغوية ، وبالطرق التقليدية لدراسة اللغة، ولا يزال التاريخ والجغرافيا فى المدارس العامة تسمى أحيانا الموضوعات الإنجليزية ؛ أما فى تعليم العلوم ، فإن الطريقة التجريبية والطريقة الاستنباطية ، اللتين استعملتا فى الأكاديميات الخارجة على الكنيسة [1] Dissenting Academies فى نهاية القرن الثامن عشر لم يشع استعمالها إلا بعد نشر كتاب «أرمسترونج»، الذى سماه:الطريقة الاستكشافية The Heuristic Method سنة ١٨٩٠ .

(٥)

وبالتوسع فى تعليم القراءة والكتابة فى القرن التاسع عشر ، بدأ تعليم اللغة الوطنية فى صورة حل وسط بين التقاليد اللغوية القديمة ، وبين الحاجات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الجديدة ، الممتزجة فى كل حالاتها بدعوى وجوب التدرج فى التربية بحسب الطبقات الاجتماعية . وانحصر الانتباه لهذا فى طرفى الوظيفة العادية للغة الوطنية . فالتعليم الثانوى للخاصة ، لابد أن يحاول تعليم القيم التنفيسية للأدب والتعبيرات الأدبية ، على حين يعنى التعليم الأولى للجمهور بالاستعمالات البدائية .

وربما لم تكن توجد إلى ذلك الوقت أية فكرة عند المجتمع عن إمكان تضمن اللغة الوطنية وظائف أساسية تعاملية وتنفيسية . حتى « ماثيو أرنولد » و « رسكين» وهما مصلحان تقدميان لم يستطيعا أن يريا أبعد من مجرد إمكان تمرين الطبقات الدنيا على الاستمتاع بالقيم التنفيسية اللغوية ، ولكن هذا الاستمتاع حتى ذلك الوقت ظل امتيازا للقلة . وحين حاول « أرنولد » أن يوسع مدى منهج اللغة الانجليزية فى المدارس الأولية ، لسخطه على محدوديته ، أكد أهمية دراسة الأدب . ويرد هذا

---

(١) راجع مادة Dissenter فى دائرة المعارف البريطانية .

الموضوع باطراد فى تقريراته ، باعتباره مفتشا فى المدارس. فيقول مثلا فى سنة ١٨٧١ :
« إن الذى تشمله كلمة أدب هو فى ذاته أكبر قوة فى ميدان التربية ، وليس من المبالغة أن يقال عن هذه القوة إنها لا تحتل الآن أبدا فى مدارسنا الأولية » .

وإن رسكين رغم قوة وعيه الاجتماعى لم يقم بأكثر من الحض على أن يثقف كل امرىء نفسه كى يستطيع الاستمتاع بقراءة ميلتون [١] .

وهذه الأهداف من تعليم اللغة الوطنية فى المرحلتين الأولية والأعلى منها تدل على أى حال على أن اللغة قد أفسحت لنفسها مكانا فى المنهج وأصبحت أهميتها العظيمة فى التربية من ذلك الحين واضحة جدا فأصبحت ولو نظريا على الأقل ، تحتل مكان اللغات القديمة . إذ كانت دراسة هذه اللغات تبرر بكونها أدوات لتعليم اللغة الوطنية [٢] .

ونحن نرث اليوم التقاليد اللغوية القديمة فى التربية ، ممثلة بمرورها خلال القرن التاسع عشر ؛ ولكن حدثت فى نفس الوقت تغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية فرضت مطالب أخرى على تعليم اللغة الوطنية . وإن سبب الأفكار المعقدة المضطربة اليوم فى مدارسنا بشأن تعليم اللغة الوطنية لهو الاختلاف والتنافر بين التقاليد القديمة وهذه الظروف الجديدة . فهناك تعليم ابتدائى للغة الإنجليزية — أو استخدامها كأداة للحاجات اليومية ولبقية منهج المدرسة ، وتعليم أعلى للغة الإنجليزية أيضا — أو دراسة الأدب وإن جمعا كهذا بين المنهجين المذكورين لا يحقق التربية اللغوية الصالحة لمواجهة التغيرات الاجتماعية والسياسية العظيمة فى جيلنا ، ولا يمثل الثورة اللغوية .

وباختصار ، إن الذى أهمل فى هذا الجمع هو ما يمكن أن يسمى الوظائف

---

(١) Arnold ES 82 ; Ruskin SL.

(٢) يقول تقرير كلار ندون عن المدارس العامة سنة ١٨٦٨ فى الصفحة الخامسة عشرة من جزئه الأول « يجب ألا ننسى أن الهدف الأساسى الذى يتعلم الفتيان من أجله اللغات القديمة هو أن يتعلموا استخدام لغتهم » .

الاجتماعية التعاملية والتنفيسية للغة الوطنية ، أى هو اللغة الإنجليزية باعتبارها وسيلة لخدمة النشاط الفنى المتباين للأفراد والمجتمع ، ولخدمة النشاط الترابطى بين أفراد المجتمع نفسه . أى الإنجليزية باعتبارها وسيلة التعامل الاجتماعى .

(٦)

هناك دلائل على أى حال تدل على فهم أكبر لهذه الوظائف الاجتماعية الهامة للغة الوطنية ، ولو أن هذا الفهم لا يزال مضطربا ، كالكثير من أعمالنا فى الوقت الحاضر. وربما كان أعظم دليل على هذا ما يمكن أن نجده فى تغير الاتجاه فى تقريرين رسميين ، يفصل بينهما ما يقرب من عشرين سنة : أولهما تقرير عن تعليم الإنجليزية فى عام ١٩٢٤ ، وثانيهما تقرير لجنة « نوروود » عام ١٩٤٣ . أما الأول ، وهو يعبر عن آراء أكثر تقدما من الرأى العام التربوى حتى الآن ، فقد كان بالتأكيد شاعراً تماما بإحدى نواحى الأهمية الاجتماعية للغة الوطنية : تلك هى شطر المجتمع إلى شطرين بسبب تربية لغوية غير متكافئة : « هناك سببان فى الوقت الحاضر يميزان ويفصلان إحدى الطبقتين عن الأخرى فى انجلترا ؛ أولهما الاختلاف الملحوظ فى طريقة الكلام .. والثانى . . . . انعدام الأسس التى تلتقى الطبقتان عليها ، من أجل الأهداف الحقيقية للحياة الاجتماعية . . . . وينبغى أن يتعلم الإنجليز لغتهم لينظروا إليها باحترام أولا ، ثم بشعور أصيل من الفخر والحب .... وإن شعورا كهذا تجاه لغتنا الوطنية يمكن أن يكون وشيجة اتحاد بين الطبقات .... وإن الفخر والسرور بالأدب القومى لابد أن يؤدى إلى هذا الارتباط الوثيق[1] » .

وإن قيمة اللغة المشتركة ، والأدب العام ، فى هذا التقرير لينظر إليها باعتبار هذين من وسائل التسوية بين الطبقات . ويذهب التقرير خطوة واحدة أبعد مما ذهب إليه « ماثيو أرنولد » حين يعترف بالأهمية المتزايدة للكلمة المنطوقة . ويؤكد

---

(١) English Report 1924, 21.

المخاطر الاجتماعية الكامنة فى عدم وجود لغة مشتركة ، ولكن من الضرورى أن نشير هنا إلى أن عناية التقرير اتجهت بدرجة أكبر إلى الخصائص السطحية فى الكلام : كالاختلاف فى اللهجات ، وفى طريقة النطق ، وفى التنغيم ، وهى أمور توسع الفروق الاجتماعية ، وتديمها . ويحض التقرير على توجيه الانتباه إلى تنمية الملامح التى تدل على الطبقة الممتازة فى الكلام ؛ ووجوب رفع مستوى الكلام إنما يكون بهذا المعنى.

وبعد ذلك بعشرين عاما تغير الاهتمام فى تقرير « نوروُود » ففيه اعتراف ثورى بوظائف اللغة الوطنية . إذ ينظر إليها باعتبارها الأداة الرئيسية لتنمية فكر الفرد ، وتكوين الفكر والإحساس فى المجتمع . وفى تقرير كهذا ؛ محافظ ، بل متوجس ، تبدو العبارة الآتية قوية الوضوح لما فيها من بعد النظر ، فهو يصرح بأن تعليم اللغة الوطنية أحد ثلاثة أهداف جوهرية من التربية كلها ، أما الآخران فهما النمو الخلقى ، والنمو العضلى . « ثمة عناصر ثلاثة جوهرية فى التربية الصالحة ..... هذه هى العناصر ، التى تبدو فى نظرنا أكثر من مجرد مواد ، لكونها ، تسرى فى كل نشاط عقلى أو غيره تنشده المدرسة، وتلك هى (١) تدريب الجسم ، (٢) تدريب الخلق، (٣) تدريب التعود على التفكير الواضح، والتعبير الواضح عن الفكر، باللغة الإنجليزية[١] ». وإن ظروف زماننا قد جذبت انتباهنا هنا إلى هذه الوظيفة الأساسية للغة الوطنية ، وهى استعمالها كواسطة ضرورية للسلوك الفردى والاجتماعى .

ويحض تقرير « نوروُود » نتيجة لهذا على تربية القدرة على التفاهم ، بالكلام والكتابة كليهما . فالمدرسة يجب ألا تقصر عنايتها على تربية القيم الجمالية فى الكلام وأناقته الاجتماعية ، بل يجب فوق ذلك أن تربى فى الطفل القدرة على استخدام لغة الكلام كوسيلة للتفاهم . فطريقة الكلام ، وسهولة المخاطبة ، واختيار المفردات ، ووضوح الفكرة ، كل أولئك له من الأهمية ما لاختيار بعض الأصوات دون

---

(١) Norwood Report 1943, 66.

بعض ، أوما لشرح الشعر أو النثر . وتهدف اللجنة بالملاحظات التى أشرنا إليها هنا إلى توجيه انتباه أكبر إلى الاستعمالين : التعاملى والتنفيسى للغة الكلام ، باعتبارها وسيلة للاتصال فى المجتمع .

« وغالبا ما يقل الاهتمام بالتعبير الشفوى كوسيلة لتربية اليسر فى العلاقات الاجتماعية ، ولا نقصد من التعبير الشفوى التمرين على الكلام ، ولو أن هذا ربما كان جزءا ضروريا من تكوينه ، ولكننا نقصد هذا المران ، واليسر فى التعبير عن الفكرة بصوت مسموع ، فى محضر الآخرين ، بدرجه تؤدى إلى قدر من الثقة بالنفس ، وعلى الأقل إلى مظهر سهولة الأداء »[1] وهذه خطوة أبعد مدى مما ذهب إليه التقرير السابق ، ولكن يجب أن نتيقظ إلى التسرع الذى فى التعبير الأخير:ذلك لأن مظهر اليسر فى المخالطة الاجتماعية بالنسبة لكثير من الأطفال من الوفرة بالدرجة المأمولة .

ويبدو نفس التأكيد المتجه إلى الاتصال اللغوى فى آراء لجنة « نوروُود » بصدد تعليم التعبير المكتوب وعملية الفهم (art of Comprehension) . وتردد اللجنة ما تحس بأنه سخط عام على المستويات التى يصل إليها الفتيان والفتيات الذين يتخرجون فى المدرسة الثانوية . «حصلنا فى أثناء بحوثنا على أدلة كثيرة بشأن تعليم اللغة الإنجليزية فى المدارس الثانوية . . . . وتأتى هذه الأدلة من مصادر كثيرة مختلفة وتعضدها الحجة والتجربة وهى تستحق الاهتمام الجدى . . . . وهذا هو النقد باختصار : كثير من الفتيان والفتيات يبدون عاجزين عن القدرة على فهم الفكرة من فقرة مكتوبة، وغير قادرين على التعبير عن أفكارهم بالكتابة أوالكلام بدقة ووضوح »[2] وينبغى أن نلاحظ أن اللجنةغير مهتمه بكتابةالانجليزية الأدبية،

---

(١) the same 94.

(٢) Norwood Report 1943, 92.

أو تذوق الأدب . بل إننا نجد أن التقرير يرى أن التدريب على استعمال اللغة الوطنية ، وفهمها قد بولغ فى وضعه فى أيدى المتخصصين جدا ، ولهذا يصرف هؤلاء المدرسون عنايتهم أكثر مما يجب إلى كتابة المقالات ودراسة الأدب . وباختصار تنتقد اللجنة شدة العناية ببعض الأهداف التى كان تقرير عام ١٩٢٤ يتمنى تحقيقها .

ولإيضاح الدلالات التى فى تقرير « نورووُد » نقول : إن فنى القراءة والكتابة قد ظلا بعيدين إلى حد ما عن الحاجات الشخصية والاجتماعية عند الأطفال، كحاجتهم إلى التعبير عن أنفسهم بوضوح ، من أجل الأغراض الاجتماعية اليومية ، وأغراض المهارة الفنية ؛ وحاجتهم إلى القدرة على القراءة ، لا فى الأدب فحسب ، بل فى النشرات التى تخدم أغراضا اجتماعية أيضا ، وذلك بسبب اعتبار القراءة والكتابة أداتين أساسيتين للتربية ، أو من جهة أخرى ، لارتباطهما الوثيق بالقيم الجمالية والثقافية فى اللغة ، والاهتمام فى تقرير « نورwood » موجه إلى خلق توازن بين ما سميناه الوظائف التنفيسية والتعاملية للغة . ويجب أن نضيف أن الحاجة إلى هذا التوازن معترف بها ومطبقة فى كثير من المدارس فى يومنا هذا [١] .

ويمكن رؤية دلالة أخرى هامة جدا على نفس الاعتراف بالأهمية الاجتماعية ، ومن ثم بالأهمية الفردية للغة ، وذلك فى زيادة الانتباه الموجه إلى التدريب اللغوى للأطفال « المتأخرين » لا إلى الأغبياء فحسب ، بل إلى ذوى القدرات المتوسطة والعادية أيضا الذين يُبدون تأخرا ملحوظا فى اللغة . ويعطى المختصون الآن كثيرا من الوقت والتفكير لملاحظة نواحى عجز هؤلاء الأطفال وتحليلها ، والتوجيه المفصّل المبنى على التجربة ، الذى يقدّم للمدرسين . والكتاب العام المعتبر فى هذا الموضوع فى هذه البلاد هو كتاب « برْتْ » The Backward Child (1937) ، وفيه

(١) يوجد فى كتاب لويس المسمى « اللغة فى المدرسة » (L S) شرح أطول لهذه الاتجاهات فى تعليم اللغة الوطنية .

تحليل للتخلف فى الكتابة والقراءة ، وهناك علاج على يقترحه « شونل » Schonell، فى كتابه (Back wardness in the Basic Subjects 1942).
أما العيوب النطقية عند الأطفال ، فإنها فى جزء كبير من البلاد فى أيدى معالجى الكلام ، الذين يعملون بإشراف هيئات التربية المحلية ، فى تعاون وثيق مع المدارس ؛ وفى عام ١٩٤٤ عين هؤلاء المعالجون فى معهد معالجى الكلام College of Speech Therapists ، واعترف بهم كمعاونين طبيين ، من المجلس الطبى الأعلى . وليست النية فى هذا الكتاب أن نركز الانتباه على الوظائف الجمالية للكلام ، والقراءة والكتابة ، بل الهدف أن نرفع الأطفال المتأخرين إلى مستوى من المقدرة فى الاتصال اللغوى ، لئلا يتعطلوا بعد ذلك فى اختلاطهم الاجتماعى .

وواضح أن كل هذه الميول فى التربية تبدى اعترافا صريحا بضرورة توجيه التمرين اللغوى ، وتوسيعه فى المدرسة ، ليناسب الحاجات التعاملية ، كما يناسب الحاجات التنفيسية لكل عضو فى المجتمع ؛ أى حاجاته العملية فى مهنته اليومية ، وحاجاته الاجتماعية فى علاقته مع زملائه . وتبدو وظيفة المدرسة فى تعليم اللغة فى صورة تنمية القدرات على الاتصال عند كل فرد باعتباره عضوا فى المجتمع .

ومن ثم يتضح أن مدارسنا بدأت تتحرر من بعض التقاليد المعطلة فى التربية اللغوية ، وتوجه تربية الأطفال نحو استعمال اللغة الوطنية لتحقيق الحاجات الفردية والاجتماعية . وهذه التربية لم تعد على أى حال مقصورة على المدرسة . بل تستمر طول الحياة : أى أنها تربية لغوية مستمرة للبالغين .

الفصل الثالث

البـالغ

—

(١)

إن كل إنسان فى المجتمع الحديث يتعلم اللغة بصفة دائمة . وحين يصل الإنسان إلى سن البلوغ فى المجتمع البدائى يثبت مدى التجربة عنـده ولا يتغير ، وتظل لغة البالغ على حالها لهذا السبب. ولـكن تعقد الحياة المتحضرة يطيل مدى اكتسابه للغة، ويجعل الحاجة إلى هـذه الإطالة عامة حتى تشمل المجتمع كله . وكذلك تطول فترة اكتساب اللغة عند ما يكون المجتمع قارئا ، كاتباً ، وتتم هذه الإطالة فى المجتمع بقدر ما يتطور استعمال اللغة فى داخله . ومن الواضح مثلا أن القروى فى الوقت الحاضر عرضة لتجارب لغوية أكثر تشعباً ، ولتربية لغوية أطول مما تعرض له سلفه فى القرن الثامن عشر . فهو يتصل اتصالا أوثق بساكن المدينة،ومن ثم تصله التغيرات اللغوية التى تعكس التغير فى حياة المجتمع ، ويضاف إلى ذلك أيضاً أن الهيئات التى تشرف على تربية البالغين تسعى إليه فى قريته ، وتضيف نصيبها إلى توسيع حصيلة مفرداته ، وإلى التغير العام فى وسائل تعبيره . فالصحيفة والراديو والسينما ، كلها مؤثرات مستمرة فى نفس الاتجاه . وفى القرن الثامن عشر كان المثقف الأطول باعا فى القراءة والكتابة ، والرجل الذى سافر إلى الخارج ، هما اللذان تطول مدة اكتسابهما للغة إلى ما وراء الطفولة ؛ أما اليوم فهذه تجربة كل إنسان .

ويعنى تعقد الحياة الاجتماعية أيضاً أن تنظيم المجتمع قد اتسم بطابع تعدد المناهج العملية الجماعيـة : كتقسيـم العمل فى الصناعة ، والتجارة ، والسياسة ، والحرب .

وثمة فى كل مجموعة تباشر منهجا العملى ميل إلى تنمية نوع خاص من اللغة ، بوظيفتيه التعاملية والتنفيسية . فهذا النوع تعاملى لكونه أداة تخدم الأهداف العملية للجماعة ، خدمة مباشرة ، وهو تنفيسى لأنه يكون وجدان الجماعة ونزوعها ، ليهيئ الظروف لعملها المشترك من ناحية ، ولأن تكوينهما غاية فى نفسه من ناحية أخرى . إن الاصطلاحات الفنية ، والاستعمالات العامية المرتجلة slang ، واللهجة المهنية ، كل أولئك نواح من اللغات الخاصة التى تنمو فى الهيئات المختلفة ، الداخلة فى مجتمع أكبر .

وأخيراً يتطلب تعقد الحياة الحديثة وسائل عظيمة التطور للاتصال بين المجتمعات ، وهو كذلك يمنح هذه الوسائل للمجتمعات فى نفس الوقت . واللغة سلعة للتصدير . والاتصال المتبادل بين الأفراد والجماعات فى يومنا هذا يدل ، كما لم يدل من قبل ، على أنه لا يوجد مجتمع متحرر تماما من نفوذ لغات المجتمعات الأخرى . ولغتنا الإنجليزية على الأخص ، ذات نفوذ متزايد فيما وراء شواطئنا ، وهى متأثرة باللغات الأخرى . فاللغة القومية للانجليز الآن لغة الملايين فى المجتمعات الأجنبية نسبيا ، فى أجزاء بعيدة من الكرة الأرضية . وصيغ المخاطبة الأمريكية تندمج يوميا فى لغة الإنجليز أيضاً ، وهذا الأثر الأمريكى على وضوحه فى تأثير الراديو والسينما على كلام الأحداث ، ليس أقل قوة فى صبغ لغة الصحف الشعبية بالصبغة الأمريكية دون أن تفطن هذه الصحف إلى ذلك .

وسرعة الاتصال الحديث ومداه يضعان لغة الفرد العادى كذلك تحت تأثير نفوذ مجاله أوسع ؛ فالاقتراض من اللغات الأجنبية ، وهو أمر نصادفه يوميا فى الصحافة ، والراديو ، سرعان ما يصبح تعبيراً شائعاً يدخل معظمه ضمن اللغة فى الاستعمال اليومى ، ولا ينظر إلى هذه الاقتراضات بعد شيوع استعمالها باعتبارها كلمات وافدة .

وهذا الذى نجده فى لغتنا يعتبر مظهرا لحركة عامة فى العالم . فالاتصال المتبادل بين المجتمعات ضرورى وممكن . دعنا أولا نلاحظ أن القوى الأربع الكبرى :

وهى الكومنولث البريطانى ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، والصين ، كلها مجتمعات موحدة توحيداً فيدراليا ، ولهذا تواجهها مشكلة ضرورة وجود لغة واحدة مشتركة فى الاتحاد . ويجب أن نلاحظ ثانيا أن هناك ضرورة متزايدة لوجود لغة مشتركة من أجل مجتمع أوسع من ذلك ، أى لغة مشتركة للعالم كله .

واكتساب البالغ اللغة فى أيامنا هذه معقد كذلك أو على الأقل قابل للتعقد ، فالبالغ عضو فى هيئة أو هيئتين . كالمهنة ، ونقابتها ، أو اتحادها ، وكالنوادى التى تخدم وقت فراغه ، وكاللجان ذات الطابع الاجتماعى أو السياسى . وهو كذلك عضو فى المجتمع القومى بلغته الوطنية ، وهو مجتمع يتغير تغيرا محسوسا فى خلال حياة الفرد ، ويتطلب ذلك من كل شخص فى ظروفنا الحاضرة سيطرة على الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة أعظم مما مضى . ولقد نستطيع أن نتصور مطلباً أكبر يحققه الرجل العادى ، هو أن يبدأ فى اكتساب لغة أوسع فى مجالها من المجتمع القومى ، وتلك وسيلة الاتصال المتبادل بين الشعوب .

ونتساءل بعد هذا عن العوامل المؤثرة فى التنشئة اللغوية المستمرة للبالغ ، ونحن بالصدفة فى موقف يسمح لنا بالإجابة على هذا التساؤل ؛ لأن العمليات العادية للتنشئة اللغوية تشتد وتسرع فى أيامنا هذه على عادتها فى أوقات الحروب ؛ فالحاجات العسكرية والاقتصادية فى الحرب الحديثة تولّد جماعات جديدة ، فى إطار المجتمع الأكبر ، وتميل كل جماعة منها إلى تنمية لغتها الجماعية الخاصة . وثمة فى نفس الوقت تغيرات أكثر ورودا ، وأعظم سرعة ، فى اللغة القومية ، مسببة عن أشكال النشاط الجديدة التى يطلب من كل فرد أن يقوم بها خلال الحرب ؛ فتوجد مناهج عملية جديدة وضرورة زائدة للتعاون الاجتماعى ، وأخيراً تتطلب حاجات الحرب ، كما تتطلب حاجات إعادة التنظيم بعد الحرب تطور الاتصال الدولى وتنظيمه .

دعنا نفكر باختصار فى كل من هذه الميول التى تقوى وتشتد فى أيام الحرب :

أقصد نمو لغات خاصة فى جماعات خاصة فى داخل المجتمع ، ونمو الاتصال فى المجتمع ككل ، وتنظيم الاتصال بين المجتمعات ،من حيث تأثير كل ذلك فى التنشئة اللغوية للأعضاء البالغين فى المجتمع .

(٢)

إن نمو لغات اجتماعية لجماعات خاصة منظمةفى داخل إطار المجتمع الأكبر ظاهرة شائعة فى تاريخ اللغة . وكلما انتظم الناس فى مجموعات لأغراض تخصصية ، جنحوا إلى خلق لغة غريبة نوعا ما عن اللغة التى يتكلمها المجتمع الأكبر الذى يَحْيَوْنَ فيه، فرطانة المتشردين ، وتفاهم اللصوص ، واصطلاحات معلمى القرون الوسطى ، واللغة السّرية للماسونية ، كل أولئك أمثلة واضحة لهذه الظاهرة [١] . وفى أيام الحرب يزيد ميل العمل الجماعى إلى خلق لغة جماعيــة خاصة زيادة مفاجئة . فيوجد فى هذا الوقت نمو كبير فى ارتجال الكلمات ، والتعبيرات غير المألوفة ، فى الورشة ، والمخيّم ، والمطار . وكذلك تكون الحال فى الحرب الجوية ، وكلما جدّت أشكال جديدة متعددة من العمل ، قوى نمو اللغة الجديدة .

وأول ملاحظة تستحق أن نسجلها هنا أن الحرب ، مادامت تهم كل عضو فى المجتمع فى أيامنا هذه ، فكل شخص يمر فيهـا بتجربة اكتساب التعبيرات الخاصة بالجماعة التى هو منها . ويتعلم البقال أو النجار ، أو الكاتب فى أيام السلم اصطلاحات مهنته ، وربما لايتعلم لغة جماعة أخرى إلا إذا كان يتعلم مفردات هواية ، كالتصوير الفوتوغرافى ، وصيد السمك بالطعم ، وتسلق الصُّخُور . ولكن البقال فى أيام الحرب يكون فى الجيش ، ويكون النجار فى مصنع الذخيرة ، والكاتب فى سلاح الطيران الملكى؛ وكل منهم يتعلم لغة مهمته الجديدة .

---

(١) وربما يلاحظ أيضاً الطابع الدولى لهذه اللغات الخاصة حيث تكون الجماعات المعنية من أمم مختلفة ؛ وهذا صحيح نوعا ما فى الأمثلة الأربعة المذكورة أعلا هذا الكلام . ثم هو أكثر وضوحا فى لغات خاصة كلغة الغجر (Romany) ولغة يهود ألمانيا (Yiddish) .

دعنا نلاحظ ما يحدث للفتى المجند فى أحد الأسلحة ، أو فى الصناعة ، حين تجابهه اللُّغَيَّة (lingo) الخاصة بجماعته الحديثة ، التى قُذِف به فجأة فيها ، ويستحق هذا أن نعيره اهتماما ؛ لأنه يجعل فى مقدورنا أن نرى فى الدوائر المحيطة ، وبسرعة زائدة ، كثيرا مما يحدث عادة فى اكتساب اللغة البطىء الذى يظل طول الحياة . فهذا « فلم » سريع لنماذج النمو .

فى تنشئة هذا القادم الجديد على لغة جماعة خاصة ، نجد العوامل التى تظهر فى بدايات اللغة عند الطفل معدلة بالطبع بتأثير النضج والتجربة . ونجد الوظيفة المزدوجة للغة — التعاملية والتنفيسية — تكيف عملية التنشئة اللغوية كلَّها . وكذلك نجد النزاع المعهود بين مقاومة الفرد لأن يصطبغ بالصبغة الاجتماعية ، ولأن تتشربه الجماعة من جهة ، وبين حاجته إلى الدخول فى عضوية الجماعة من جهة أخرى . ونجد أن عمق التنشئة يختلف باختلاف المزاج والتربية البيئية ، ومن ثم باختلاف الجنس .

وواضح أن المجند يصبح فى الحال خاضعا لهاتين الحاجتين اللغويتين ، التعاملية والتنفيسية ، اللتين توجدان كلما انتظم الناس فى جماعات من أجل العمل معا فهناك من ناحية توجد الاصطلاحات المطلوبة لجعل العمل المنظَّم سريعا ومنتجا ، وهناك من ناحية أخرى توجد الحاجة إلى استمرار وحدة الانفعال والتجربة الاجتماعية بين أعضاء المجتمع ؛ إن التعبيرات النامية إذاً أداة لخلق العمل العام ، المنتج من ناحية ، ووسيلة ورمز للولاء للجماعة ، من ناحية أخرى ؛ وهى تنمّى فى النهاية بغيرة وحماس باعتبارها التعبير الظاهر عن وحدة الفكر والإحساس والعمل فى الجماعة [1] .

---

(١) إن كتاب Hunt & Pringle المسمى Service slang والمنشور عام ١٩٤٣ مجموعة شاملة للتعبيرات المرتجلة للجماعة فى الحرب . ومن ٨٦٠ تعبيرا نجد ٢٤٠ استعمالاتها جديدة والبقية كلمات موجودة من قبل ولكنها اتخذت معنى جديدا . ويوضح أحد الأمثلة سرعة انتشار تعبيرات سلاح الطيران الملكى وتحديه لعرف اللغة الوطنية وهذا المثال هو « Elsan Gen » ومعنى ذلك حرفيا « أخبار مختلقة فى مراحيض الرجال » . أما « إلسان » فهو الاسم التجارى للمراحيض الكيماوية المركبة فى قاذفات القنابل ، وأما « جين » فهو اصطلاح عام فى سلاح الطيران معناه أخبار .

المقاومة : لقد رأينا أن الطفل يميل إلى مقاومة كل جديد فى لغته الأساسية ، وفى نفس الوقت يرحب بهذا الجديد ، فهناك تنازع دائم بين هذين الاتجاهين . ويدوم الاتجاهان ــ المقاومة والقبول ــ طول الحياة ؛ وهما إما أن يقويا ، أو أن يضعفا ؛ ويبقيان فى الشعور إلى حد ما ، بحسب الظروف ، والمزاج ، والتربية البيتية للفرد . أما فى حالة الفتى المجند ، المنضم إلى جماعة ، فكل شىء يساعد على إضعاف مقاومته للجديد من الكلمات . وحيرته التى فى البداية ، وتوجسه الاجتماعى فى وجه الكلمات الجديدة ، بل بدرجة أكبر ، فى وجه الكلمات المألوفة المستعملة بمعنى جديد ، كل ذلك يتضافر على جذبه إلى لغة الجماعة . وكما حدث فى أيام شكسبير ، يعود إلى بيته فى إجازة ، وهو « ملىء بالاستعمالات الغريبة » ، وفخور بها . ومفردات التعبيرات المرتجلة فى الجيش تعطينا أكثر من دلالة على هذه الحيرة [1] . إن الحاجة إلى الهرب بأقصى سرعة ممكنة من حالة الارتباك الاجتماعى ، هى بالطبع دافع قوى لحذق اللغة الجديدة .

ولكن الخصائص الفردية تلعب دورها فى التعجيل بالعملية أو فى تأخيرها . فالفتى المستعد بطبعه وتربيته لأن يندمج فى الجماعة الجديدة ، والذى يميل إلى المغامرة فى علاقاته الاجتماعية ، والذى لا يمانع فى « ممارسة تجارب جديدة » ، هو المجند الذى يتعود سريعا على اللغة الجديدة .

وثمة اختلافات مميزة بحسب الجنس ، فربما كانت هذه العملية عند الفتيات أكثر تعقيدا مما هى عند الفتيان . وتبدو النساء فى مجموعهن ذوات نزعات أقوى إلى المحافظة فى اللغة من الرجال ، أما فى هذا الموقف الاجتماعى الذى نحن بصدده ، فإن هذه الدوافع إلى المحافظة عند النساء تبدو فى عدم الميل إلى قبول تلك التعبيرات

---

(١) - Goom - هو الاسم الذى يطلقه أهالى غرب انجلترا على المجند ويظهر أنه أطلق عليه لأن القادمين الجدد من الجيش ميالون إلى الكلام بتعبيرات غير محددة حتى يتعودوا على البيئة المحيطة » .

* Comedian قائد . إن الجنود الذين أرسلوا إلى مضحك المخيم قد بحثوا ساعات عديدة أحيانا عن هيئة للترفيه » (من كتاب Hunt) .

العامية . وهذا هو الشيء الوحيد الذى تسكون فيه الفتاة بوجه عام أنضج من الفتى الذى فى مثل سنها من الناحية الاجتماعية ، وأكثر التزاما للمثل الاجتماعية منه ، فهى أكثر استقراراً فى عاداتها الاجتماعية ، ومن ثم أكثر مقاومة للتغييرات حينما تدخل فى جماعة جديدة . وإن ميلها العام إلى المحافظة ليعمل حينئذ فى اتجاه المقاومة فى هذه الحالة الخاصة ، فهى أقل استعدادا من الرجل لترك سلوك مجتمعها الأكبر ، ومنه السلوك اللغوى . وهى أكثر تأثرا بالحاجة إلى بقائها محترمة من الناحية الاجتماعية ، و إلى محافظتها على مستويات السلوك و إلى عدم رغبتها فى الاندماج لتحترس بذلك من السلوك الذى يوحى بإرخاص قيمتها الشخصية . والنساء فى الجماعات المنظمة لهذا السبب أقل احتمالا لإنشاء لغة خاصة من الرجال [1] .

ثم إن النساء من جهة أخرى أكثر استعدادا من الرجال للربط بين فكرة السمو الاجتماعى و بين الذين يستخدمون شكلا منتقى من أشكال اللغة ، وهن أكثر قبولا لما يعتبره المجتمع حسنا من التعبيرات وطرق الأداء [2] . ومن نتائج ذلك أن لغة الضابطة أو السكاتبة فى الخدمات النسائية لا تبعد كثيرا عن مستوى لغة المجندات ، فى حين نجد الرجال على العكس من ذلك ، إذ أن الكلمة بين الضباط منهم قد تصبح مما يستحى الجندى أن ينطق به (taboo) ، لدلالتها على مستوى ثقافى أرفع من مستواه .

والسن عامل آخر هام . فالطفل كما رأينا يميل وقتا ما إلى مقاومة الأشكال الجديدة فى الكلام ، وهو يفضل فى الموقف الجديد أن يستغل حصيلته المحدودة ، وحين يحس بالقوة الإجتماعية التى تمنحه إياها اتساع حصيلة المفردات عنده ، يهيم بالتجارب الجديدة فى اللغة ، و ينمو هذا الهيام بوجه عام خلال الطفولة ، وقد يلاحظ كثيرا فى

---

(١) ثمة ثلاثة فقط من ٨٦٠ تعبيرا فى Service slang وجدت فى أوساط المجندات .

(٢) العوامل الفعالة هنا هى نفسها التى فى سلوك المرء فيما يختص بالملابس :

- Flugel : The Psychology of Clothes.

البلوغ ؛ حتى إن حب التعبيرات الجديدة المسبب عن ذلك الميل قد يكون مضحكا لمن حوله . أما الآن فى وقت الحرب فترى معظم المجندين حديثا لا يكادون يتخطون مرحلة البلوغ ، وإن ذلك ليساعد على كثرة التعبيرات الخاصة فى أيام الحرب .

وبالرغم من المحافظة اللغوية ومقاومة الابتداع ، تتسبب الحرب فى أيامنا هـذه بنمو خصب فى لغات الهيئات ، وفى التعبيرات الخاصة ، التى سوف تترك أثرها فى اللغة القومية بلا شك .

(٣)

وفى الوقت نفسه يزيد اشتراك الفرد فى المهمة التى يقوم بها مجتمعة فى وقت الحرب من ضرورة التربية اللغوية للبالغ . وإن الحاجة إلى التدريب الفنى فى الأسلحة ، والدفاع المدنى ، والصناعة لتدخل فى حياة الكثيرين أشكالا جديدة من اللغة ، بوظائفها التعاملية ، وعلى هؤلاء الذين يدخلون فى هـذه الحقول الجديدة من النشاط أن يكتسبوا الاصطلاحات الفنية لعملهم الجديد وكلما ازداد تعقد النظام تطلب النظام زيادة فى الاتصال . فجنود المطافىء المحترفين ، حين انضموا فى خدمات الحريق أثناء الحرب سرعان ما أبدوا ملاحظة قالوا فيها : « إننا لم نكتب بهذه الكثرة فى حياتنا » . وإن التموين ليخلق نفس المطالب بالنسبة للمواطن . والذين لا تتساوى قدراتهم اللغوية مع القادرين على الكتابة يجدون من الضرورى أن يطلبوا المساعدة . فلم يكن من النادر أثناء الحرب أن تجد إعلانا معلقا على النوافذ فى الشوارع الفرعية ، يقول : « هنا تُملأ الخانات فى دفاتر التموين » .

ومحاولة إكمال توحيد التفكير والإحساس فى المجتمع تنمى اللغة فى نفس الوقت فى الإتجاه التنفيسى . فالخدمات الثقافية فى الجيش ، وإدارة الشئون العامة العسكرية، والمناظرات والمحاضرات المنظمة فى مجموعات الدفاع المدنى وفى المصانع ، والشعبية

المدهشة التى حظى بها ذلك البرنامج الإذاعى المسمى (Brains Trusts) . كل أولئك أشاع أشكالا جديدة من اللغة بسرعة ، وإلى درجة لم تُعرف فى العهود التاريخية التى حظيت باستقرار أكثر .

وكان من نتائج ذلك أن أصبح تعميم القراءة والكتابة أمرا لا غنى عنه فى الحرب العالمية الثانية . ولم يكن هـذا إلاّ مرحلة أخيرة من حركة بدأت فى تجميع قوتها منذ سنوات عديدة . حقا إنه منذ بداية هـذا القرن ، أحس الناس فى كل مجتمع فى العالم ، حاجة ماسة إلى توسيع مجال القراءة والكتابة ، أما اليوم ، فلسنا نقنع بأقل من أن يكون كل المجتمع قارئا كاتبا . وفى كل بلاد العالم حملات لمحو الأمية : فى الولايات المتحدة ، وفى الإتحاد السوفيتى ، وفى الصين ، والهند ، وإفريقيا .

ويدل على قدر تقدمنا فى هذا الاتجاه ، أننا الآن نرى تعميم القراءة والكتابة أمرا ممكنا عمليا ، وفى المتناول ، ونحس أنه مسألة استخدام وسائل جماعية هى الآن فى أيدينا . ولا يبدو أن ضخامة المشكلة تفزع أى شخص معنيّ بهـذه الحلة الآن . أمّا مبلغ ضخامتها ، فلا يكاد يعرف بالدقة . وربما كانت تقديرات جمعية الإنجيل البريطانية والأجنبية ، صالحة لأن نَقْتَبِسَ منها هنا إذ تقول : تبلغ نسبة الأمية تسعين فى المائة فى الصين والهند ، وثمانية وتسعين فى المائة فى إفريقيا غـير المسيحية وتسعة وتسعين فى المائة فى أفغانستان ، وإيران ، والعراق ، والتركستان ، وبلاد العرب [1] .

ولـكن يخفف من عبء ضخامة المشكلة ما نلحظه من التفاؤل الذى يبديه هؤلاء المصممون على حلها . وإن نفس التقرير ليقتبس ويرحب بكلمات « لوباخ » وهو من طلائع الحركة الحاضرة إذ يقول : « نستطيع أن نتوقع فى خلال خمسين عاما ن يخرج خمسمائة مليون قارئ جديد من صفوف الأمية الصامتة » . ويبدو أن

---

(١) تقرير ١٩٤٤ . ويقول تقرير آخر « إن حوالى واحد من أربعة من أكثر من بليون بالغ فى العالم يستطيعون قراءة أكثر من كلمات أو حروف قليلة من لغتهم القومية » White PP 4. .

هناك أساسا لهذا التفاؤل فيما يقال إنه قد تمّ فعلا . ففى الصين مثلا يُدّعى أنه من مائة وخمسة وستين مليونا من البالغين الأميين أصبح خمسة وعشرون مليونا قارئين كاتبين فى مدى السنتين من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٠[1] . أما فى الاتحاد السوفيتى ، الذى بدأ بمن هم أكثر معرفة بالقراءة والكتابة ، فإن السرعة كانت أبطأ بالطبع لأن محاولة محو الأمية محوا تاما يجب أن يقصد بها أن تمتد إلى جميع الشعوب المتخلفة فى الحضارة ، تلك الشعوب التى تتأصل فيها جذور الأمية . وقيل مع هـذا أن خمسة وثلاثين مليونا قد تعلموا القراءة فى العشرين سنة التى تلت الثورة فى الإتحاد السوفيتى[2] ؛ حتى إنه فى عام ١٩٣٩ كان من الممكن أن يقال : إنه « فى حدود سن ١٠ إلى ٢٥ تقرب نسبة الأميين بسرعة من الصفر » ، على حين هبطت النسبة بين مجموع السكان إلى ٢٢٫٦ ٪ وذلك ثلث النسبة التى قبل الثورة[3] .

دعنا بعد هـذا نتساءل عن معنى ذلك المحو للأمية . واضح قبل كل شىء أن الأمية فى الكلمة المقروءة والمكتوبة لا يقصد بها بأى حال ما يقصد من نقص المقدرة اللغوية . فالعاجز عن القراءة والكتابة ربما كان ماهرا فى استعمال الكلمة المنطوقة . وقد كان ذلك صادقا بلا شك على المدنيات القديمة[4] ، ولم ينته تماما فى الوقت الحاضر ، فمن المحتمل أن بعض المجتمعات الموغلة فى الأمية فى لغة القراءة والكتابة تمتاز بتربيتها لأناقة أسمى فى الكلام . وثمة من جهة أخرى خطر فى مجتمعنا فى هـذا الوقت ، من احتمال أن تكون التربية اللغوية للصغار والكبار كليهما محدودة بالتوجيه إلى الكلمة المكتوبة على حساب تنمية الكلام ، وفى وقتنا هـذا يتغلب الكلام على الكتابة باعتباره شكلا أساسيا للإتصال تغلبا لم يحدث من قبل .

---

(١) Times Educ. Suppt. June 10, 1944.

(٢) Epstein in Year Book of Educ. (London) 1937, 785.

(٣) Steinberg in Cole SA 169.

(٤) وهو صادق على المدنية العربية فى الجاهلية وصدر الإسلام حيث نجد الكلمة المنطوقة سيدة الموقف حتى إن الأدب العربى والقرآن والحديث قد وضع كله فى قالب الرواية الشفوية المتواترة ولم يدون إلا فى عصر لاحق . (المترجم)

ويجب أن نعلم فوق هـذا أن مجرد محو الأمية له أثر قليل نسبيا على الفكر والإحساس والعمل . فربما يسمى الرجل قارئا كاتبا حين يستطيع فقط أن يقرأ وأن يوقع باسمه ، ولـكنه سيظل أميا من الناحية العملية ، حتى يستطيع كتابة خطاب بسيط ، أو يفهم معنى نصّ فى صحيفة شعبية . وحتى فى هـذا المستوى الأعلى ، ربما أخفقت قراءته وكتابته أن تمنحه آلة للاتصال فعالة ذات علاقة بحياته الشخصية والاجتماعية .

ولقد ذكرتنا الحرب بهذا بوضوح عجيب . فقد تطلبت الحاجات الحربية أن يكون كل رجل وامرأة فى الأسلحة قادراً على القراءة والـكتابة ؛ [١] ونحن نأخذ القدرة العامة على القراءة والـكتابة فى مجتمع كمجتمعنا أمرا مسلما، إلى درجة أننا صدمنا حين وجدنا أن واحدا أو اثنين فى المائة من الجنود فى الجيش كانوا أميين . والأكثر أهمية على أى حال أن بين خمسة عشر وعشرين فى المائة كانوا أميين من الناحية العملية [٢] .

وكان لابد من عمل شىء لعلاج هـذا الوضع ؛ فانشئت الفصول لتعليم مبادئ القراءة والـكتابة للأميين أمية تامة ، وفى نهاية دراسة استغرقت أسابيع ستة ، تعلم ما يقرب من الثلثين قراءة صحيفة وفهمها ، وتعلم حوالى الخمسة أسداس أن يقرأوا الحروف من غير استعانة [٣] . وكانت هـذه فرصة لم يسبق لها مثيل للبحث فى طبيعة الأمية عند البالغين .

ولقـد وجد أن معظم الرجال والنساء الأميين أمية تامة كانوا دون المتوسط من

---

(١) تجرى مناقشة هذا بالتفصيل فيما بعد .

(٢) Burt. Br. J. Ed. Psy. 1945.

إنه يصل إلى نتيجة أن مائتى ألف أو ثلثمائة ألف من البالغين فى انجلترا أو ويلز أميون تماما وأن حوالى ثلاثة ملايين أميون من الناحية العملية .

(٣) Times Educ. Suppl., December 23, 1944.

حيث الذكاء العام [1] إذ كان معظمهم متأخرا فى المدرسة . ولكن من الواضح أنه بالرغم من كون ضعفهم العقلى عاملا مساهما فى أميتهم فليس هو العامل الوحيد؛ فقد كان مستوى قدرتهم على القراءة أحط ،وفى بعض الأحيان أحط بكثير، مما يتوقع حتى فى مستواهم الذكائى الضعيف . ولا بد أن هناك عوامل أخرى مؤثرة . فحتى فى أيام السلم ، يحتاج هؤلاء الرجال والنساء إلى معرفة القراءة والكتابة ، ومع هذا بقى عجزهم الأول عن القراءة والكتابة ، وازداد تدهوراً . وفى كثير من الأحيان كان يبدو أنهم يقاومون الرغبة فى النهوض بهم .

ويرجع التدهور جزئيا بلاشك إلى أنه لايزال ممكنا لكثير من الرجال والنساء، حتى فى الحياة العصرية ، أن يكونوا عاجزين عن القراءة والكتابة ، ومع ذلك يخفون عجزهم . وربما كان هذا أصدق على النساء عموما ، لأن حياتهن اليومية البيتية أقل تطلبا للكلمة المقروءة المكتوبة من عمل الرجال حتى فى المراتب السفلى فى الصناعة [2] . وربما كان لزيادة الاتصال المنطوق أثر مباشر فى نفس الاتجاه ولو أنه لا يكاد يكون نهائيا .

ولكن بالاضافة إلى دوام الأمية ، والتدهور المطرد فى القراءة والكتابة عن طريق عدم استعمالها ، توجد ثمة مقاومة إيجابية ضد تحسين القراءة والكتابة . وقد وجد « برت » أن فى الشبان والشابات الذين درس حالاتهم عزوها . «عن أى شىء

---

(١) إن هذا يتطلب قسطا عظيما من مواصلة البحث وإن المعلومات التى جاء بها « برت » و « وال » فى المجلة البريطانية لعلم النفس التربوى يبنى على اختبارات شفوية فى غالبها .

(٢) بالرغم من أن الفتيات أكثر استعدادا لغويا من الفتيان فإن عددا من الرجال أكبر من عدد النساء فى مجتمع قارىء كاتب جزئيا سيكونون قارئين كاتبين لزيادة الضرورة اليومية لوظائف اللغة التعاملية فى عمل الرجال ونثبت هنا النسب المئوية المقارنة الآتية بالنسبة للاتحاد السوفييتى :

	١٩١٧	١٩٣٩
رجال	٥٠	٨٨٫٢
نساء	١٥	٦٦٫٦

(Steinberg in Cole SA 169).

له طبيعة الدرس والكتب والأدب . . . . ويبدو فى سن المراهقة أن هذا العزوف يكاد يتطور إلى عملية آليـة نصف شعورية ، لا فى الفرد فحسب ، بل فى الجماعة التى ينتمى إليها » و يعد هذا إلى حد مّا ، مثالا آخر لمقاومة التغير فى العادات اللغوية. وهو أيضاً إلى حد مّا نوع من كراهية الكتب bibliophobia كانت له جذور عميقة فى الماضى فى صورة ـ الخوف القديم من الكلمة المكتوبة ـ وهو كذلك يستمد حيوية من تقاليد أحدث فى التباهى الطبقى المعكوس . inverted Class-snobbery فما دامت فى الطبقات العليا المنعمة تقاليد القراءة والكتابة والانكباب على الكتب، فلربما تحس الطبقات الدنيا نوعا من الفخر فى جهلها واحتقارها للكتب .

كيف إذاً يصبح الأميون أمية كاملة قارئين كاتبين فى ستة أسابيع مع وجود هذه العوامل ؟ إن الطرق التى وجد أنها أكثر نجاحا فى هـذا هى التى تعترف بأن التقدم فى القراءة والكتابة يتوقف على الحافز ، وأقوى الحوافز هو معرفة المتعلم أن للقراءة والكتابة قيمة فى حياته اليومية .

ومن ثم يجب أن تكون البداية مرتبطة بما سميناه الوظائف التعاملية للغة . يقول « برتْ » : « يجب أن يتصل التعليم فى كل مراحله بقدر الإمكان بالنشاط العملى ، و بالعمل اليومى للشخص فى المنزل والمصنع والجيش؛ وربما كان من الحكمة فى البداية أن نقطع ما بين فكرة القراءة وفكرة الكتب . وسيكون الضغط على الاستعمالات العملية للقراءة أكثر تأثيراً ـ كالإعلانات العامة ، و إعلانات الأفلام ، وأخبـار السباق ، ونتائج مباريات كرة القدم ، والإشارات ، والتذاكر، والملاحظات التى ترى مكتوبة فى المحلات التجارية ، وفى الطرق ، والإعلانات الرسمية ، والصحف » . وكان أقوى دافع على الكتابة كذلك تجربة كون إرسال خطاب إلى البيت يعود بالجائز ، أو بمصاريف على الأقل . ولكن الأكثر من هذا أن الخطاب أصبح

وسيلة اتصال بالبيت ؛ فأصبحت القيمة التنفيسية تقوى القيمة التعامليه [١].

وواضح أن تعلم القراءة والكتابة والمداومة عليهما فى المجتمع كله أكثر تعقدا مما يبدو لأول وهلة . فالتدهور بسبب عدم الاستعمال ، وتقاليد السلوك العادى للجماعة والمقاومة من ثم للتغير ، يعمل جميعه فى اتجاه معاكس لحوافز القراءة والكتابة عند الفرد فى المجتمع ، مهما كانت هذه الحوافز قوية .

(٤)

ويظهر أثر بعض هذه العوامل نفسها فى ناحية أخرى من التربية اللغوية للبالغ هى قبوله للتغير فى لغته الوطنية ، من حيث المفردات والأسلوب كلاهما ؛ وهذه عمليات قديمة قدم اللغة نفسها . وهنا أيضاً فى أيام الحرب نرى تقوية للعملية وإسراعا بها ؛ فالاصطلاحات الفنية المحصورة منذ البداية فى مجموعة محدودة من العمال يشيع استعمالها : فمثلا كلمة embody (بمعنى mobilize وهى بدعة من الحرب العالميـة الأولى) ، utility (ملابس) ، point (تموين) ، decontaminate (غاز) . وقد تتخذ الاصطلاحات الموجودة فعلا بمعنى أوسع : مثل evacuate ، fuel target ، black out وإلى جانب هـذه الاصطلاحات التعاملية المسوقة فى خدمة المناهج اصطلاحات وظيفتها الأساسية تنفيسية لها قدرة على إثارة الرغبة وتنظيمها فى المجتمع ؛ فمثلا : Vansittarism ، rebugee ، squander-bug . وتأتى التعبيرات من خارج البلاد مستوردة للإستجابة إلى نفس الحاجات الفنية والاشتهائية : jeep ، blitz ، Gestapo ، totalitarian ، Nazi[٢] ، quesling .

---

(١) لقد كتب الكثيرون من أقارب العمال بشكروت العلم . وقد كتبت امرأة تقول : « لقد حدث عندنا تغير ضخم منذ استطاع جورج أن يكتب إلى البيت . والآن حين يأتى ساعى البريد يجرى الأطفال إلى الباب ليروا ما إذا كان ثمة خطاب من أبيهم » .

(Times Educ. Suppt. December 23, 1944)

(٢) يجرى تحليل الوظائف الرمزية لكلمة « نازى » بتفصيل أكبر بعد ذلك .

وثمة أيضاً تغيرات فى أسلوب الانجليزية . فى الكتابة المقرب من اللغة المنطوقة ، وفى الحديث قدر أكبر من رفع الكلفة . وليس من السهل أن توضح هذه التغيرات دون الكثير من الحجج المفصلة . ولكن هناك إحساسا عند الكثير من طلاب اللغة أننا إذا قارنا المقالات الافتتاحية من صحيفة التايمز فى عام ١٩٠٠ مثلا بافتتاحياتها فى أيامنا هذه ، فسوف نجد تغيرا ملحوظا فى اتجاه البساطة ، وقرب الأسلوب من لغة التخاطب . وليس ثمة أقل شك فى أن هناك زيادة فى الألفة فى الكلام نفسه، وقد يسميه الكثيرون بلا شك هبوطا بالمستوى . وتسجل مجلة Punch تغيرا فى آداب السلوك ؛ تقول الشابة التى تلبس البنطلون (من الطبقة المتوسطة) : « حقا يا أمى ، إذا كنت لا أستطيع أن أقول « Coo » أو « blimey » فإن العيش هنا سيصبح لا يطاق »[1] . وإن الأثر المتزايد إلى حد كبير للكلمة المنطوقة على حياتنا اليومية فى خلال الحرب العالمية الثانية لابد أن يكون قد قوى الميل إلى تبسيط الأسلوب فى لغة الكتابة والتخاطب كلتيهما بلا شك .

ولكن المدى الذى يبلغه قبول تغير المفردات والأسلوب فى لغة البالغ يتوقف على التوازن النهائى للقوتين المتضادتين: المقاومة ، والقبول . إن العضو البالغ فى المجتمع تحركه الحاجات التعاملية والتنفيسية ، فى اتجاه قبول الطرق الجديدة فى اللغة ، وهو فى نفس الوقت يقاوم الابتداع ، ولو أن هذه المقاومة قلما تكون من القوة بحيث توقف عملية تربيته اللغوية إيقافا كاملا . وهو يصل إلى مرحلة استقرار نسبى، إذا لم يُرفض فيها الابتداع فإنه لا يلقى ترحيبا على الأقل . فثمة نوع من الكراهية للغريب من الناحية اللغوية linguistic xenophobia حيث ينظر إلى الكلمة الأجنبية كما لو كانت تهدد وحدة المجتمع اللغوى . وحين يتسع مدى تجربة المجتمع ، ويصبح وجود أشكال

---

(١) Punch, January 3, 1946 والكلمتان للتعجب تجريان على لسان الطبقات السفلى فى انجلترا ويختلط معناهما بشىء من التسفل الاجتماعى . (المترجم)

جديدة من اللغة أمراً ضرورياً نرى الميل المباشر، كما كان فى الطفولة ، يتجه إلى استعمال المنابع الموجودة فى اللغة قبل أن يتطلب الابتداع . وذلك شبيه بحالة العامل الماهر الذى تجابهه مهنة جديدة ، فيفضل أن يستعمل الأدوات التى فى يده كل استعمال ممكن ، قبل أن يرضى بتجربة أداة أخرى جديدة مخصصة لهذا الغرض [١] .

ويجب أن نلاحظ أن مقاومة الابتداع لا تعنى فى نفسها أن المجتمع اللغوى متداع ؛ بل قد تدل على العكس على صحة لغوية . فإن القبول السريع للجديد ربما يكون من نتيجته فى الحقيقة تحلل المجتمع ، وليس ثمة من نظام يمنح أعضاء المجتمع إحساسا قويا بوجود المجتمع كما تفعل اللغة . وهكذا نجد معركة دائمة بين الحاجة إلى المحافظة على التقاليد فى اللغة ، والحاجة إلى السماح بالابتداع ، فى العصرين المتميزين بالنشاط الكبير والتغير السريع : عصر اليزابيث ، وعصرنا هذا .

وعندنا هنا فى الحقيقة مثال يلفت النظر فى النزاع بين المعتقدات الشعورية فى المجتمع و بين السلوك الذى تحدده دوافع لا يشعر بها المجتمع . فهؤلاء الذين يضيقون بالارتجال اللغوى فى بريطانيا العظمى فى وقتنا هذا ، كالمدرسين فى المدارس ، والجامعات ، وغير المتخصصين الذين يكتبون إلى الصحف والإذاعة ، كلهم يعارض بقوة عظيمة ماقد يسميه إفساداً وصبغا للغة الانجليزية بالصبغة الأمريكية . و إذا لم يجاهروا بمعارضتهم للتعبيرات المرتجلة فى الجيش ، فإنما يمسكون عن ذلك ليبدوا تسامحا رحب الصدر مع هؤلاء الشبان الذين يخدمون المجتمع بمثل هذا التفانى . فلو حكمنا على احتمال حدوث التغير فى الانجليزية المعاصرة ، ونحن نأخذ فى اعتبارنا هذه المقاومة الصريحة من هؤلاء النظريين ، لوصلنا إلى استنتاج أن لغتنا قد أصبحت

---

(١) وهذا صحيح إلى حد ما حتى فى التعبيرات المرتجلة .

فى شبه ركود . ولكن ازدهارا ضخما فى التعبيرات والأساليب فى اللغة الوطنية قد حدث فعلا كما رأينا منذ بداية القرن الحاضر . وقد ساهم كل من الحربين بنصيب فى هذا التغير ، وربما كانت الثانية أكبر أثرا من الأولى فى خلقها مجالات أوسع لنشاط المجتمع كله .

والمعلمون العارفون بالنزاع الدائم بين المحافظة والابتداع فى اللغة ، يعنون أحيانا بالبحث فى أى الكفتين من الميزان تستحق أن تحظى بتأييدهم ؛ فيتساءلون عما إذا كان يسمح للأطفال بأن يستعملوا التعبيرات الخاصة فى الكلام والكتابة ، والحقيقة أن ذلك لايكاد يكون مهما . فسيستمر التغير فى اللغة ، وستستمر التنشئة اللغوية طول الحياة ، سواء ألقيت منا تشجيعا فى المدرسة أم لا . لأنه إذا توقف البالغ عن تعلم اللغة فى اليوم الذى يغادر فيه المدرسة ، فسوف تكون مسئولية المعلم ثقيلة بلاشك؛ ولكن الحقيقة أن التغيرات فى اللغة نادرا ماتحدث نتيجة للتعلم الموجَّه ، إنها تبدأ فى البيت قبل أن يبدأ عمل المدرسة ، بل هى مجموع آثار التجارب اليومية خلال حياة الرجولة .

(٥)

ويكفى هذا القدر مما علمتنا إياه الحرب العالمية الثانية عن العوامل المؤثرة فى التنشئة اللغوية المستمرة عند الكبار . وقد كانت هذه المسألة قبل الحرب مسألة لغوية صغرى فى المجتمع، أما اليوم فقد اكتسبت أهمية جديدة ، لأن الناس فى أجزاء كثيرة من العالم الآن يطلب منهم أن يتعلموا لغة جديدة بالإضافة إلى لغتهم الوطنية . وقد رأينا الرجل عضوا فى هيئة أو أكثر من جماعة مما يشتمل عليه مجتمعه القومى ، إلى جانب كونه عضوا فى المجتمع العام . والآن يجب أن نلاحظ تربيته اللغوية ، باعتبارها محدودة بالعلاقات بين مجتمعه وبين المجتمعات الأخرى ، أى بنمو الاتصال بين الشعوب .

وثمة فى مبدأ الأمر نمو لغة مشتركة فى كل من الدول الاتحادية الكبرى . أما فى الكومنولث البريطانى ، فإن الإنجليزية هى اللغة المشتركة ، بسبب الطريقة التى نما بها الكومنولث . كما تنبأ « برنسلى » عند ميلاد الامبراطورية [1] ، كان معنى توسع الامبراطورية توسعا فى اللغة الانجليزية التى كان يتكلمها طلائع من أنشأوا هذه الامبراطورية . ولقد حمل المستعمرون لغتهم معهم ، فتأصلت جذورها بهم فى أراض أجنبية . أما حيث تمت الامبراطورية بالفتح لا بالاستيطان ، كما حدث فى الهند إذ دخلت الانجليزية أرضا ذات حضارة لغوية خاصة كاملة النضج ، فقد اكتسبت الانجليزية بالضرورة ، حتى فى هذه الظروف ، وظيفة خاصة هى العون على التواصل بين المجتمعات اللغوية المختلفة . واليوم ، بالرغم من كون العدد الذى يتكلم الانجليزية فى الهند لا يزال ضئيلا ، تعتبر الانجليزية فى نظرهم لغة عامة lingua franca ، وربما كانت الوحيدة . وهؤلاء القلة الذين يتكلمون الانجليزية هم القادة فى مجتمعاتهم ، وهم عظيمو الأثر فى العلاقات بين الهند وبقية الكومونولث . « وإن الوطنية الهندية يكاد كلها أن يكون من نتاج الثقافة الإنجليزية . واللغة التى تجرى بها كل المناظرات السياسية هى الإنجليزية بالضرورة » [2] . ويخبرنا « أورويل » فى مجموعة أحاديثه المذاعة فى هيئة الإذاعة البريطانية ، إلى الهند ، فى خلال الحرب ، أن هؤلاء الذين يتكلمون الانجليزية هم الذين يحتمل امتلاكهم لأجهزة راديو تستقبل على الموجة القصيرة ؛ وهكذا يصبحون أعضاء عاملين فى المجتمع اللغوى الذى يتكون منه الكومونولث البريطانى [3] . وقد صادفت هذه الحاجة إلى وسائل عامة للاتصال اعترافا رسميا بها ، حين قررت الحكومة فى عام ١٩٤٤

---

(١) سبق أن أشرنا إلى هذا التنبؤ

(٢) Marriott, E I, 18.

(٣) Orwell, 51, 7

أن يتوسع فى استعمال الإنجليزية الأساسية Basic English ، باعتبارها لغة دولية مساعدة داخل الكومونولث البريطانى ، وخارجه [١] .

أما فى الولايات المتحدة فإن مشكلة لغة واحدة عامة تختلف نوعا ما بالطبع ، ولكنها لاتقل خطورة ؛ فلقد كانت الإنجليزية لغة الطلائع من المهاجرين ؛ ولكن مجموعات متتابعة منهم بدل أن تحاول اكتساب لغة جديدة ، أبدت فى الغالب تلك المقاومة المألوفة للتغير ، وفى داخل المجتمع الأمريكى الأكبر جماعات ضخمة تتكلم وتقرأ وتكتب لغات مختلفة جاءوا بها من مواطنهم الأصلية . ومنذ عشرين سنة فحسب كان يمكن أن يقال إن فى قلب بنسلفانيا ستين فى المائة من السكان يستطيعون التكلم بالألمانية ، وإن ثلاثين فى المائة يتكلمونها باستمرار . وفى عام ١٩٣٠ كان هناك ١٣٠,٠٠٠ شخص لغتهم هولندية ، ولهم عشر صحف أسبوعية ، بهذه اللغة ، واثنتان بلغة الفلاندر (Flemish) ؛ وكان ثمة ٦٠٠,٠٠٠ ممن تكلموا السويدية ، ولهم ٢٧ صحيفة أسبوعية، و ١,٢٠٠,٠٠٠ ممن تكلموا اليهودية الألمانية (Yiddish) ولهم ١٢ صحيفة يومية ، و ٢٥ صحيفة أسبوعية ؛ ولم يكن هناك أقل من ١,٨٠٠,٠٠٠ متكلما بالطليانية ولهم ٨ صحف يومية ، وأكثر من مائة صحيفة دبرية أخرى (Periodicals) [٢] . ولابد أن يكون من نتائج هذا وجود قسط كبير من الأمية فيما يختص باللغة الإنجليزية [٣] . وواضح بالرغم من هذا أنه لن يكون فى استطاعة الولايات المتحدة إلا بوجود لغة واحدة مشتركة ، ذات أثر وثيق فى الفكر والإحساس والعمل ، أن تتمكن من تكوين مجتمع موحد ، لمواجهة الحاجات العسكرية والاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية .

---

(١) Mr. chuchill in Parlement, March 9, 1944 : C M d paper 6511.

(٢) Mancken AL 616, 623, 627, 633, 647

(٣) كان ثمة ١٠ ملايين أمى فى الولايات المتحدة عام ١٩٤٠ كما ورد فى تقرير ١٩٤٦ الذى وضعته جمعية التربية القومية فى الولايات المتحدة واقتبس منه ملحق التايمز الثقافى (Times E-due. Suppt) فى ١٨ يناير سنة ١٩٤٧ .

وكذلك نجد نفس الحاجة إلى لغة مشتركة فى الاتحاد السوفيتى مع اختلافات بسيطة أيضا ، فقد حدثت محاولة أيام الثورة لجعل اللغة الروسية اللغة الوحيدة فى الجمهوريات المكونة للاتحاد ، ولكن هذه السياسة قد عدل عنها حين أحس أصحابها بالمقاومة المحلية ، وذلك مثل آخر من أمثلة المحافظة اللغوية . ولقد تحولت السياسة الرسمية حينئذ إلى الاعتراف باللغة الوطنية التقليدية فى كل جمهورية ، باعتبارها الواسطة التى لايستغنى عنها للتربية الابتدائية ، وهذه هى السياسة القائمة الآن فى كل الاتحاد . ولكن الروسية بالرغم من كونها لم يُستطع فرضها باعتبارها لغة أولى ، قد جرى قبولها باعتبارها لغة ثانية لتقوم بدور الوسيلة العامة للتواصل بين شعوب الاتحاد . وقد قررت كل الجمهوريات السوفيتية التى لم تكن الروسية فيها لغة الكلام فى عام ١٩٣٨ أن تجعلها اللغة الثانية فى المدارس الثانوية بصفة إجبارية [١] .

إن مشاكل التربية اللغوية فى الاتحاد السوفيتى كثيرة ومعقدة . فثمة جمهوريات لم تكن لها قبل الثورة لغات مكتوبة ، ومن ثم لابد لها من خلق أبجدية ؛ وأخريات لاتصلح لغاتها إلا للتربية فى مرحلتها الأولية ، وجمهوريات لاتجاوز صلاحية لغاتها للتربية أكثر من مرحلتها الثانوية ، ولايستطاع فى الوقت الحاضر إجراء تربية جامعية إلا باللغة الروسية ، والأوكرانية ، والروسية البيضاء ، والجورجيانية ، والأرمينية [٢] . وواضح أنه إذا أريد للفكر والإحساس والعمل أن توحد فى الاتحاد السوفيتى ، فلا بدّ أن يظلّ الكثيرون من مواطنيه زمنا طويلا أصحاب لغتين ، يتعلمون الروسية باعتبارها لغة ثانية ، وأن تظل ثمة مشكلة خطيرة لمدة طويلة ، تدور حول تعليم القراءة والكتابة تعليما وظيفيا للبالغين بهذه اللغة العامة ، الروسية .

وللصين ، رابعة الدول الاتحادية الكبرى ، مشكلتها الخاصة من ناحية إيجاد

---

(١) Maynard RP 293 ; also p. 53 above.

(٢) Maynard as above

لغة واحدة للمجتمع . وناحية الاختلاف هنا أن بالصين لغة عامة مكتوبة من قرون مضت ، ولكن، لا توجد لغة عامة للكلام . و إن اللغة العامة فى الصين لغة صناعية (an esperanto) (وضعت لتستعملها المجتمعات المختلفة) ، ولكنها مكتوبة فحسب . ويختلف نطق الكلمة المكتوبة ، باختلاف لهجة القارئ . وهكذا يمكن للمنشور الذى يصدر من بكين أن يقرأ و يفهم فى كل مكان فى هذه البلاد الواسعة ولكن أهل كنتون يقرأونه بصوت عال بطريقة تبدو هراء فى سمع أهل بكين[1] .

ومن ثم كانت المشكلة الأساسية فى الصين هى إنشاء لغة عامة للكلام ، فى الوقت الذى توجد فيه لغة عامة للكتابة . وقد كان هذا كذلك أحد الأعمال التى اتجه إليها قادة الثورة الصينية مباشرة . ففى أول سنة للجمهورية ، بدأ مؤتمر من علماء اللغة يضع رموزا لكتابة صوتية عامة ، تم استخدامها عام ١٩١٨ ، واشتمل عليها المعجم الصوتى القومى . وقد افتتحت وزارة التربية بعد ذلك بسنتين معهدا فى بكين، ليدرب المدرسين على هذه اللغة القومية . وسرعان ما وجد أن هذه اللغة الصناعية التى اخترعها العلماء أكثر اتصالا بالكتب ، وأبعد عن اللهجة الحية ، من أن تقبل بسهولة باعتبارها لغة كلامية ذات أثر وظيفى . وإنا لنتطلع إلى معرفة المدى الذى وصلوا إليه منذ ذلك الحين ، فى خلق لغة عامة للكلام .

ولقد صادفوا فى نفس الوقت مشكلة تعميم القراءة والكتابة ؛ فاللغة التقليدية المكتوبة ، على شيوعها فى جميع الصين ، هى من وضع العلماء أيضاً ، ولذا كانت أكثر تعقدا وصعوبة فى استعمالها ، من أجل الأغراض اليومية للمواطن العادى . ومن هنا اخترع شكل مبسط من لغة الكتابة ـ أو صينية أساسية ـ وكتبت الكتب المدرسية بهذه الكتابة المبسطة ، و بدأت المدارس تستعملها فى كل مكان[2] .

وفى كل هذه الاتحادات الأربعة الكبرى يبدو أن المشكلة واحدة ، هى الحاجة

---

(١) Kargren, 55, 38.

(٢) كل هذه الحقائق عن الصين مأخوذة من Chuang E C 58, 155 – 163

إلى تعميم القراءة والكتابة فى لغة عامة منطوقة ومكتوبة . والنتيجة المباشرة لأى اتجاه إلى حل هذه المشكلة لابد أن تكون استعمال لغتين من جانب البالغين الكثيرين من أعضاء المجتمعات التى تكون الاتحادات . ويعنى هذا مضاعفة العناية بتعليم القراءة والكتابة تعليما وظيفيا . فلا يصح أن يقتصر البالغ على أن يتكلم ويقرأ ويكتب بلغته الأولى أى لغة طفولته ، ليحقق حاجاته المباشرة ، ولكن يجب أن يكون قادراً أيضاً على أن يتكلم ويقرأ ويكتب لغة ثانية ، ليصبح عضوا عاملا فى مجتمع أكبر من مجتمع لغة الطفولة .

* * *

(٦)

ويلوح من وراء ذلك أمر ممكن عظيم هو إنشاء لغة عالمية عامة ، تساعد اللغات القومية والاتحادية . وربما كنا الآن فى بداية تحقيق هذا الحلم القديم حلم لغة واحدة يستطيع كل الناس أن يتخاطبوا بها ، أو محو الرطانات debabelization كما يسميها « أوجدن » . وقد بدأ هذا الحلم يتخذ صورته التى نراها الآن فى القرن السابع عشر مثل كثير مما يحتويه عالمنا هـذا . وليس ذلك مجرد صدفة سعيدة ، وقد حاولنا أن نشير إلى هذا ، فإن التطورات الجديدة فى تفكير المجتمع وسلوكه تطلبت تعديلات فى اللغة ، التى هى المنهج الرئيسى للتفكير والسلوك الاجتماعيين . وإن اللغة الدولية الوحيدة فى القرون الوسطى وهى اللاتينية ، قد كانت صالحة إلى درجة كافية ، باعتبارها أداة التواصل بين زعماء المجتمعات فى أوربا الغربية ، وظلت حتى منتصف القرن السابع عشر لغة دولية لا فى الفنون والعلوم فحسب ، بل فى السياسة كذلك ، كما يذكرنا منصب « ميلتون » فى عهد « كرومويل »[١] .

---

(١) عين ميلتون فى عهد كرومويل سكرتيرا للغات الأجنبية أى اللغة اللاتينية وقد انحصر واجبه فى تحرير الرسائل باللاتينية إلى الدول الأجنبية . (المترجم) .

ولكن اللاتينية فى ذلك العهد كانت صائرة إلى عدم الصلاحية لأداء أغراض أوسع ، كالتوسع الاستعمارى ، والاكتشافات العلمية . وقد اتجه التفكير فى الناحية الأولى كما حدث فى حالة « برنسلى » إلى أن الحاجات اللغوية للإمبراطورية النامية يسدها التوسع الطبيعى فى لغة الدولة الإمبراطورية ، أما حاجات العلم فقد رأى قوم منهم « ليبتز » أن من الضرورى أن تخترع لغة صناعية ، على أسس منطقية فلسفية [١] .

إن تاريخ المحاولات التى تمت فى القرون الثلاثة الماضية ، أى محاولات اختراع ونشر لغة عالمية ، إنما هو تاريخ فاشل فى معظم نواحيه [٢] . وإذا رأينا اليوم أول أمل خافت فى المستقبل ، فإن هذا يعتبر إلى حد ما نتيجة لهذه المحاولات التى لم تنقطع ، ويضاف إلى ذلك فى يومنا هذا قوتان أخريان على الأقل ، وكلتاهما نتاج بطىء أيضاً لنفس القرون الثلاثة : ففى أيدينا وسائل مادية جاءت عن طريق آلات الاتصال ، يمكن بها أن تنشأ لغة عالمية وتبقى . كما أننا نحس أكثر من ذى قبل بحاجة ملحة إلى إيجاد لغة عالمية .

وقد تعلمنا من اهتمام اللغويين الدائم بمشكلة اللغة العالمية ، ومن دراستنا للغة فى عمومها دراسة أدق أن اللغة العالمية حتى فى بدايتها لايتوقع لها النجاح إلا إذا كانت لها طاقة تنفيسية بالنسبة لمتكلمها . ويجب فى اللغة العالمية ، إذا قدر لها أن تكون لغة كاملة ، أن تؤدى الوظائف التى تؤديها أية لغة من أجل المجتمع الذى يستعملها ، أى أن اللغة العالمية ، يجب أن تستطيع تحقيق الحاجات التعاملية والتنفيسية للإنسانية باعتبارها مجتمعا عالميا . وواضح أن اللغة يجب أن تكون وسيلة ذات أثر واضح لتبادل الاتصال السياسى ، والعلمى ، والاقتصادى ، ولكن مادامت هذه الوظائف التعاملية لاتنفصل عن الوظائف التنفيسية ، فلا أمل ثمة فى النجاح من أجل أى

---

(١) Brinsley ; see above ; Leibniz, N.E. 6 K. 4, ch. vi sect. 2

(٢) وذلك كما يرويه مثلا Bodmer LL .

مشروع اللغة العالمية ، إلا إذا كان يشغل الإحساسات والارادة إلى حد ما ، كما يشغل الفكر والعمل عند هؤلاء الذين يستعملونها .

وقد سار تطور الآلات التى تحمل اللغة العالمية ممكنة البقاء جنبا إلى جنب مع نمو الإحساس بطبيعة هـذه اللغة العالمية . وقد يكون ضروريا أن نؤكد هذه الحقيقة مرة أخرى ، ولـكنها يتجاهلها هؤلاء الذين يرون أن اللغة العالمية أضغاث أحلام ، لأن لغة الرطانة ستؤدى إلى تحلل أية لغة متسعة الرقعة إلى لهجات ليس بينها وضوح متبادل . و يستشهدون على ذلك بتاريخ اللغة . ولـكن حتى مع صدق كون اللهجات تصبح أكثر اختلافا حين تنعزل المجموعات التى تستخدمها بعضها عن بعض ، نرى أيضا أن اللهجات مع نمو وسائل التواصل تصبح أميل إلى التوحد . وقد استطاع اللغوى ريتشارد ملكاستر فى نهاية القرن التاسع عشر أن يقول : « إن اللغة الإنجليزية ضيقة الرقعة فلا تتعدى جزيرتنا هذه ، بل لا تشتمل جميعها بأى حال[1] . و إن الآلات التى تنشر الكلمة المكتوبة والمنطوقة قد جعلت عالمنا أضيق من جزيرة « ملكاستر » .

ولـكن الأمل فى لغة عالمية يتعلق فوق كل ذلك بضرورة حاجتنا إليها . وكان التعبير عن هذه الحاجة لايزال ضروريا قبل الحرب ، أما الآن فقد أصبح أمرا بديهيا . و إن من الدعاوى اليومية أن مستقبل الإنسانية يتوقف على أن يعمل كل الناس على فهم مشاكل العالم ، وعلى تأييد الأعمال الضرورية لعلاج هذه المشاكل . ومما يؤخذ مأخذ التسليم أن الاتصال بين المجتمعات لايمكن بعد الآن أن ينحصر فى الزعماء الذين يتكلمون اللاتينية ، أو أية لغة دبلوماسية أخرى . و إن إنشاء منظمة الأمم المتحدة ليعتمد على فرض أنه سوف يكون هناك اتصال متبادل بين أعضاء الأمم جميعها . ولقد قال مستر آتلى فى أولى جلسات الجمعية العامة : « أظن أن الرجال والنساء العاديين

---

(١) Mulcaster E. 271.

فى كل أمة قد حققوا فى الوقت الحاضر مايهمهم . ويجب أن نحصل على التأييد لا من الحكومات فحسب ، بل من جماهير الناس فى سائر أنحاء العالم ، لنجعل هذه المنظمة حقيقة حية [١] .

(٧)

إن الحاجة إلى لغة عالمية تزداد بلا شك ، فما هى الإمكانيات ؟ لا نزاع فى أن مقاومة الارتجال اللغوى ستكون عاملا قويا جدا فى التأخر بتطور هذه اللغة العالمية ، وتلك هى المقاومة التى أشرنا إليها مراراً من قبل . ومن المحتمل أن المستقبل القريب سيرى شيوع الازدواج اللغوى فى الشخص الواحد ؛ لأن هناك زيادة ملحوظة فى المحافظة على اللغات القوميــة وتنميتها ، موازية لنمو الاتصال الدولى ، كما أشار إلى ذلك مراقبون كثيرون .

إذ تتمسك الأمم فى سائر أنحاء العالم فى إصرار زائد بلغاتها الوطنية ، وتحاول أن تنشئ نماذج ثقافية بهذه اللغات المحلية . ومن نتائج ذلك أن « ممفورد » يعتقد أنه لن تستطيع لغة واحدة أبدا أن تسيطر على العالم « لأنه مالم يُستطع إنشاء لغة عالمية غير قابلة للتغير ومقصورة إلى حد ما على الكتابة بها ، فسوف تمر بمرحلة شبه وطنية بنفس الطريقة التى مرت بها اللاتينية تماما [٢] » .

وبالرغم من أن هذا التحليل يتسم نوعا ما بالغموض فإننا نتقبل تنبؤه بمستقبل قريب يشيع فيه الازدواج اللغوى Bilingualism قبولا حسنا ، لأن الحاجات التعاملية فى التواصل العالمى تجعل من الحتم وجود لغة أعم من اللغات القومية . ولكن اللغة القومية التى اكتسبت فى الطفولة تكفى الحاجات التنفيسية عند معظم الناس ، وتظل زمنا طويلا فى المستقبل اللغة الغالبة ؛ ولغة الأم ؛ والرحم الذى تتكون فيه

---

(١) التايمز اللندنية ١١ يناير سنة ١٩٤٦ .

(٢) Mumford T C 295.

التربية اللغوية المستقبلة للفرد . وربما ظل الازدواج اللغوى من ثم — إن لم يكن اكتساب ثلاث لغات أيضاً — ضروريا للكثيرين منا زمنا طويلا . وسوف توضع فوق لغة الطفولة لغة ثانية ، أو ثالثة ، تكتسب فى حياة المرء بعد البلوغ .

وتعميم القراءة والكتابة عند الكبار فى لغة عالمية فى مثل هذه الظروف ، لا أمل فيه ، مالم نأخذ فى حسابنا أسباب المقاومة اللغوية الممكنة . ولن يغير الناس عاداتهم اللغوية حتى يحركهم إلى ذلك توقع إرضاء حاجاتهم ، أو الرغبة فى استعمال اللغة استعمالا تنفيسيا . ولن تنجح لغة ثانوية أعم من اللغة القومية حتى يقتنع الذين يدعون إلى تعلمها بأنها سوف تساهم فى تحقيق رغباتهم .

والإخفاق فى الاعتراف بهذا لابد أن يؤخر نمو تعلم القراءة والكتابة فى الكبر فى اللغة الثانوية الأعم من اللغة القومية . ولكننا يجب أن نسلم من ناحية أخرى أن الظروف فى أيامنا هذه أكثر مناسبة منها فى أى وقت مضى لانتشار مثل هذه اللغات . فإن الحاجة إلى الاطمئنان السياسى والاقتصادى والعلمى تسوق الناس إلى التجمع فى دول اتحادية كبرى ، ومن ثم إلى تعلم لغات تجعل فى استطاعتهم أن يتخاطبوا من أجل أغراض العمل المشترك . وفى نفس الوقت تساعد أدوات الاتصال الحديثة على تحقيق هذا الهدف ، فيصبح أكثر صلاحية للتنفيذ مما كان فى أى وقت مضى . وهذه الآلات تجعل الجماعات المبعثرة فى مناطق متباعدة مجتمعا لغويا واحداً ، فيصبح الاتصال بواسطتها أسرع ، وأكثر حدوثا ؛ حتى تتمكن للغة الثانوية أن تكتسب قوة تنفيسية فى مثل هذه الظروف . فإذا تم هذا صارت اللغة الثانوية بالتدريج هى اللغة الأولى . أفلا يمكن إذاً أن تصبح الروسية فى النهاية مثلا هى اللغة القومية الوحيدة فى سائر الاتحاد السوفيتى ، أو أن تسود لغة واحدة باعتبارها لغة قومية فى سائر أنحاء الصين ؟ .

وثمة إمكانيات تجاهلها « ممفورد » وآخرون . فإن تطور الازدواج فى لغة الفرد

ربمـا يصبح خطوة فى طريق اللغة العالمية . وربما كان الوقت الذى تصبح فيه اللغة العالمية لغة ثانوية لـكل إنسان أقرب مما نظن ، بل ربما جاء الزمن الذى تـكون فيه هذه اللغة العالمية لغة أولى للجميع . إن تاريخ زماننا يدل على أن ذلك شىء أكثر من حلم خرافى ، وليس الأمل فى اللغـة العالمية مشروطا بأن تـكون « ثابتـة عديمة الحياة » كما يراها « بمفورد » ، بل يجب على العـكس أن تـكون مرنة وحيّة . والشرطان الجوهريان هما أن تسد اللغة حاجة العمل والإحساس والفـكر ، وأن تحتوى على الاستعمالات الضرورية للاتصال . لأنه بالرغم من أن تاريخ اللغة قد كان دائما قصة من دوام اللهجات ، وازدياد تشعبها ، فقد كان العاملان الأساسيان فى هذا بالتأكيد هما صعوبة الاتصال المادى ، إن لم تـكن استحالته ، وعدم الحافز على هذا الاتصال . ولا يمكن بالطبع أن تـكون هناك لغة عامة ما لم يوجد المجتمع اللغوى الذى تؤدى اللغة وظائفها فيـه . ولـكن الآلات اللغوية اليوم بربطها الإنسانية فى مجتمع لغوى واحد ، قد جعلت لغة التخاطب العـامة أمراً ممـكنا . وإذا استطاعت نيويورك وموسكو أن تتحادثا يوميا ، حتى بالتلفزيون وجها لوجه ، وتقرآ نفس الـكتب ، والصحف ، وتريا نفس الأفلام ، فهل يبدو من غير الممـكن أن تصبح لغة واحدة هى اللغة القومية عندهما معا فى المستقبل ؟

والأقوى من الآلات هو الحافز إلى الاتصال اللغوى . ولا شك أنه سوف تحدث خطوات غير مسـدّدة ، وانتـكاسات ، قبل أن يكون هذا الحافز مؤثرا تأثيرا تاما . ولـكن إذا كانت الحرب شاملة للعالم ، فإن « السلام لا يتجزأ » . ولا يمـكن أن يوجد مجتمع عالمى إلا عند وجود لغة عالمية فحسـب . إذ لا يمـكن أن يوجد مجتمع بلا اتصال .

فما الشكل الذى ستتخذه اللغة العالمية مع تشعب كل هذه العوامل ؟ ليس همنا هنا أن ندافع عن قضية ، ولـكن أن نلاحظ ما يحدث حولنا . وحين نحرر أنفسنا

قدر مانستطيع من التحيز ، يبدو أننا نستطيع أن نسجل احتمال أن تكون الانجليزية هي اللغة العالمية الأولى . ويحتمل أنه لاتوجد لغة يفهمها عدد من الناس أكبر من عدد من يفهمون الانجليزية [١] . والانجليزية لغة اثنتين من الدول الأربع الكبرى ويقف وراءها النفوذ الشاسع للفيلم الأمريكي والراديو البريطاني ، وهي في صورتها المعدلة لتصير مايسمى إنجليزية أساسية (Basic English) ، أصبحت لغة الكومونولث البريطاني ، للاتصال الخارجي والداخلي على السواء . وقد خلقت الإنجليزية الأساسية لتسد الحاجات السياسية والاقتصادية والعلمية للتواصل العالمي ، ولها أيضاً القوة التنفيسية للغة ذات تقاليد وأدب ، وهي قوة لاتكون للغة مصنوعة . ومع أنها مبدئياً تحوير للغة طبيعية ، فإن مخترعها « أوجدن » قد وضع في حسابه تجارب اللغات الصناعية التي تمت خلال القرون الثلاثة الماضية . وهي لذلك تعد لغة طبيعية وصناعية في وقت معا ، تحمل في طيها مالِلغة الطبيعية من احترام ووظيفة تنفيسية ، وهي في نفس الوقت اخترعت اختراعاً منطقيا يؤدي الوظائف التعاملية في التواصل العالمي .

وفي هذه اللحظة ، قد يكون من الغباء أن نحاول التنبؤ بأن لغة ما ستكون هي اللغة العالمية في المستقبل . سوف لاتكون الإنجليزية الأساسية ، وقد لا تكون الإنجليزية . إن تاريخ القرن القادم ربما يحول مركز النفوذ العالمي عن الشعوب التي تتكلم الإنجليزية . ولكن لاشك في أن اللغة العالمية في طريقها إلى الوجود .

(٨)

لقد نظرنا إلى هذا الحد في الحقائق والإمكانيات المتعلقة بالاتصال في المجتمعات

---

(١) يقرر ريتشارد أن الانجليزية والصينية الشمالية يفهم كل منها حوالي ٢٠٠ مليون من الناس (Richard BE 17) .

الحديثة . ولقد رأينا الفرد ينمو من الطفولة إلى الرجولة ، فى مجتمع مشبع باللغة ، وبأشكال أخرى من الاتصال الرمزى ؛ فيصبح منشأ فى عضوية المجتمع كما يُنَشَّأ فى اللغـة .

وعلينا الآن أن ننظر فى المعانى الأكثر عمقا لهذه الحقائق لنتساءل عن الظروف السائدة فى زماننا (المهام الاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية فى مجتمعاتنا) التى جعلت من الضرورى أن تنشأ اتصالات رمزية شهدناها ، وأن ينشأ معها اعتراف بأهمية التنشئة اللغوية .

وللإجابة على هذا التساؤل يجب أولا أن نفكر فيما هو أكثر من ذلك أهمية، وتلك هى العلاقة بين الاتصال وبين الفكر والإحساس والعمل الجماعى ، إنها علاقة معقدة ، يحتمل أن نخطىء فهمها مالم نقم بتحليل أدق لما يتصل بها ، وسوف لاينفعنا التعميم ، فنحن بحاجة إلى أن نفكر بالتفصيل فى طبيعة السلوك الجماعى ، مشتملا على الفكر الجماعى ، والإحساس الجماعى ، حيث تكون هذه الطبيعة مشبعة ومحدودة ، كما هى عادة ، بالعمل المعقد للاتصال الجماعى .

الفصل الرابع

اللغة والعقل الفردى

---

(١)

والسؤال الآن هو ماوظيفة اللغة فيما يختص بالعقل الجماعى ؟ هذه بلا شك هى المسألة الأساسية فى استقصائنا لموقف اللغة فى المجتمع؛ وهى مسألة تدفعنا على الفور إلى التساؤل عن طبيعة العقل الجماعى نفسه . فهل فى سلوك الجماعات ما يمكن أن يسمى « عقلا » ؟ من العسير أن يجاب على هذا السؤال إلا بعد أن نبحث وظيفة اللغة فى سلوك الجماعة . وسنوضح قدر الطاقة أن « عقل الجماعة » « ولغة الجماعة » كليهما لا يمكن أن يفهما إلا إذا رُبط بين أحدهما والآخر ، وارتبط كلاهما بسلوك الجماعة فى عمومه .

وشد ما صادفت فكرة العقل الجماعى تحديا دائما كما ظهرت فى العصور المتعاقبة من تاريخ الفلسفة،ولكن هذا التحدى لم يبلغ فى أى عصر ما بلغه من القوة فى الوقت الحاضر ، وليس هذا التحدى باليسير فى يومنا هذا ، ولذا يبدو المتشككون كأنما أصابهم مس مما سماه أحدهم « شبح الجماعة »[1] . ويبدو من هذا النقاش المحتدم أن موضوع هذه المناقشة لا يدور حول مجرد أمر من أمور الميتافيزيقا، بل من الواضح أن ثمة مسألتين أساسيتين هما طبيعة العقل الفردى ووجوده، ثم ما يترتب على أى فهم للعقل الجماعى من نتائج سياسية وخلقية .

وطبيعى أن يبدأ كل بحث فى كنه العقل الجماعى بالسؤال عما إذا كان فى الجماعة

---

(١) Cohen RN 387. Malinowski Calls it «the Phantom of collective soul» : AP 327.

شيء يقابل العقل في الفرد . ولا بد عند هذا الحد من مواجهة بعض المسائل مثل وجود العقل باعتباره حقيقة جوهرية، ثم طبيعة العقل، ثم العلاقة بين العقل و بين المخ . ومن السهل وربما كانت سهولة مريبة أن نهدم فكرة العقل الجماعي بأن نوضح عدم تمشيها مع أية فكرة عن العقل الفردي ، ولو أردنا بالعقل الروح مثلا أو جزءا من الروح، أي لو أردنا حقيقة متصلة بالجسم صالحة للبقاء بعده فلا شك في أننا سوف لانجد شيئا شبيها بهذا يتصل بالجماعة و يبقى بعدها ، أما إذا قلنا بأن العقل لايوجد منفصلا عن المخ ، أو حتى لو اعتبرنا العقل هو أداء المخ لوظيفته فسيطالب المتشككون بنفس السهولة أن يروا المخ الجماعي، وسيزداد هذا الشك بوجود النتائج الخطيرة التي يستلزمها أي فهم لكنه العقل الجماعي . يقول جنسبرج ، « يتضح بسهولة أن استخدام الاصطلاح « العقل الجماعي » فيه خطورة إلى حد بعيد ، وأنه يستتبع أموراً بالغة الأثر كما أن استعمال « عقل » أو « شخص » بالإضافة إلى المجتمع أدى بنا إلى أن ننسب للمجتمع وحدة خرافية ليست له قادتنا إلى التصغير من شأن الفرد والهيئات، و إلى خلق تقابل ضار بين خير المجتمع وخير الأفراد » (١) .

ولكن خطورة الحقائق لا تعفينا من مواجهتها ، و إن جنسبرج نفسه ليدعي أن الجماعات « وحدات عقلية بكل وضوح مادامت مكونة من عقول ذات علاقات مشتركة وهذه العلاقات نفسها تتوقف على عوامل عقلية » . و يضيف بعد ذلك مباشرة : « ومع ذلك يبدو خطأ أن نعتبر المجتمع عقلا » (٢) . وربما كان من الخطأ أن نعتبر المجتمع عقلا بقدر الخطأ الذي في اعتبارنا لشخص عقلا ، ولكننا سننتكب جادة الصواب إذا رفضنا الاعتراف بوجود شيء معين في سلوك الجماعة لا يمكن أن يسمى إلا « عقلا جماعيا ». و إذا تأملنا السلوك الجماعي وجدنا فيه ظواهر معينة عظيمة الأهمية ذات علاقة بالجماعة شبيهة تماما بالعلاقة التي بين العقل الفردي و بين الفرد .

---

(١) Gensburg P S 48.

(٢) the same 66.

ومن الخير أن نطلق على هـذه الظواهر اسم « العقل »، لأن وظائفها فى الجماعة تشبه وظائف العقل فى الفرد. وإن التسمية والموازنة كلتيهما لَتُعَوِّنّ لنا على أن نفهم هـذه الحقائق فى حياة الجماعة بطريقة أفضل .

ومن هنا كان من الضرورى أن ننظر فى المسألة أولا نظرة مفصلة ؛ لأن الـكثير من الغموض فى العقل الجماعى يرجع رجوعا مباشرا بلاشك إلى الصورة المشوهة التى نصور بها العقل الفردى . يجب أن نفعل ذلك بالاصطلاحات و بالمدركات السائدة فى يومنا هذا ، لأننا نلاحظ حقائق السلوك الجماعى ونبحثها بواسطة هـذه الاصطلاحات والمدركات .

وسوف نحاول فى هـذا الفصل لهـذا السبب أن نتبين نقط الاتفاق أو نقط الاختلاف فيما يقوله علماء النفس والميتافيزيقا الذين عنوا بطبيعة العقل . ولن يكون ذلك خروجا عن الموضوع الأساسى لدراستنا وهو « اللغة فى المجتمع »، لأنه لا توجد فـكرة سائدة عن العقل الفردى لاتضع فى حسابها الوظائف الفردية والاجتماعية للغة .

وثمة نقط ثلاث مشتركة بين المحاولات المتعددة المتشعبة فى هـذا القرن لوصف طبيعة العقل تلك هى : أولا : أن العقل نوع من السلوك والنشاط . ثانيا : أن الفرد نفسه يغلب ألا يكون شاعرا بنشاطه العقلى . ثالثا : أن الطابع الجوهرى لهذا النشاط هو استعمال الرموز ، والرموز اللغوية بصفة رئيسية . وسوف نحاول بعد هذا الفصل الذى نستعرض فيه اتجاهات التفـكير الحديث نحو تأكيد هـذه الصفات الثلاثة فى العقل الفردى ، أن نوضح أن ثمة ملامح مماثلة تماما توجد فى السلوك الجماعى ، لابد لنا أن نطلق عليها اسم العقل الجماعى .

(٢)

كلمة العقل اسم نطلقه على نشاط ، أو طريقة من طرق السلوك ، ولا يتفق

الميتافيزيقيون والنفسانيون على شيء في أيامنا هذه قدر مايتفقون على هذا الفهم. وإن هذا ليتضح خصوصا فيما نسميه الاتجاهات الحديثة في المجرى الرئيسي للفكر في هذه البلاد، كبحوث « وارد » و « ستاوت » و « ألكساندر » ؛ وليس أقل من ذلك وضوحا في سيكولوجية مكدوجل الهادفة (Hormic) وفي مذهب السلوكيين، وفي مذهب التحليل النفسي، الذي قال به فرويد ويونج. وربما كانت هذه هي النقطة التي تتفق عليها المدارس النفسية المختلفة اتفاقا بدون تردد. ولقد أكدت جميع المدارس الفلسفية بُعد العقل عن الجسم من قرون مضت، بل من أيام ديكارت. أما التفكير، وعلى الأخص التفكير القياسي عند الفلاسفة، فقد اعتُبر شيئا مغايرا لكل السلوك الإنساني الآخر. وقد جعلتنا السنوات الخمسون الأخيرة نعترف بالناحية البيولوجية في التفكير، وفي السلوك العقلي الآخر.

ويبدأ علم النفس السائد في بريطانيا بظهور «جيمس وارد»؛ أول من قام بتعليم هذه المادة في كمبردج، كما يخبرنا هو. وفي عام ١٨٨٥، في أول طبعة للكتاب الذي أصبح لمدة جيل كامل الكتاب العمدة في الإنجليزية، يزعم وارد أن التفكير يُفهم أحسن الفهم إذا تذكرنا أنه نشاط، وهو أحد أنواع النشاط الهادفة عند الإنسان؛ لأنه يُتَّخذ « أساسيا باعتباره وسيلة إلى غاية » [(١)]. فما طبيعة هذه الوسيلة وما أهدافها؟ هذه هي الأسئلة التي كرس جيمس وارد نفسه هو وأتباعه للإجابة عليها.

ويقوم « ستاوت »، تلميذ « وارد »، بفحص تحليلي دقيق للعقل، باعتباره نشاطا. وهو إذ يؤكد أن العقل نشاط هادف، أي نشاط عضوي يحاول أن يصل إلى غاياته، يبدي لنا أن التفكير يحدث لخدمة الإحساس والإرادة. أو إذا أردنا أن نضع ذلك في صورة اصطلاحات نفسية أكثر دقة فلا بد لنا أن نقول: إن وقوع الإدراك إنما يكون للتمييز بين الوجدان والنزوع. وإن الكائن العضوي يفكر حين يحاول

---

(١) Ward pp. 303.

أن يحصل على أهدافه ، وهكذا يصبح الانتباه فى أساسه نزوعيا ، ولو أنه قد يبدو لأول وهلة إدراكيا فى جوهره . و « مادام الانتباه يتطلب إدراكا أشمل للموضوع فهو بكل بساطة نزوع إلى خلق حالة من الاستكفاء ، دون أى تغير آخر فى الموضوع . وهو بهذه المثابة ناحية فرعية للنزوع فى عمومه لا تتميز عنه الا تمييزا مجردا »[(١)] .

ويذهب « ألكساندر » بهذا خطوة أبعد ، فيرى مع « ستاوت » أن العقل نشاط نزوعىٌ فى جوهره ، ويرى أن التفكير هو هذا النشاط النزوعى حين يتجه إلى معرفة الأشياء . ولكنه يجعل التفكير ألصق بالسلوك العضوى العام ، إذ يذكرنا أن التفكير قد يكون أحد نوعين : « عملى » و « نظرى »[(٢)] . فالإنسان كما ورد فى وصف « ستاوت » للانتباه المجرد يفكر تفكيرا نظريا حين يكون عقله راضيا بالحصول على إدراك أتم للموضوع ، دون أى تغيير فيه ، وهو حينئذ يتأمل الموضوع ، ويقدره ، ويدرسه ، دون أن يحاول تغييره . أما فى المناسبات الأخرى ، فربما يشتغل بمعرفة الأشياء من أجل تغييرها ؛ فهذا هو التفكير العملى ، وهو على الأقل يساوى التفكير النظرى فى الأهمية .

وأما أهمية هذا الاتجاه فى التطور من « وارد » ، إلى « ستاوت » ، إلى « ألكساندر » فهى أنه يجعل العقل أوثق علاقة بالسلوك الإنسانى فى عمومه . والعقل هنا إذ ينأى عن أن يكون جزءا من الإنسان ولا يتصل بحياته اليومية العملية ، يصير هو النشاط المركزى الذى بواسطته يحيا الإنسان حياته اليومية العملية . وبدل أن نعتبر التفكير نشاطا للعقل حين يكون منعزلا عن السلوك العملى ، يجب أن نعترف أن التفكير هو النشاط المعهود للعقل حين يشغل نفسه عمليا بالعالم المحيط به . يقول ألكساندر : « الحياة العقلية عملية فى كل حالاتها ، فهى تبدأ بالعمل وتنتهى بالعمل »[(٣)] .

---

(١) Staut M.P. 158.

(٢) Alexander C.P. 245.

(٣) the same 245.

وهذا الفهم البيولوجي للعقل أكثر وضوحاً ، وقبولا عند الجميع ، فى علم النفس الهادف Hormic الذى جاء به « مكدوجل » . فهو إذ يعرف علم النفس حينا بأنه دراسة السلوك ، وحينا بأنه علم العقل ، يشير إلى أن العقل شكل من أشكال السلوك . وما دامت الظاهرة الجوهرية لهذا السلوك هى كونه هادفا ، فكل العمليات العقلية يمكن أن تسمى « هادفة » (Hormic) ؛ وهذا اصطلاح يشتمل على كل أشكال المحاولة التى يحاولها الكائن العضوى ، سواء أكانت شعورية أم لاشعورية . فالعمليات النزوعية إذاً هى هذه العمليات الهادفة ، الداخلة فى شعور الكائن العضوى[1] . وبهذه الطريقة ، أى بخلق علاقة بين النزوع و بين فكرة «الهدف» Horm ، الأكثر شمولا ، يصبح « مكدوجل » فى المدرسة النزوعية مثل « وارد » و « ستاوت » و « ألكساندر » . وهو ينضم من جهة إلى السلوكيين ، بقوله إن العقل سلوك ، وينضم من جهة أخرى إلى التحليليين النفسيين ، باعترافه بالعقل الباطن .

أما المذهب السلوكى ، فهو بالتأكيد لا يبدأ ببطله الرئيسى « واطسون » ؛ بل تضرب جذوره فى القدم إلى أيام «وليام جيمز» . وقد أحس «جيمز» عام ١٨٩٠ أن أحسن وصف للعقل هو أنه « مجرى الشعور »[2] . وفى خلال السنوات العشرين التالية ، حين حاول أن يوضح هذه الفكرة لنفسه توضيحا أتم ، وصل إلى نتيجة أن الشعور لم يكن إلا « مجرى النشاط » . وفى عام ١٩١٢ كان جوابه على سؤاله الذى يقول فيه « هل ثمة شىء يسمى الشعور ؟ » لا ، لا يوجد هذا الشىء ، ولا توجد حقيقة كهذه . « دعنى أشرح أننى لا أريد إلا أن أنكر أن هذه الكلمة تقصد بها حقيقة ، ولكننى أصر بلا شك على أنها تدل على وظيفة »[3] . ومهما كان ذلك

---

(١) McDougall op 73.

(٢) James, pp (ii) 239.

(٣) Russell AM. 25—29.

فى مظهره مفزعا فى ذلك الوقت ، فهو ليس إلا طريقة تصويرية للتعبير عن رأى « الكساندر » القائل إن العقل نشاط لا ينقطع .

فإذا لم يكن الشعور حقيقة ، بل كان وظيفة ، فأى نوع من الوظائف هو ؟ أو بعبارة أخرى ، أى نوع من السلوك هو السلوك العقلى ؟ هذا هو السؤال الذى يلقيه السلوكيون . أما جوابهم القائل إنه الكلام الداخلى فحسب ، فلا شك أنه جواب واضح السذاجة . ولكننا سنرى أن الشكل المعدل من أشكال هذا المذهب ، كما يشرحه مثلا « برتراند رسل » قد أصبح محل قبول الجميع اليوم . أما بحث رسل Analysis of Mind ، الذى يبدأ برأى « جيمز » القائل إن الشعور ليس حقيقة ، بل هو وظيفة ، فيستطرد ليوضح أن الخاصة الجوهرية لهذه الوظيفة هى أنها تعمل بواسطة الكليات والرموز الأخرى [1] . وفى الوقت نفسه يصرّ التحليليون النفسيون وهم يجابهون السلوكيين ، إصرارا لا يقل قوة على القول بالطبيعة الديناميكية للعقل . وهكذا يستطيع « مكدوجل » ، وهو وسط بين الطرفين ، أن يشير إلى أن اصطلاحه وهو « الهدف » Horm ، واصطلاح التحليليين النفسيين وهو « الطاقة الغرزية » libido ، ليسا إلا اسمين يقصد بهما تأكيد هذه الديناميكية نفسها [2] . أما « الطاقة الغرزية » وهى المركز فى مذهب فرويد ويونج كليهما ، فقد حددها شارح معترف به من شراح يونج بالعبارات الآتيـة : « ينظر يونج إلى مجموع النظام النفسى باعتباره فى حركة ديناميكية مستمرة . ويقصد بالنشاط النفسى أن يفهم منه مجموع هذه القوة التى تدفع كل القوى ، وأنواع النشاط ، فى النظام النفسى ، وتجمع كلّ واحدة منها مع الأخرى . وهذه الطاقة الغرزية تسمى « لبيدو » [3] . وربما كان التحليليون النفسيون هم الذين أذاعوا هذه الصورة الحديثة للعقل ، باعتباره نظاما ديناميكيا ،

---

(١) James RE 3.

(٢) McDougall OP. 73.

(٣) Jacobi Pj 50.

أكثر مما هو حقيقة استاتيكية . ونحن مدينون بلا شك للتحليليين النفسيين بالاعتراف الحديث بأن العقل نظام ديناميكي لا يشعر الفرد به فى الغالب .

(٣)

أما العقل الباطن فيُنظَر إليه باعتباره مما كشف عنه علم النفس الحديث . ولكنه لا يعتبر كشفا إذا نُظِر إليه كجزء من الحركة العامة التى تهدف إلى جعل العقل نشاطا ، كما لا يمكن اعتباره كشفا تم فى وقتنا هذا . وفرويد كما هو معروف مدين لكتاب فون هارتمان « فلسفة العقل الباطن » The Philosophy of the unconscious ١٨٦٨ ؛ ولكن فكرة العقل الباطن أقدم من هذا بكثير . وحتى لو لم نتتبعها إلى أيام أفلوطين ، نستطيع أن نجدها عند بدء علم النفس الحديث ، فى القرن السابع عشر . وقد نظر « لوك » إلى العقل ، وإلى العقل الظاهر ، باعتبارهما مترادفين ، مصرًّا فى مقاله على أن « التفكير يتكون من الشعور الذى يفكر به المرء » ؛ ولكن « ليبنز » اعترض فى الحال قائلا : « إن من غير المعقول أن يقال بأن التفكير يتوقف بسبب كونه لا يدرك » ؛ وجاء بأمثلة ليوضح أن النشاط العقلى ربما استمر دون أن يكون الفرد شاعرا به [(١)].

ولا يزال الفهم الأساسى لمبدأ العقل الباطن هو أن كل إنسان يشتغل بالكثير من النشاط العقلى الذى لا يشعر به . ولكن هذا الفهم الواضح قد غطت عليه ـ لسوء الحظ ـ فكرة أكثر غموضا وصوفية عن « الباطن » (أو Unconscious مكتوبة مع كون U أول حروفها Capital) ، أطنب فيها « فون هارتمان » . وإن المناقشات قد نشبت حول هذه الفكرة فى خلال القرن الحاضر ، مع روح المناظرة حينا ، ومع شدة الانفعال أحيانا . ومن المهم هنا أن نفرق بين الدور الذى

---

(١) Leibniz NE 112.

قام به مبدأ فون هارتمان ، الذى استنبطه من « ليبنز » ، وتقوم عليه أدلة مادية ، و بين هذه الإشارات الميتافيزيقية التى لم يستطع أن يقاومها هو وآخرون . والاعتراف بحقيقة كوننا غير شاعرين بالكثير من نشاطنا العقلى يضيف وضوحا إلى الصورة التى عندنا للعقل ، ولكن الغرض الميتافيزيقى القائل بنفس لا شعورية عند الفرد ، و بباطن مطلق فى الكون Absolute Unconscious ، لا يسبب إلا الغموض والارتباك فى هذه الصورة .

والنقطة التى بدأ منها « فون هارتمان » هى أن ثمة قسطا كبيراً من السلوك العقلى لا يشعر به الفرد وقت حدوثه . و يسمى السلوك الذى من هذا النوع Unbewusst أو على وجه التحديد مالا يشعر المرء به . واستطرد يوضح صلاحية هذا الرأى بتحليل استنباطى دقيق ، و بملاحظة مادة غزيرة . وقد أوضح أن أى شكل من أشكال الوظيفة العقلية ، سواء أكان نزوعيا أم وجدانيا أم إدراكيا ، ربما استمر دون شعور من الفرد الذى يقوم به ، وأن العمل من هذا النوع له أثر عميق فى السلوك . حقا إنه كلما ازدادت أهمية السلوك بالنسبة إلى الفرد ، زاد احتمال جريان السلوك دون شعور منه . إن الوظائف الحيوية عند الفرد — كسلوكه الجنسى ، وعلاقاته الاجتماعية بزملائه — تميل كلها إلى أن تكون وظائف لاشعورية ، بمعنى كونها موجهة دون شعور ، وتحدث حين تحدث دون وعى . وهكذا يمكن أن يقال إن النشاط العقلى للإنسان فى أية لحظة من لحظات حياته شعورى من جهة، ولا شعورى من جهة أخرى ، ولكن أكثره لا شعورى . ويختم « فون هارتمان » كلامه بقوله : إن السلوك العقلى بطبعه لا شعورى ، ويصير شعوريا فى حالات خاصة فحسب .

وواضح أن فرويد قد جعل هذا كله نقطة ممتازة للبدء حين فكر فى الدلالات النفسية للاضطرابات فى أية وظيفة من الوظائف الهامة عند الإنسان . فمثلا رأى

« فون هارتمان » المعنى العميق لملاحظة « كانْتْ » Kant) ، التى تقول إن الدليل على السلوك الجنسى يقع فى الباطن [١] ، أما على يدى فرويد وتلاميذه ـ وقد كان يونج و « أدلر » كلاهما من تلاميذه ـ فقد عولج هذا بإطناب ، حتى صار مذهب الطاقة الغرزية أو « الليبدو » كما نعرفه الآن . وبالرغم من احتمال كون مدارس التحليل النفسى المختلفة متشعبة ، بل متعارضة أحيانا،لاشك أنها تتفق فى نقطتين رئيسيتين ؛ هما فكرتا « الطاقة الغرزية » و « الباطن » .

وقد أتى تأييد الفكرة العامة عن الباطن من مصادر لم يكن أحد يتوقعها؛ فإن « وارد » و « ستاوت » و « ألكساندر » ، و « سبيرمان » فى علاجهم لمشاكل العقل على طريقة التحليل بالتأمل الذاتى التقليدية فى المدرسة الإنجليزية ـ ولا شك أن هذه طريقة تختلف تماما عن طريقة فرويد ـ يصرون على أن ثمة نشاطا عقليا ربما لا يكون الشخص نفسه شاعرا به . أما « وارد » و « ستاوت » ، فيتبعان « ليبنز » فى إيضاح أن المرء ربما ينغمس فى النشاط الإدراكى الذى لا يشعر هو به [٢] . ويؤكد « ألكساندر » أن شعورنا بحياتنا العقلية يختلف عن شعورنا بأى شىء آخر ، مشيراً إلى أننا يجب أن نتكلم عن « الاستمتاع » بنشاطنا العقلى الخاص ، فى مقابل « التأمل » فى الأشياء الأخرى . وهو يشير بهذا إلى أن ثمة نوعا من النشاط العقلى لا نستمتع به ، وذلك هو النشاط العقلى الذى لا نشعر به [٣] . أما « سبيرمان » فإنه فى أثناء محاولته الكشف عن القواعد الأساسية للإدراك يقول إنه « مضطر بسبب الحقائق » إلى أن ينضم إلى « ليبنز » ، و « فون هارتمان » ، و « فرويد » ، وهو

---

(١) Von Hartman PU 22.

(٢) Alexander C.P. 243.

(٣) Ward PP. 90; Stout A.P (I) 24.

يمنى بالحقائق الأدلة التجريبية على أن الكثير من نشاطنا العقلي يجرى « دون مستوى الوعى التأملى الذاتى »[١].

حتى السلوكيون ، بالرغم من سخريتهم من صوفية التحليل النفسى ، لا ينكرون وجود الباطن ، ولكنهم يعطونه اسما آخر . فيخبرنا واطسون أن « الباطن الفرويدى » ليس إلا اللامرموز Unverbalised ويقول إننا فى الطفولة ، وخلال الحياة ، تبنى عادات كثيرة ، تدل على المقدرة والتنظيم الانفعالى (وهو يسمى ذلك Viseral) ، دون أن توضع فى ثوب الكلمات . وهــذا التنظيم « للامرموز » يكوّن فى رأيهم ذلك « الباطن » الفرويدى[٢] . وربما كان هــذا إيضاحا — ولا شك أنه ليس رفضا — لفكرة الباطن . ولكن حتى هــذا الإيضاح قد نبع من فرويد . فقد أشار فرويد من قبل بوضوح تام إلى أن الفرق الجوهرى بين السلوك العقلى اللاشعورى unconscious وما قبل الشعورى pre-conscious أن للأخير علاقة بالصور النطقية[٣] . ويعبر السلوك العقلى من اللاشعور إلى ماقبل الشعور ، فيصبح فى متناول الشعور ، بوضعه فى صورة كلمات .

فالذى فعله واطسون هو مجرد تأكيد إحدى الطرق التى يمكن أن يختفى السلوك بها وراء الشعور : فهناك أفكار ، وإحساسات ، ورغبات ، لم يعبر عنها أبدا . ولكن فرويد قد منح فهمنا للعقل اتساعا وعمقا ، بإيضاحه أن السلوك — وعلى الأخص السلوك الاشتهائى — ربما كان شعوريا فى بدئه ، ثم يُلقَى به فى غياهب الباطن . ومن ثم لا يوجد حدٌّ فاصلٌ ، يفصل الباطن عن بقية الحياة العقلية . وثمة تيار دائم يتبادله الشعور Conscious وما دون الشعور Subconscious واللاشعور Unconscious وأكبر ماقام به فرويد هو لفت الانتباه إلى التغيرات التى تمر بها الحياة العقلية الباطنة ،

---

(١) « below the level of Introspective awareness. » Spearman, Ni, 60, 167.

(٢) Watson UB 279.

(٣) Freud Ei, 85.

حين تقفز إلى الشعور فى صورة ظواهر التكثيف condensation ، والتحويل displacement ، التى تتصل عن قرب باللغة والرموز الأخرى .

ولا تقبل جميع المدارس النفسية كلما يتضمنه هذا الرأى ولكن هذه المدارس تتفق بصدد العقل على ما يمكن أن يصور فى الصورة الآتية .

(٤)

إن العقل فى الفرد نشاط ، إما أن يكون الفرد به غير شاعر unconscious ، أو دون الشاعر subconscious أو شاعرا conscious ، وبالإختصار ينشأ النشاط العقلى اللاشعورى بطريقتين : فثمة سلوك يكون الفرد به غير شاعر بصفة أساسية وهذا هو الحقل الذى أطلق عليه الاصطلاح « غريزة » مع درجات مختلفة من قبول إطلاقه، ثم هناك ذلك السلوك الذى يكون الشخص به شاعرا بصفة أساسية ، ولكنه ربما يصبح به فيما بعد دون الشاعر ، أو غير شاعر ؛ وهذه الخصائص فى الحياة العقلية الفردية لها ما يشبهها فى السلوك الجماعى ، كما سوف نرى .

أما السلوك الذى لايشعر الفرد به بصفة أساسية ، فلسنا بحاجة إلى الكلام عنه كثيرا هنا ، فهو حقل يكشف عنه ، ويوصف غالبا ، ولكنه يتقلص بسرعة فى يومنا هذا . ولقد خصص « فون هارتمان » قسطا كبيرا من كتابه لمناقشة الغريزة ، وجعلها « مكدوجل » من خمسة وعشرين عاما مضت مركز مذهبه ، ولكن يبدو أن الدلائل تدل فى يومنا هذا على أن الكثير مما نسب إلى الميول الداخلية هو فى الواقع أثر « الأنماط الثقافية » Cultural patterns فى الفرد الذى نما فى مجتمع بعينه . فإذا كان ثمة اتفاق يستشف من المناقشة التى لاتزال قائمة ، فهو أنه ربما كان هناك بعض الأنماط الفطرية للسلوك ولكن السلوك الشائع بصفة عامة بين كل أعضاء المجتمع يتكون من العادات التى تمت دون شعور ، أو بأقل قدر من الشعور ، وتؤدى وظيفتها الآن من وراء الشعور .

ونحن أكثر ثقة بأنفسنا حين نأتى إلى هذه التحولات التى يمكن ملاحظتها فى السلوك ، أى إلى السلوك الذى يؤدى وظيفته أولا تحت توجيه الشعور ، ثم يصبح دون الشعورى أو لاشعوريا ، ثم يظهر بحسب المناسبة بعد ذلك فى الشعور . ويجب أن يقال ما هو أكثر من ذلك عن هذه التحولات لأهمية العمليات المماثلة لها فى حياة الجماعة . دعنا ننظر أولا إلى التحولات التى فى الناحية الإدراكية من السلوك ، ثم بعد ذلك فى نواحيه الاشتهائية .

يصبح السلوك الإدراكى لاشعوريا حين تتكون عادات المهارة فى التصرف مع البيئة أو فى اكتشافها . ويتعلم الفرد هذه العادات أولا تعلما شعوريا ، ويهتدى فى تصرفاته بما يسميه « ألكساندر » التفكير العملى . وربما تؤدى هذه العادات وظيفتها فى الوقت المناسب بلا شعور ، أو فى حالة مادون الشعور ، ولكن توجيه هذه العادات ربما يصبح شعوريا مرة أخرى فى لحظة حرجة .

خذ مثلا تصرفا عمليا مألوفا ، يحدث عند معظم الناس دون توجيه من الشعور ، كاستعمال السكين والشوكة على المائدة . إن تربية هذه العادة ، أو النسق من العادات ، قد تطلبت فى حينها قسطا كبيرا من الانتباه ، وأصبحت العادات فى الوقت المناسب لاشعورية ، وظل معظمها كذلك . فإذا صح أن يتجه الشعور مرة أخرى إلى هذه العادات فمتى يكون هذا ؟ إنه قد يتجه إليها حين تعرض ظاهرة جديدة فى موقف مألوف ، يصبح معها النمط التصرفى المألوف غير صالح ، وربما يصيبنا شىء من الخجل مثلا فى فندق فى الخارج ، حين نستعمل آداب المائدة الإنجليزية المألوفة عندنا ، وعند ذلك ننتبه إلى سلوكنا ونصبح شاعرين به .

وثمة حالة أكثر تعقدا ، ولكنها مشابهة كذلك فى جوهرها ، هى حالة الصياد الذى يطارد فريسته ؛ إنه يسلك طريقه فى الغابة فى هدوء تام ، مع أنه يفعل هذا بمنتهى النشاط ، وبأقل قدر من الانتباه إلى الأشجار ، وإلى حركاته ، وإلى نفسه .

أما القدر الغرزى من سلوكه ، فلا يستطيع إنسان أن يحدده ، ومن المؤكد أنه قد تعلم الكثير تعلما شعوريا منذ الطفولة ، ولكن معظمه الآن يتم بأقل درجة من الشعور ، ويتم بعضه دون أى شعور .

ثم قد تأتى لحظة تقفز فيها ظاهرة غير مألوفة فى هذا الموقف المألوف . إذ يختفى الأثر فجأة ، أو تسقط شجرة فتسد الممر ، وهنا يتدخل الشعور ، فيبدأ الصياد فى الانتباه إلى ما يفعله ، « فيتذكر » ، و « يتخيل » و « يفكر » ، وكل هذه اصطلاحات نستعملها لتَدُلّ بها على أن الصياد شاعر بسلوكه العقلى .

وأهم مثل لنفس العملية فى حياتنا الحديثة ، اكتساب تطبيق منهج من مناهج المهارة ، كصنعة تتطلب استخدام الآلات . يستقر الصانع على مقعده ، ويتطلب الكثير مما يقوم به قليلا من السيطرة الشعورية منه ، إذ يقوم بنسق من حالات رد الفعل ، والعادات المكتسبة . فحركات ذراعيه ويديه وأصابعه حين يقبض ويوجه الآلة كلها سلسلة من الأعمال المعقدة التى يتكون منها العمل الماهر فى إدارة الآلة وتوجيهها ، وتكييف ضغطه على أجزائها ، وربما تم كل ذلك بأقل قدر من الانتباه .

ولكن تأتى لحظة يدخل فيها الموقف الذى ظل حتى الآن مألوفا فى دور غير مألوف ، حيث يفسد شىء ما فى الآلة ، أو يحدث عيب فى المادة . فإذا كان المنهج العادى يستطيع أن يصلح العطب ، فربما يكون تدخل الشعور طفيفاً ؛ ولكن إذا خذله السلوك المتعود فى محاولته علاج المشكلة ، بدأ الصانع فى التفكير .

ولقد رأينا فى هذه الأمثلة الثلاثة أن عملية ما قد تتم تحت توجيه شعورى جزئى أو تام ، ثم تتحول إلى الآلية فتصبح لاشعورية وينعدم التوجيه الشعورى فيها ، ثم قد يعود الشعور إلى توجيهها عند حدوث أمر غير مألوف . أما تحديد هذا التدخل فسنعرض له فى القسم التالى .

ويبقى بعد هذا أن نعرض للتحولات المطابقة للنشاط العقلى الاشتهائى ، وهى العملية التى وضحها لنا « فرويد » أكثر من غيره ، وعلى الأخص تطور « العقد النفسية » . فنى خلال حياة كل شخص تصبح الأشياء ذات الأهمية القصوى عنده مركزاً لإحساسات قوية ، أو بالاصطلاح الذى أشاعه « مكدوجل » : هناك تزايد فى العواطف نحو بعض الموضوعات الخاصة ، أو باصطلاح فرويد : هناك « شحنة نفسية » Cathexis موجهة إلى « الطاقة الغرزية » libido بواسطة هذه الأشياء . لحياة كل إنسان وسلوكه ممزوجان بشبكة من العواطف المتجهة إلى نفسه ، وإلى الأشخاص ، والأشياء ، والأماكن المألوفة ، وإلى الأشياء والأفكار التى سمع عنها أو قرأ . ولكن العاطفة أو « الشحنة النفسية » من هذا النوع ربما تقع فى نضال مع الرئيسى من عواطفه أو عاداته فى التفكير أو السلوك ، أو بعبارة أخرى ربما لا يوافق هو على الشحنة النفسية حتى ولو كان هو نفسه غير شاعر بهذا النضال والاعتراض . وفى هذه الحالة ربما تختفى العاطفة من الشعور بطريق الكبت ، وتتكون العقدة . ومن ثم يمكن تعريف العقدة بأنها عاطفة لا يشعر الفرد بها ، ولكنها تحدد سلوكه . أما درجة الشعور فسوف تختلف بالطبع باختلاف العقدة ؛ فربما تقع فى « مادون الشعور » subconsciosness ، فتظهر العقدة منه بسهولة ، أو عميقة فى اللاشعور ، فلا تستحضر العقدة منه إلى الضوء إلا بطرق علاجية ، كتداعى المعانى ، والتنويم ، وتفسير الأحلام .

وعلينا بعد ذلك أن نسأل : ما طبيعة ظهور العقدة فى الشعور ؟ ويتوقف الجواب ، كما فى حالة النشاط الإدراكى ، على الاعتراف بوظائف الكلمات والرموز الأخرى فى الحياة العقلية .

(٥)

إن الشعور سلوك تستخدم فيه الرموز ، وهو كاللاشعور ، ربما اعتبر كشفا

حديثا ، إلا أن الإغريق أيضاً فكروا فيه أولا . وإن الملاحظة التى يقتبسها الكثيرون ، والتى ينسبها أفلاطون إلى سقراط « حينما يفكر العقل يتكلم إلى نفسه »[١] لتشتمل على كل الدلالات التى نُوضحها اليوم ، ونتخذها المفتاح الرئيسى إلى فهم عقل الجماعة .

أما بعد أفلاطون ، فلم يأت شىء واضح كهذا ، حتى القرن السابع عشر ، فيما عدا اهتمام القرون الوسطى بمذهبى الاسمية Nomenalism ، والواقعية Realism المتقابلين ، اللذين كانا فى الحقيقة اهتماما بالعلاقة بين اللغة والفكر . ولكن لم يأت بعد أفلاطون شىء واضح إلى أن جاء « هوبز » فأصبح من الضرورى أن نفكر ، عند بداية العلم الاستنباطى والرياضة الحديثة ، فى كيفية استطاعة اللغة أن تخدم المناهج الجديدة للفكر . وكما يخبرنا تلميذه فى الوقت الحاضر « كولِنْجْوُدْ » ما كان من خير ما فعل « هوبز أن اعترف بأن المعرفة ما كانت لتأتى إلى حيّز الوجود بدون اللغة[٢] . وقال « هوبز » : إن اللغة التى وهبتها الطبيعة للإنسان لها وظيفتان : ليس الاتصال فحسب ، بل التفكير أيضاً ، وتجعل اللغة فى استطاعتنا « أن نسجل ما نجد بالتأمل أنه فائدة شىء ما . . . وليس الفهم إلا الإدراك الذى يترتب على الكلام . . . وليس العقل إلا معرفة النتائج التى تترتب على الأسماء العامة المتفق عليها ، للاشارة إلى أفكارنا ، والدلالة عليها . ومن ثم لا يكون للأطفال عقل بتاتا ، إلا حين يكتسبون استعمال الكلام »[٣] .

وبعد ذلك بجيل كما رأينا تقدم « لوك » خطوة أخرى مؤكدا لنا أن الإنسان لم يوهب اللغة من الطبيعة ، ولكن الحاجة إلى الاتصال هى منبع اللغة ،

---

(١) Theat. 189 : in Cornford PT. 118.

(٢) Collingwood NL 43

(٣) Hobbes L 25, 31, 33, 37.

اللغة التي تولد الفكر بدورها . وللمعرفة صلة بالكلام أقوى مما يُظَن . . . » وإن الناس ليطلبون في تكوين أفكارهم عون اللغة أكثر مما يستعينون بالطبيعة الحقيقية المحددة للأشياء كما هي، ومن ثم يسعون في بيان أفكارهم المجردة إلى أن يكون لهذه الأفكار مدد من الأسماء المختلفة الفهم في دلالتها »[١] . وبعبارة أخرى ، تحدد عملية التفكير المجرد بمقتضيات الحاجة إلى الاتصال ، وبأهمية اللغة التي تعدُّ أمَّ التفكير .

وقد اتفق ليبنز مع لوك في هذه النقطة ، مع أنه كان ينتقده[٢] . ولكن الفهم الجرىء الذي فهمه هؤلاء المفكرون الثلاثة : « هوبز » و « لوك » ، و« ليبنز » ، لم يقبله في مدى المائة عام وخمسين التي مضت إلا قليل ممن هم في نفس المستوى . ففي خلال القرن الثامن عشر ، وفي بعض القرن التاسع عشر ، توجه العيب إلى « هوبز » وأتباعه باعتبارهم ماديين ، وكان ثمة كثير من الخوف والكراهية للإشارات الدينية والخلقية التي في مبادئهم . ويمكن أن نرى الموقف العام منهم في منتصف القرن التاسع عشر فيما كتبه « ستودارت » (١٨٤٩) ، وهو أحد الكتاب القلائل الذين كانوا بصيرين بطبيعة اللغة ، ولكنهم مع هذا عارضوا ما اعتبروه مبادئ مادية هدامة . فهو يقتبس فكرة « هورن توك » القائلة إن ما يسمى عمليات العقل ليس إلَّا من عمل اللغة ، وكذلك النظرة القريبة إلى هذا ، والتي نظرها « كونديلاك » : « إن المرء لايفكر دون عون اللغة »
(On ne pense pas sans le secoures des langues)
ويقول : إن مثل هؤلاء الناس ينحرفون بالمبدأ الحق الذي قال به « لوك » ، وهو أن التفكير يتوقف على الإحساس . ويحتج قائلا « انظر إلى أين أدى بهم هذا . وإن مادية « هوبز » و« جاسندى »و«هارتلى »و«بريستلى»و« إرازموس داروين»،

---

(١) Locke E 84.

(٢) Leibniz NE 287.

و « دالمبير » ، و« ديديرو » ، و « كونديلاك » و « كوندورسية » ، « قد وصلت فى النهاية إلى قمتها فى صورة المحاضرات العامة الإلحادية ألقاها مسيو كونت »[١]. فإذا كان اللادبون قادرين على حشد قائمة كهذه من الأسماء ، فلا عجب فى أن ينظر « ستودارت » إلى نفسه جديا باعتباره « داود يواجه جيشا من الجواليت » .

لقد انطلق « ما كس مولر » فى هـذه الساحة شجاعا أكثر منـه متروّيا ، بصيحته التى دخل بها المعركة « لا أفكار بلا كلمات ! » (١٨٦١) . ولـكون هذه صيحة معركة أكثر مما هى فرض علمى ، تراجع مولر مضطرا إلى موقع أقل منعة ، حين جابهه خصوم أبطال مثل « جالتون » و « رومان » ، و« وتنى » ، ولو أنه لم ينهزم أبدا . وفى عام (١٨٨٧) كان يقول : « كل ما أعتقده هو أن الفكرة لا يمكن أن توجد بلا علامات ، وأهم العلامات عندنا هى الكلمات »[٢] .

ولقد تحصّن هذا الموقع فى يومنا هـذا ، وعززه من جميع الجهات حلفاء لم تحسن العلاقة بينهم فى أى موقف آخر ، ولـكنهم اتحدوا ، ليتقدموا فى الاتجاه الذى أشار إليه «هوبز» أول الأمر . فمن المدرسة الانجليزية الرئيسية كما يشرحها « وارد » و « ستاوت » ، ومن ميتافيزيقا « برجسون » و« كروتشى »،ومن السلوكية ، ومن التحليل النفسى ،ومن كل هذه الاتجاهات المختلفة،تأتى الأشكال المتعددة لنفس القاعدة المركزية القائلة إن الرموز ، سواء أكانت صوتية أم صورية،لا يمكن أن يستغنى عنها الشعور . ويذهب بعضهم إلى نهاية الطريق ، ولا يتنازل عن شىء من موقفه ، فيصر على أن الشعور هو استخدام الرموز .

ومع أن مبدأ « وارد » النفسى لم ينشر فى صورته النهائيـة حتى عام ١٩١٨ ، كان مدوّنا حين كان « مولر » يكتب،ويدلل على أن عالم النفس لا يستطيع تجاهل

---

(١) Studdart, PL, 21, 65.

(٢) Müller SI 58.

المناقشات الشائعة . ويرد ذكر «مولر» فيما كتبه «وارد» ولكن وارد لم يستطع أن يؤيده تأييداً كاملا . بيد أن القسط الذى أظهره من التأييد يدل دلالة واضحة على اتجاه الرأى . ويقول : فى الوقت الذى أصبح من المؤكد فيه أن الفكر لا يتم إلا باللغة ، كما يبدأ الفن بالأدوات ، تساعدنا اللغة مع هذا على أن نتقدم بعملية التفكير تقدما عظيما إلى الأمام (١) . فإذا أعطينا وزنا أكبر لوصف «وارد» ، فسنرى أنه قال كل شيء تقريبا : التفكير بغير اللغة بدائى كفن بلا أدوات .

وإذ يأخذ «ستاوت» الكثير مأخذ التسليم ، يحاول أن يحلل تحليلا أدق . فهو يسأل : ما الوظيفة الخاصة للغة فى تفكيرنا ؟ والجواب أن للغة وظيفة يفضل هو أن يسميها «تعبيرية» ؛ فالكلمة أداة للتفكير فى المعنى الذى تعبر عنه . وهكذا يؤكد الوظائف الدلالية للغة (Semantic Functions) (٢) . وكما يحدث كثيراً فى تاريخ الفكر ، لم يكن بمحض الصدفة أنه فى نفس العام الذى شهدنا فيه نشر كتابه ، رأينا أيضا ظهور كتاب «بريال» Essai de Semantique ، حيث تُستعمل كلمة semantic لأول مرة ، وكان هذا بداية للاهتمام الحديث من عالم اللغة بكل المسائل المتصلة بالمعنى . يقول «بريال» : «إن اللغة نتاج يبدأ ويبقى من أجل هدف عملى» . وسرعان ما قال «ألكساندر» من بعد : «إن الحياة العقلية عملية فى جميع مراحلها» . وتلتقى الطرق ؛ فعالم النفس المهتم بالنشاط العقلى ، وعالم اللغة المهتم بالوظائف اللغوية ، يجدان أنهما فى كثير من النقط إنما يعالجان نفس الشيء .

(٦)

ومنذ تلك اللحظة فى نهاية القرن ، انصرف قدر كبير من التفكير إلى المسائل الناشئة عن هذا التلاقى . فالباحثون فيما وراء الطبيعة ، والسلوكيون ، والتحليليون

---

(١) Ward PP 296.

(٢) Stout AP 192.

النفسيون انشغل كل منهم بطريقته الخاصة بنفس المسألة مسألة العلاقة بين العقل واللغة؛ وساهموا من اتجاهاتهم المختلفة فى الحل . . .

أما « برجسون » فإنه فى اهتمامه أولا بالتطور باعتباره موجدا العقل يرى اللغة وسيلة رئيسية يستطيع الذكاء بها أن يتحرر من روابط الغريزة . وقد بقى الذكاء أسيرا للغريزة فى كل كائن حى إلا فى الإنسان. بيد أن « اللغة تمنح الشعور صورة غير مادية وتشخصه وتعلن عنه ، فتحفيه من اللجوء إلى الأجسام المادية التى يجرفه فيضانها معه ، ويبتلعه فى النهاية » (١) . و بعبارة أخرى ، تجعل اللغة التفكير أمرا ممكنا فى أثناء تطور الإنسان ، وعلى الأخص التفكير المجرد . فاللغة وسيلة التحول من السلوك الغرزى إلى السلوك الذكى .

ويذهب « كروتشى » إلى أبعد من هذا فيقول : « يبدو واضحا أنه إذا لم يتكلم الإنسان فلن يفكر ؛ ونحن نقبل هذا الزعم » (٢) . و بما أن من المبادئ الرئيسية عند « كروتشى » أن الرموز كلها أشكال للغة ، فربما فهمنا من مقالته أنه يقصد بها أن الإنسان يفكر بفضل الرموز . أو كما يعبر عنها « هنرى ديلاكروا » : « كل التفكير رمزى . وكل التفكير مكون أولا من علامات تحل محل الأشياء » (٣) .

وفى ذلك الوقت كان علم النفس والميتافيزيقا يتحركان فى نفس الاتجاه ، فلما ولد المذهب السلوكى ، أعلن « واطسون » فى عام ١٩١٩ أنه ليس ثمة شعور ، واعتبر ذلك أساساً لمبدئه ، وأن ما نسميه تفكيراً ليس إلا كلاما صامتا (٤) . وليس همنا أن نصغر من شأن مجهوده ، إذا أشرنا إلى أنه بدل أن يجاهد ضد تيار علم النفس

---

(١) Bergson CE 279.

(٢) Croce, L. 4.

(٣) Delacroix LP 64.

(٤) Watson PB 344.

الحديث ، كما ظن أنه يفعل ، كان فى الحقيقة يسبح مع أحد تياراته الرئيسية . ولقد ظلم نفسه حين ظهر فى مظهر من يقلد « ماكس مولر » فى جعل اللغة شرطا ضروريا للتفكير ، لأن أفكاره عن التفكير وعن اللغة أكثر اتساعا ونفعا . فهو لا يكتفى بمجرد اعتبار التفكير لغة ، بل يزيد بالقول بأن ما نسميه تفكيرا لا يشتمل على « نشاط لغوى غير ظاهر » فحسب ، بل يشتمل كذلك على كل « أنواع النشاط الأخرى ، التى يمكن أن تحل محل النشاط اللغوى » [١] . وهو حين يضيف قوله إن عمليات التفكير لا ينبغى أن تجرد من « هيئاتها العامة فى صور الكلمات » ، نرى فى الحال تطابق آرائه مع آراء المفكرين الآخرين الذين سميناهم .

وحين يذهب « واطسون » إلى أبعد مما ذهبوا إليه ، ويدلى بآرائه مع تأكيد أشد ، يدفع الكثيرين إلى معاودة التفكير تفكيرا أدق فى وظائف اللغة والفكر ، وأحيانا إلى الاعتراف الكامل بأن التفكير نشاط رمزى . أما نفوذه الرئيسى ، فقد كان غير مباشر ، وهو صوغ السلوكية صياغات أقل غموضا ، فكان لها أثر أكبر . وكان « برتراند رسل » مثلا يقول فى عام ١٩٢١ إنه بالرغم من كونه ليس من السلوكيين مستعد إلى أن يتمشى معهم مسافة طويلة . وكان مستعدا لهذا التمشى إلى حد قوله : « يكاد كل النشاط الذكائى الأعلى أن يكون مسألة كلمات » وأكثر عموما قوله : « إن كل جوهر الكفاية العملية للفكر يتكون من حساسية العلامات . . . . وتعتبر الكلمات من بينها مثلا لا يعلى عليه » [٢] .

أما مساهمة التحليل النفسى فى هذا الاتجاه للفكر الحديث ، فتتمثل فى وضع العلاقة بين اللغة والشعور فى بؤرة الانتباه . يقول فرويد : « إن النشاط العقلى يصير نشاطا عقليا شعوريا إلى حد أنه يظهر فى شكل صور نطقية . ويدلنا هذا على الطريقة التى يحتمل أن العقل الباطن قد أصبح بها عقلا شعوريا فى أثناء التطور الإنسانى .

(١) the same 346.

(٢) Russell AM. 29, 211, 293

« يحتمل أن التفكير فى أصله كان لاشعوريا ... وأنه قد أعطى صفات أخرى يحس بها الشعور بسبب علاقته بالآثار التذكرية للكلمات »[1] . ويحدث نفس التحول فى الفرد ، ويقرب النشاط العقلى اللاشعورى إلى الشعور لكونه يرمز إليه رمزا نطقيا . أما السؤال عن كيف يصبح شىء مّا شعوريا ؟ فيمكن أن يوضع وضعا أكثر نفعا بالطريقة الآتية : « كيف يصبح شىء ما دون الشعورى ؟ » الجواب : « باتصاله بالصور النطقية المطابقة له »[2] . إن التشابه واضح بين هذه الصورة وتلك التى رسمها « برجسون » للتطور ، ويذهب فرويد إلى أبعد من هذا حين يوضح أن التحول من النشاط العقلى اللاشعورى إلى النشاط العقلى الشعورى هو أيضا تحول من الرموز الصورية إلى استخدام الكلمات . أما الوسائل الجوهرية التى نصبح بواسطتها شاعرين بنشاطنا العقلى ، فهى التى نرمز إليها بالكلمات . فالشعور إذاً نشاط عقلى مرموز إليه رمزا نطقيا .

هاك إذاً الجواب الحديث على السؤال القديم : « ما الشعور ؟ » إن السلوك الإنسانى فى مواجهة العالم المحيط بالمرء يتم غالبا باستعمال الرموز ، ونحن نسمى هذا « السلوك الذى يتم بالرمز » سلوكا عقليا . فيمكن أن يصبح الإنسان إذاً شاعرا بنشاطه العقلى بواسطة الرمز إليه . ومن هنا يكتسب القدرة على « تصريف سلوكه الخاص » . ويقول « بارتليت »: إن الكائن العضوى يجب بطريقة ماأن يكتسب القدرة على أن يهيئ ظروف الأداء السلوكى[3] لكيانه . . . . لأن هذا هو ظرف إتيان الشعور وسببه ، وهو الذى يعطى الشعور وظيفته الرئيسية . وقد رأينا أن الرأى

---

(١) Rechman SF 48.

(٢) the same 246.

(٣) Bartlett R 206

فى أيامنا هــذه هو أن الإنسان يصرّف سلوكه بواسطة الرموز وهو يصرفه بواسطة الرموز النطقية بقدرة أكبر منها حين يصرّفه بالرموز الصورية .

(٧)

إن تفسير «فرويد» لهذه العملية هو أنه حين يتحول النشاط العقلى من اللاشعور خلال مادون الشعور إلى الشعور ، يرمز إليه فى مراحله الأولى بالصور ، ثم باستخدام الكلمات شيئا فشيئا، حتى أن التفكير الكامل الشعور يصير نطقيا أكثر منه صوريا . « إن التفكير بالصور ليس إلا شكلا غير كامل من أشكال الشعور . وهو كذلك يقرُب فى بعض نواحيه قربا كبيرا من العمليات اللاشعورية ، أكثر مما قد يقرب منها التفكير بالكلمات ، ثم إن التفكير بالصور دون شك أقدم من التفكير بالكلمات من ناحيتى النشوء الفردى والشعبى »[1] .

ويستطيع التحليليون النفسيون أن يقدموا الكثير من الأدلة يؤيدون به هـذا التعميم ؛ كرموز الأحلام ، ورموز العقل فى اليقظة ، حين يحاول أن يستحضر مادون الشعور ، أو يستكشف المستويات الأعمق التى فى اللاشعور . ويخبرنا يونج عن هذه المستويات الأعمق أن « لغتها مهجورة رمزية ، دون المنطقية ، فهى لغة صورية ؛ لايمكن معرفة معانيها إلا بطريقة خاصة من طرق التفسير »[2] .

وثمة صدى غريب فى كل هـذا لملاحظة قالها بنثام ، الذى أحس بكثير من الأشياء التى لم تَحْصُل لها على أدلة مادية إلا فى أيامنا هذه ، وكان ذلك فى أثناء تأمله فى العلاقة بين اللغة والفكر . « إن الأفكار أحلام مادامت لم تكسها الكلمات وما دامت عارية منها، وهى تطفو فى العقل حينا ، وتختفى منه حينا آخر، كما يفعل السحاب

---

١) Rickman SE 249

٢) Jacobi PJ 39 قارن رأى پياجيه أن التفكير فى الطفل إنما يكون دون المنطق .

فى السماء »[١] . وإن الأفكار كالأحلام مادامت تفقد الكساء الرمزى اللغوى ، فهى شبيهة بالحلم ، ولها الكثير من خصائص الأحلام .

فما هذه الخصائص ؟ لم يأت فرويد بشىء أكثر تبصيرا من عبارته عن الطريقة التى تحول الأحلامُ بها الأفكارَ الخفية اللاشعورية لتصبح مقبولة عند الشعور ، وفى متناوله؛ إنها أيضاً الطريقة التى يحدث بها نفس التحول فى حياة اليقظة. يقول فرويد: إذا اختبرنا الأحلام وجدنا لها خصائص ثلاثا : هى استعمال الصور البصرية Visual imagery والتكثيف Condensation والتحويل Displacement

وهو يقول[٢] : إن الأحلام تكاد تتكون كلها من صور بصرية ، بها أقل قدر من الكلمات . وهذا سبب من جهة ، ونتيجة من جهة أخرى ؛ لكوننا لانحاول فى الأحلام أن نتناول التجريدات والتعميمات ؛ فكل تفكير فى الحلم يعطى صورة مادية بقدر الامكان . والسبب كما رأينا فى الاقتباس من فرويد منذ لحظة أن التفكير بالصور يقترب من عمليات اللاشعور أكثر مما يقترب التفكير بالكلمات . وربما أضفنا أن الصور أيضاً أكثر قابلية من الكلمات للتكييف بالكيفية التى تجعل فى استطاعتنا أن نخفى إحساساتنا ورغباتنا ؛ نسمح للصور بالظهور فى الشعور . أما وضع هذه الإحساسات والرغبات فى شكل كلمات ، فيجعلها أكثر تحددا، ويجذب الانتباه إليها جذبا أكبر ، وذلك لا يلائمها .

والخاصية الثانية للأحلام هى التكثيف، فالأحلام ، إن صح هذا التعبير ، صورة مركبة من الكثير من الأفكار ، والرغبات ، والإحساسات المتراكمة من قبل ، فى صورة عُقَد،ولا يُسمح إلا لبعض العناصر الخاصة من هذه العُقَد أن تصل إلى المحتويات الواضحة للحلم . ونحن نعبر بكلمة « يُسمح » لأن ثمة رقابة دائمة مفروضة على العقل .

---

(١) Ogden BF lxxi

(٢) Freud IL 144—9.

ويسمح للعقد أن تصل إلى الشعور فى أشكال لاتتعارض بشدة مع الأفكار والإحساسات والرغبات الشعورية .

أما الوسيلة الثالثة التى يتم بها التنكر والتحول فهى التحويل . فلربما وُضع فى مكان العنصر الخفى شىء أكثر بعدا عن المركز الحقيقى للعقدة؛ شىء له طبيعة التلميح ، حتى لا يأخذ الشعور حذره؛ أو قد يتحول مركز الحلم أيضاً بتحويل الضغط والتأكيد عما هو هام فعلا إلى شىء أقل أهمية ، ولكنه مع هذا شديد الارتباط به .

وواضح فى جميع مراحل تناول فرويد للأحلام أن الأحلام مدينة بتصويرها وتكثيفها وتحويلها إلى الطريقة التى يسمح العقل لنفسه بها أن يرمز إلى المحتويات الخفية فى الأحلام . وما دامت هذه المحتويات من غير رمز فسيظل العقل غير شاعر بها . وحتى حين يرمز إليها يميل العقل إلى الدلالة عليها بالصور لا بالكلمات ، وبالكلمات التصويرية أكثر من الكلمات التجريدية . لأن الصور المصوَّرة ، واللغة التصويرية تطاوع التكثيف والتحويل اللذين يتطلبهما العقل لوكان سيقبل العناصر الخفية للحلم أى قبول .

(٨)

لقد وصلنا الآن إلى النقطة التى نستطيع عندها أن نكمل عبارتنا عن الفهم الشائع للعقل . ونقصد من العقل الاتجاه النزوعى للسلوك إلى إدراك البيئة إدراكا قد يكون عمليا أو نظريا ، وقد يشتمل على استجابات وجدانية للبيئة . والخاصية الجوهرية لهذا السلوك العقلى هى أنه يستعمل الرموز ، سواء منها النطقية أو الصورية . وقد يكون الإنسان فى أية لحظة شاعرا ببعض سلوكه العقلى وقد يكون أقل شعوراً بأجزاء أخرى منه ، وغير شاعر بالكثير . ويميل العقل الظاهر إلى استعمال الرموز النطقية ، أما العقل دون الظاهر والعقل الباطن فيميلان عند تحولهما إلى الشعور إلى أن يستعملا الصورة الرمزية ، أو التحولات الصورية للغة .

وعند كل إنسان عقد دائمة من الأفكار والإحساسات والرغبات تؤثر بقوة على سلوكه الظاهر ، ولكنه أميل إلى أن يظل غير شاعر بها ، ولا يسمح لها أن تطفو إلى شعوره إلا فى شكل صورة تنكرية . فكل سلوك عقلى إذاً يستخدم رموزاً من نوع أو من آخر ، وتختلف الرموز باختلاف طبيعة النشاط العقلى ، وما إذا كان هذا النشاط مصطبغا بصبغة الإدراك ، أو الوجدان ، أو النزوع ، و باختلاف المدى الذى تتصل معه هذه الرموز بالشعور .

و بعبارة « أنجيال » الذى حاول حديثا أن يُقَعِّد القواعد الأساسية لعلم النفس : « إن النشاط النفسى يمكن أن يسمى الوظيفة الرّامزة من وظائف الكائن العضوى » [1] . و بعبارة أ كثر عونا لنا فى نظرنا إلى العقل الجماعى نقول : إن العقل سلوك فى وسط من الرموز .

فما معنى العقل الجماعى إذاً ؟

---

(١) Angyal SP 58.

الفصل الخامس

اللغة والسلوك الجماعى

---

(١)

العقل سلوك فى وسط من الرموز ، والعقل الجماعى سلوك جماعى فى وسط من الرموز الجماعية ، وسوف ننظر فى هذا الفصل فى المقصود من هذا .

ونحن مسوقون إلى علاج هذه المسألة ، لا للرغبة فى إعادة فتح باب مناقشة قديمة ، ولا فى أن نُناقش مرة أخرى ما إذا كان ثمة شىء له طبيعة العقل الجماعى أم لا ، فهذه مسألة ميتافيزيقية . ومما هو سبب لاهتمامنا بوظيفة اللغة فى المجتمع أنه يتحتم علينا الاعتراف بأن السلوك الجماعى الإنسانى يتخذ طابعا خاصا حينما دخلته الرمزية الجماعية أى الاتصال ؛ وأن سلوكا من هذا النوع مشتملا على الرمزية ، له عند الجماعة نفس الوظائف التى للنشاط العقلى عند الفرد ، فالتذكر الجماعى ، والتخطيط الجماعى ، والإحساس الجماعى ، والإرادة الجماعية ، كل أولئك يدل بوجود شكل ما من الاتصال الرمزى فى الجماعة ، إن الاتصال الرمزى هو الذى يجعل فى طوق الجماعة أن يتجه انتباهها إلى مجرى سلوكها ، وإن اللغة لتمكن الجماعة من أن تجعل هذا الانتباه أكثر شمولا . وتجعل اللغة من الممكن بالنسبة إلى الجماعة أن ترمز إلى عقلها الجماعى فتعطى العقل الجماعى قوة يصير بها عقلا جماعيا شعوريا .

والاعتراف بكل ذلك هام من أجل فهمنا لوظائف اللغة فى المجتمعات الحديثة ، حتى إننا يجب هنا أن نمنح أنفسنا فرصة البدء فى المناقشة خطوة خطوة . إن طبيعة

العقل الجماعى غامضة مالم ننظر إليها فى علاقتها بالسلوك الجماعى فى عمومه ، ومالم نعترف بأن العقل الجماعى ليس إلا شكلا من أشكال السلوك الجماعى . وكما يرى علم النفس أن العقل الفردى فى يومنا هذا جزء جوهرى من مجموع سلوك الفرد ، يجب كذلك أن ننظر إلى العقل الجماعى كوسيلة رئيسية لاشتغال الجماعة بالنشاط الجماعى .

ومن ثم يجب أن نبدأ فى هذا الفصل بالسلوك الجماعى فى عمومه ، ثم ننتقل من هذا السلوك إلى التأمل فى العقل الجماعى فى علاقته باللغة . وسنبدأ بتذكر أن السلوك الجماعى يتميز عن السلوك الفردى ، وأن أنواع النشاط التى يقوم بها الناس فى جماعات ذات أشكال مخالفة لأى سلوك يقوم به الأفراد فى عزلتهم . ثم نشرح بعد ذلك أن السلوك الجماعى الإنسانى ، كما نعرفه اليوم ، إنما يكون فى العادة — إن لم يكن دائما — فى وسط من الاتصال الرمزى ، الذى هو وسيلة تستطيع الجماعة بها أن تنظم بقية سلوكها ، بتأجيله ، وتوجيهه ، فى ضوء ذكريات الماضى غالبا . و بعبارة أخرى يصبح الاتصال الرمزى وسيلة تستطيع بهـا الجماعة أن تراقب سلوكها ؛ ووسيلة تكوّن الجماعة بهـا عقلا جماعيا . فإذا سلمنا بهذا أصبح من المعقول أن يكون ثمة تطور فى العقل الجماعى لبعض الجماعات أرقى منـه فى الجماعات الأخرى ، طبقاً لمدى التشعب فى الاتصال الرمزى ، وأن الجماعة ربمـا اشتغلت أحيانا بسلوك جماعى لا يدور حوله اتصال رمزى فى الجماعة . وسوف يكون هذا سلوكا جماعيا لا شعوريا ، أى سلوكا لا تشعر الجماعة به باعتبارها جماعة ، ولو أن الأفراد فى داخل الجماعة ربمـا شعروا بهذا السلوك . وسوف يكون هناك اختلافات فى توسيع وتضييق معرفة الجماعة بالسلوك الجماعى على قدر مدى الرمزية الجماعية ودرجتهـا فى السلوك الجماعى .

وسنشرح أخيرا أن للغة مكانا فريدا بين أنواع الاتصال الرمزى المختلفة ، من حيث إنها وسيلة يصبح بها العقل الجماعى عقلا جماعيا شعوريا . ومن هنا ربما انقسم

السلوك الجماعى إلى درجات ثلاث: أولاها سلوك بلارموز جماعية،والثانية سلوك برموز جماعية غير منطوقة ، والثالثة سلوك باللغة . وسوف نرى على أى حال أن السلوك الجماعى الإنسانى ، فى الحقيقة ، نادراً ما يكون من النوع الأول . وبعبارة أخرى ، يتلقى السلوك الجماعى الإنسانى دائما توجيهات العقل الجماعى إلى حد ما مهما كان بدائيا ، ومهما قل فيه الشعور ؛ وربما أصبح العقل الجماعى كامل الشعور حيث توجد اللغة بدرجة راقية .

ويتبع هذا أن الثورة اللغوية ، أوتدخل اللغة المتزايد فى حياة الجماعة ، يجب أن تكون لها آثار هامة فى العقل الجماعى . وسنناقش هذه الآثار فى الفصول الآتية .

(٢)

هل ثمة سلوك جماعى ؟ وهل لسلوك الناس حين يعملون فى مجموعات خصائص مميزة لاتوجد فى سلوك الأفراد الذين يعملون فى عزلة ؟ وهنا نقف وقفة محددة ، مع دعوى أن الجواب على هذين السؤالين إنما هو بالإيجاب .

وواضح أولا أن الكثرة الغالبة من أشكال السلوك لا تصبح ممكنة إلا فى الجماعات . وأصغر جماعة إنما تكون من اثنين ؛ ولاشك أن ثمة جمهرة من أنواع النشاط،لا يقوم بها الناس إلا مثنى ،مثنى؛ولا يمكن أن يقوم بها شخص واحد منفردا. وحين نتكلم عن هذه المجموعات الثنائية ، نجد السلوك الجنسى هو أوضح مثال يقفز إلى الذهن ؛ ولكن أمثلة تساوى ذلك فى القوة تأتى فى صورة المبارزات ، والغناء الزوجى ،أو أية لعبة ، أو تعاقد ، أو محادثة يقوم بها اثنان . ولا يستطيع واحد من المجموعة الثنائية أن يقوم وحده بما يقوم الاثنان به معا ، وإن نماذج العمل الفردى فى حالة العزلة تختلف عن نماذج العمل المشترك .

وما يصدق على المجموعات الثنائية يصدق بدرجة أوضح على الجماعات الكبرى. فيختلف عمل اللجنة عن المناقشة بين اثنين ، وهو كذلك أكثر اختلافا عن التفكير

الفردى . وإن لعبة « الرَّجْبى » ، والمعركة ، والمحاكمة العرفية ، والعمل فى مجموعة فى المصنع ، والأوركسترا ، كل أولئك أشكال من السلوك لا يمكن لفرد أن يقوم بها وحده. وفى كل هذه الأمثلة نجد سلوك كل عضو متعاون يختلف من جهات كثيرة عن أى شىء يفعله وهو منفرد ؛ فنماذج العمل الجماعى تختلف عن نماذج العمل الفردى ، لأن الأولى على وجه التحديد عمل مشترك من عدد من الناس يعملون معا .

ونماذج السلوك الجماعى الإنسانى مع هذه الفروق تشبه فى نفس الوقت نماذج من السلوك الفردى حين العزلة . فالجماعة كالفرد ، توجد بفضل مدى قدرتها على فرض نفسها على البيئة . ويتجه سلوك الجماعة إلى البيئة ، سواء منها الإنسانية ، وغير الإنسانية ، مع نية الإبقاء على الوضع الداخلى فيها ، والثبات فى وجه قوى التفكك الخارجية . أما الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة ، فيؤدون سلوكا مشتركا متجهين إلى هذه الأهداف . ويتضح فى أثناء ذلك أن ثمة سلوكا عقليا فرديا ، إدراكيا واشتهائيا على السواء . وإذ يكشف الناس فى عملهم المشترك عن بيئة الجماعة ، ويستغلونها ، يفكرون ويحسون ويريدون باعتبارهم أفراداً . أما السؤال الحاسم فهو هل ثمة سلوك عقلى جماعى كذلك : أى سلوك إدراكى واشتهائى للجماعة باعتبارها جماعة ؟ .

(٣)

ويقودنا هذا فوراً إلى سؤال آخر هو « ما الدور الذى يلعبه الاتصال الرمزى ، ولا سيما اللغة ، فى السلوك الجماعى ؟ » وهنا هنا منصرف إلى المجتمعات المعقدة فى حضارتنا المعاصرة ، ولكننا سنستطيع أن ننظر نظرة أوضح إلى سلوك مجتمعاتنا المعقدة ، إذا ابتعدنا قليلا عنها وحاولنا أولا أن نحصل على صورة لمنزلة الاتصال فى المجتمعات الأكثر بدائية .

ومن الممكن فرضاً أن ندرك السلوك الجماعى دون أن يكون فى وسط من الاتصال الرمزى .. أى السلوك الجماعى الذى لم يؤدّ الاتصال الرمزى أىّ دور فيه ، أى ينعدم الرمز فيه أثناء أدائه لوظيفته . وربما كان السلوك الجماعى لحيوانات غير الإنسان ، كالحشرات غشائية الأجنحة مثلا من هذا النوع ، لسنا ندرى . أما فيما يختص بالنشاط الجماعى الإنسانى ، فكلما لاحظناه عن كثب أصبح من الواضح أن نوعا من الاتصال الرمزى قد أدى فيه دوراً ، إما فى تطوره ، أو فى تأدية وظيفته . إن « سابير » ، أحد علماء الدراسات الشعبية ethnography القلائل الذين منحوا وظائف اللغة فى المجتمعات البدائية عناية خاصة باعتبارهذه الوظائف متميزة عن صيغ اللغة ، ليستنتج أن « كل نموذج ثقافى ، وكل عمل مفرد من أعمال السلوك الجماعى ، يشتمل على اتصال ، إما بمعنى ظاهر أو خفى »[١] .

ولا يكاد ذلك يبدو صحيحا من أول وهلة ، إذ يبدو أن هناك أشكالا هامة من السلوك الجماعى تؤدى وظائفها بطريقة آلية «غريزية» دون رمز من إيماءة ، أو إشارة، أو كلام . ففى الصيد مثلا ، جماعة من الرجال يتتبعون الأثر معا ، بطريقة تعاونية فى هدوء وصمت ، كما لو كانت إحساسات خفية تقودهم . فتلك حالة نموذجية تمثل هذا السلوك بوضوح ، وثمة كثير من الأدلة من الدراسات الشعبية (ethnology) على أن السلوك الجماعى الذى من هذا النوع شائع فى المجتمعات البدائية ، أى أنه سلوك جماعى يقوم به الناس مع انعدام الكلمات .

ويمكن أن نسأل ثلاثة أسئلة عن السلوك من هذا النوع . « هل هو سلوك جماعى؟ » و « هل يتم بواسطة الإحساسات الخفية intuition ؟ » و «هل للاتصال اللغوى أى أثر فى تطوره وأداء وظيفته ؟ » .

---

(١) art. « Communication » Ency. Soc. Sci. 1931

أما السؤال الأول فواضح وضوحا تاما أن الصيد الجماعي سلوك جماعي حقا . فأعمال الصياد الذي هو واحد من مجموعة مخالفة لأعماله وهو يصطاد بمفرده ، فهي تحددها عضوية الجماعة التي تقوم بالصيد ، وتعطيها معناها الخاص . أما في داخل الجماعة ، فثمة نماذج للعمل تربط بين كل شخص وآخر ، وتسمى بحق سلوكا جماعيا ، لأنها لاترد إلا في سلوك الجماعة .

وأما عن الإحساسات الخفية intuition ، فواضح أن هذا السلوك الجماعي إنما يؤدي وظيفته بهدوء ، لأنه نتيجة عملية طويلة من التدريب الجماعي ، ولأن مقتضيات الموقف مادامت مألوفة نسبيا تستدعي تعقدا في التنفيذ يصبح «عادة» بواسطة التدريب . وواضح في أثناء عملية التدريب أنه لا بد أن يكون بعض الاتصال إما بالإيماء ، أو الإشارة ، أو اللغة ، قد لعب دوره .

فمتى يحتمل هنا أن تتدخل اللغة في الصيد الجماعي الفعلي ، ومعها التفكير الجماعي ، والشعور الجماعي بالسلوك الجماعي ؟ الجواب ، كما في حالة السلوك الفردي : إنها تتدخل حين لاتصلح الطرق المألوفة لعلاج الموقف غير المألوف . وحتى في جماعة الصيادين البدائيين ، حين يحدث ظرف غير مألوف ، وتتعطل الطرق المعتادة للسلوك ، يحتمل حدوث اتصال من نوع ما . وقد لا يكون ذلك أكثر من لحظة سكوت ، حيث يعطي أحد أعضاء الجماعة دلالات إيمائية عن الخطوة الواجبة التالية ، ثم بعد هذا يستمر الصيد . وبعبارة أخرى ، يحدث اتصال رمزي ، ولو أنه لا يزال في المرحلة الصورية . وإذا كان التفكير الجماعي هنا بدائيا ، فهو تفكير جماعي على أي حال .

ونحن نسميه تفكيرا جماعيا ، لأنه تفكير يقوم به أعضاء الجماعة معا . يشير شخص ما إشارة خاصة ، فيستجيب الآخرون ، وتحدث استجابات أخرى لاستجاباتهم . أما في التفكير الفردي ، فإن الإشارة والاستجابة كلتيهما داخلتان في سلوك نفس الشخص ، ولكن هنا في هذا السلوك الجماعي يمر التفكير في طريقه من عضو إلى

عضو ؛ وتفكير كل فرد محدد جزئيا بسلوك الأعضاء الآخرين الذي يمنحه معناه أيضا . ويختلف التفكير الجماعي عن التفكير الفردي بنفس الطريقة التي يختلف بها الصيد الجماعي عن الصيد الفردي .

أما التفكير الجماعي الذي يتم بواسطة الإيماءات ، والإشارات الصورية الأخرى فهو كما قلنا تفكير بدائي فحسب ، ويتم نموه وتعقده حين تدخل فيه اللغة . وربما وجد حتى في جماعة الصيد البدائية ما يمكن باصطلاحات حضارتنا اللغوية أن نسميه مؤتمرا . وهنا تبدو بوضوح تلك الفوارق الخاصة بين التفكير الجماعي والتفكير الفردي . وحين تنشأ عمليات التفكير وتنمو تكون نموذجا هو نتيجة المساهمات المتعاقبة من أعضاء هذه الجماعة ؛ فإن شخصا قد يقترح شيئا ، فإما أن يوافق عليه ، أو أن يعارض باقتراح آخر ، فينتج عن ذلك ملاحظة أخرى ، فيمشي التفكير الجماعي في طريقه . وفي التفكير الجماعي من خصائص التفكير الفردي الحركة ، واختصار الطريق ، والنزاع الداخلي ، والحلول الوسطى ، والوقفات ، والإعادات ؛ والفرق بينهما أن المراحل المتعاقبة المشار إليها لا توجد في سلوك الفرد ، ولكن في السلوك المشترك لعدد من الأعضاء المساهمين في العمل الجماعي .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن جهات الاشتراك بين التفكير الفردي والتفكير الجماعي لا ترجع إلى مجرد كون الجماعة تتألف من أفراد تعلموا التفكير في عزلة والآن يفكرون معا . فواضح أن أشكال التفكير الفردي يحتمل أن تصب في قالب التفكير الجماعي ، وبالعكس . فإذا كان السلوك الفردي كلاما داخليا ، كما يقول أفلاطون ، فما يساوي ذلك في الصدق أن تفكير الجماعة كلام خارجي . وعندما يشترك الفرد في التفكير الجماعي لابد أن يصطبغ تفكيره الخاص بصبغة هذه التجربة الاجتماعية، وإذن يدخل الاتصال في النشاط الجماعي الهام ، على سبيل الفرض، بهذه الطرق الأربع الآتية : فقد يكون وسيلة لتذكر تجربة ماضية ، أو وسيلة للشعور

بالبيئة الحاضرة المباشرة ، أو وسيلة للتوقع والتخطيط ، أى توجيه النشاط المستقبل ، أو وسيلة للسلوك العملى فى النشاط الحالى . والاتصال إذا استعملنا الاصطلاحات النفسية وسيلة للتذكر الجماعى ، والشعور الجماعى بالبيئة ، والتخطيط الجماعى أى التفكير الجماعى الأكثر التصاقا بالطابع النظرى ، ثم التفكير الجماعى ذى الطابع العملى المباشر . ويظل الاتصال فى كل هذا وسيلة لإثارة الاشتهاء الجماعى والإبقاء عليه .

(٤)

فإذا اتجهنا إلى علماء الدراسات الشعبية ethnography للحصول على أدلة فعلية ، لاختبار الصورة الفرضية التى من هذا النوع ، فسنجد أن صورتنا ذات خطوط عامة صحيحة على وجه العموم ، وأن الاتصال الجماعى البدائى يختلف من جهتين عن الاتصال فى مجتمعاتنا اختلافا أقوى مما يفهم من عبارتنا . فالسلوك الإدراكى أولا ، يحتمل أن يكون أكثر قوة فى طبيعته الاشتهائية مما هو عندنا ، واللغة ثانيا ، يحتمل أن تلعب دوراً أقل أهمية من دور الأشكال الرمزية الصورية غير المنطوقة .

أما الوظائف الأربع للاتصال الجماعى التى أشرنا إليها آنفا ، وهى التذكر ، والشعور بالبيئة ، والتخطيط للمستقبل ، والتوجيه العملى المباشر ، فأوضحها فى الجماعة البدائية هو الأول . وثمة كثير من الأدلة على هذا . فالطقوس ، والعادات ، والحلى ، والزخارف ، كلها ترمز بطرقها المختلفة إلى تجارب أجداد الجماعة ، وتتعاون مع الأساطير والقصص التقليدية ، لتجعل من الممكن لهذه الجماعة ، أن تتذكر ماضيها . وعملية التذكر معقدة جدا ، كما أخبرنا كتاب مثل « هالبفاخس » و « بارتليت » فيقول « هالبفاخس » إن الذاكرة حتى عند الفرد تتأثر فى شكلها تبعا لتبادل المعلومات عن الماضى مع الآخرين ، على حين يبحث « بارتليت » بالملاحظة والتجربة كلتيهما ،

العوامل التي يحتمل أن تبدل الاتصال القوى فى أنماء رواية تقاليده ومرورها خلال الزمن [١] .

والذى يجب أن نعلمه هنا أن سلوكا من هذا النوع ـ أى روايةقصص الأحداث الغابرة ـ هو فى الحقيقة سلوك جماعى . وحين يقص إنسان حوادث جماعة ، يلعب السامعون والمتكلم أدوارهم فى تكييف القصة الناتجة التى تتوارثها الأجيال . وكما يقول « بارتليت » : « إن أية قصة ، أوسلسلةمن الأحداث ، تذكر فى حضرةالأعضاء الآخرين من نفس الجماعة ، وعلى مسمعهم ، تميل إلى أن تبدو فيها خصائص معينة ..... فثمة سيطرة اجتماعية من السامعين على القصاص ..... أمّا مالا جدال فيه ، فهو أن التذكر فى الجماعة تقع طريقته مباشرة تحت نفوذ الميول الجماعية المفضلة الدائمة » [٢] .

ومماله صلة وثيقةبهذه الوظيفة التذكرية فى الجماعة، الرواية التى تجمل فى استطاعة الجماعة أن تستكشف بيئتها الموغلة فى البعد ، وأن تتصل بما يحدث حولها ولا يدخل فى تجاربها المباشرة ؛ وأدلتنا هنا مرة أخرى من « بارتليت » ؛ فهو يصف عادات السوازى من قبائل البانتو : « إن الأخبار تنتقل بين السكان الوطنيين بسرعة عظيمة. وليس هناك أى نظام وطنى للإشارة وإرسالها ، ومع ذلك كلما تقابل متجولان على طريق أفضى كل منهما للآخر بكل ما فعله أخيراً أو رآه، أو علمه » [٣] . وبهذه الطريقة ـ طريقة تحكم العادة ـ وبلا شعور واضح بقيمة هذا تقريبا، تعمل الجماعة على أن تحافظ على صلتها بالبيئة القصوى وأن تختزن المعلومات التى ربما كان لها أثر هام بمرور الزمن على السلوك الجماعى .

---

(١) Halbwachs CM ; Bartlett R.

(٢) Bartlett R 265—7.

(٣) the same 255.

وحين يستعمل الاتصال بهاتين الطريقتين أي باعتباره وسيلة لتسجيل وتذكر الماضي الموغل في المضي ، وباعتباره وسيلة لاستكشاف الحاضر البعيد من الناحية المكانية ، يعمل في الحقيقة عمل « جهاز الاستقبال من مسافات بعيدة المدى » (distance-seceptor) ، من أجل الجماعة ويصبح الوسيلة الأساسية التي تستطيع الجماعة بها أن تتذكر ، والتي تشعر معها بما حولها . وإن الاتصال هنا تذكر جماعي ، وتفكير جماعي بدائي، لأننا في كل حالة من حالاته نجد صورة تتكون بتعاون أعضاء المجتمع ، وتعاملهم. إن نقل التقاليد أو أخبار الحاضر يتضمن نفوذ السامع على القائل ، وما يُسمع ويُنقل تعدله الطرق المألوفة للفكر والإحساس في الجماعة .

ويجب ألا ننسى الاشتهاء ؛ لأن تذكر الماضي واستكشاف الحاضر في المجتمع البدائي مملوءان بالانفعال والإرادة أكثر مما في المجتمع الحديث. وليس التذكر الجماعي أقل من التذكر الفردي من حيث اتصافه بالكبت ، والتشويه ، وتحقيق الرغبة . وربما لاتكون الوظيفة الرئيسية العملية في النقل البدائي للأخبار كما يشير «مالينوفسكي» هي نفس المعلومات المنقولة لذاتها ؛ فحين يقص إنسان الأخبار لآخر ربما يكون الأثر الأكبر هو خلق حالة توافق (rapport) ، واتصال ارتباطي phatic communication ، أكثر من أن يكون اتصالا إدراكيا [١] .

(٥)

أما الوظيفة الثالثة من وظائف الاتصال في المجتمع البدائي ، وهي كونه وسيلة لتوقع المستقبل لتخطيط العمل ، فلدينا بعض الأدلة عليها من أصحاب الدراسات الشعبية . فحين يصف « مالينوفسكي » أيضا الرحلة البحرية - Kula - عند سكان جزائر « تروبرياند » ، وهي نظام معقد للتبادل التجاري ، في مجموعة جزر غرب غينيا الجديدة ، يخبرنا أن هذه الرحلة تُسْبَقُ قبل أن يُبْدَأَ فيها بمناقشات مطولة . ولهذه

(١) Malinowski in Ogden MM 315

المناقشات طبيعة التذكير بالرحلات السابقة من ناحية ، وتوقع الرحلة التي ستبدأ من ناحية أخرى . » ويحدث عادة في مثل هذه الحالات أن توضع الخطط ، والتنبؤات ، قبل التاريخ التقريبي للإبحار بشهور ، وتذكر القصص عن الرحلات السابقة ، ويرجع المسنون إلى ذكرياتهم الخاصة ، فيخبرون بما أخبرهم به أسلافهم .... وهكذا يسبق الخيال كل حدود الاحتمال ، كما يحدث دائما حين يجرى الكلام عن أحداث المستقبل حول نار القرية ، وتنمو الآمال والاستبشارات شيئا فشيئا »[١] .

وواضح أيضا أن التوقع الجماعي للمستقبل ليس وسيلة للتبصر الإدراكي بقدر ما هو وسيلة لبعث الاشتهاء الجماعي والإبقاء عليه . فبالرغم من وجود بعض التخطيط الفعلي ، والتفكير الجماعي ، نجدهما يلعبان دوراً أقل في مناقشات سكان الجزيرة ، من الاستدعاء العاطفي للماضي ، والأمل الخيالي في المستقبل . لأن التفصيلات الفعلية في رحلة من رحلات الكولا لا يحددها هؤلاء الذين يشاركون فيها ، بقدر ما تحددها التقاليد . وهذه ، كما يؤكد « مالينوفسكي » ، أقوى من الدوافع الاقتصادية ، ومن قوة سلطة الزعيم . « فالقوة الحقيقية التي تضم هؤلاء الناس جميعا ، وتربط بعضهم ببعض في أعمالهم ، إنما هي طاعة العادات والتقاليد »[٢] .

وليست وظيفة المؤتمر الابتدائي من ثم هي التخطيط بقدر ما هي إعلاء العاطفة والرغبة في الجماعة ، بإحياء الماضي ، والتوقع الخيالي للمستقبل . وفي هذا السلوك التوقعي تبدو طبيعة التفكير الجماعي في صورته هذه اشتهائية . وهذا مثل آخر على سيطرة الإحساس والإرادة في الاتصال الجماعي في المجتمعات البدائية .

(٦)

وهذا صحيح أيضا بالنسبة للوظيفة الرابعة من وظائف الاتصال الجماعي في المجتمعات البدائية : وهي كون اللغة تؤثر في السلوك الذي تشغل الجماعة نفسها به فعلا . وأنواع

---

(١) Malinowski, AP, 148.

(٢) the same 58.

النشاط الحيوى فى الجماعات البدائية مصحوبة كقاعدة عامة بالطقوس،والاحتفالات، والرقص ، وهى وسائل لإعلاء الوجدان والنزوع فى الجماعة . وسوف يكون اللغة فى الغالب هذا الأثر أيضا بقدر المدى الذى تستعمل به، ويصف « لايارد » مثلا معركة بين السكان الوطنيين فى «ماليكولا» من جزر « الهبردز » وإن استعراض المعركة، وإجراءات القتال ، لتحددها العادات ، وحين تستعمل اللغة يكون لها فى الغالب وظيفة أخرى . « ولمدة تزيد على الساعة،يخطو الممثلون لكل جانب بالتبادل خطوة قصيرة إلى أمام طوائفهم ، ليصيحوا بالعدو ، محركين أجسامهم بقوة إلى هذه الناحية وتلك ، كما صب أحدهم الإهانات على الآخر مصحوبة بذكر الخصومات الحاضرة ، والملاقات الدقيقة فى خصومات الأجيال السابقة من السلف . وفى هذه الأثناء قد يرسل الطرفان بين حين وآخر دفعة مقذوفة من الأحجار . . . . . وقد تكون الصيحات فى بعض الأحيان جاذبة للانتباه ، حتى إن الطائفتين المختصمتين قد تتوقفان حتى عن الأعمال العدوانية ، وتتقدم إحداهما لتستمع إلى الأخرى ، مأخوذة حتى يدفعها تعبير جديد إلى الصياح باتهامات مضادة ، ويعود قذف الأحجار »[١].

هنا تلعب اللغة دوراً هاما فى السلوك الجماعى بالتأكيد ، ولكن وظيفتها الرئيسية ليست إدراكية ، وإنما هى لتوجيه السلوك وتنظيمه . ووظيفتها مرة أخرى اشتهائية ، تؤدى غرض التعبير عن الإحساس والرغبة وإثارتهما . وحين تثور الاستجابات الاشتهائية عند المشتركين ، يحدث ما لا يمكن إلا أن يسمى اشتباه جماعيا ، لأن نماذج الإحساس والرغبة تتشكل على حسب تبادل الأعمال والاستجابات فى الجماعة . ولا يمر أعضاء الجماعة بتجربة العاطفة والرغبة فحسب ، وإنما يعبرون عنهما كذلك ؛ وما يحس به كل إنسان ويريده يحدده الإحساس والإرادة عند هؤلاء الذين أثاروه ؛

---

(١) Layard SM 597.

ولـكن نماذج الاشتهاء التي تسود الجماعة لها علاقة بالإحساس والإرادة لدى الفرد المنعزل ، شبيهة بالعلاقة بين التفـكير الجماعي والتفـكير الفردي .

مثل هذه الحقائق مألوف في هذه الأيام ، في سيكولوجية الجماهير . أما ما يجب علينا أن نؤكده هنا ، فهو أنهـا حقائق تنتمي إلى علم النفس الجماعي . وهكذا اضطر « ميلر » و « دولارد » في تحليلهما الدقيق لسلوك الجمهور إلى خلق اصطلاح يدل على المثيرات التي يخضع لها أعضاء الجمهور ، ولا يجربونهـا في العزلة : « مثيرات الجمهور ... القوة الباعثة للمثيرات التي يسببها الأشخاص الآخرون من الجمهور »[1]. ويصبح كل عضو في الجمهور حين يستجيب لهذه المثيرات منبها للمثيرات بالنسبة للآخرين ، ومن هنا ينشأ النموذج المتشابك من المثيرات والاستجابات التي لا توجد إلا في الجماعات فحسب ، ولا توجد عند الشخص المنفرد بنفسه . وقد يكون في مثل هذه الحالات من الاشتهاء الجماعي، كما قال « مكدوجل » وآخرون ، بعض « الإثارة الاجتماعية » للانفعال دون استعمال الرموز ، أو بعض التليباثي telepathy[2] ؛ ولـكن من الواضح بصفة رئيسية أن الرموز في العادة واللغة بصفة خاصة ، سواء كانت في المجتمعات البدائية أو الحديثة ، تلعب دوراً هاما في إثارة السلوك الجماعي الاشتهائي والإبقاء عليه .

أما الوظائف الاشتهائية للغة ، فلا تنحصر في الناحية الطقوسية Ceremonial من سلوك الجماعة ، وإنمـا هي هامة كذلك على الأقل في السلوك العملي في الجماعات البدائيـة ، أي المناهج الجماعية . وبمـا أننا سنُعنَى بوظائف اللغة في المناهج العملية للجماعة في مجتمعاتنا ، فمن المفيد أن ننظر بالتفصيل في وظائفهـا في مناهج الجماعات البدائية .

---

(١) Miller SL 220.

(٢) يقول مكدوجل (Oo ١٥٥) إن التعبير عن الاشتهاء والاستجابة له عند الحيوانات غير الإنسان، بل حتى عند الإنسان، يرجعان إلى الغريزة : « وإن نبحة الكلب حين يثير أرنبا أو صيدا آخر قد جعلتها الطبيعة دعوة لزملائه إلى الحضور لمعونته » . For telepathy Carrington T. .

(٧)

ونحن بحاجة إلى مثال للنشاط الجماعى العملى ، وهو السلوك الذى يشترك فيه أعضاء الجماعة ، ليحصلوا على نتيجة عملية ذات أهمية حيوية بالنسبة إليهم ، حيث نتوقع أن نشهد إقبالا كاملا على إمكانيات المشتركين فى المناهج ، بما فيها استعمال الاتصال الرمزى ، لتنفيذ المناهج الجماعية التى تتطلب مهارة . والمثال الذى يحقق هذه المطالب هو تسجيل « مالينوفسكى » الدقيق لبناء القارب Canoe ، وإنزاله إلى الماء ، عند سكان جزر « تروبرياند » ، وهم جماعة بدائية فى تنظيمها الاجتماعى ، ليس لها لغة مكتوبة ؛ وهى محدودة فى حياتها الاقتصادية ، ولكن لها نظاما معقداً من التبادل البحرى يسمى السكولا ، وقد ذكر من قبل ؛ وبناء القارب وإنزاله إلى الماء فى نظرهم مشروع جماعى ، له أعمق الدلالات العملية والعاطفية .

ووصف « مالينوفسكى » لهذا العمل الجماعى من وقت إيقاع الشجرة ، حتى ينزلق القارب على سطح الماء الفسيح ، يبدو منه أن العمل ينفذ بنوعين مختلفين من النشاط . فثمة عمليات تتطلب مهارة فنية فائقة فى البناء ، والتأثيث ، والإنزال إلى الماء ، والزخرفة فى القارب ، ولكن كل مرحلة من هذه يسبقها طقس من الطقوس على هامش العمل ، أوضح مافيه تلاوة التعاويذ . ومن ثم نجد اللغة تتدخل هنا فى منهج جماعى ذى مهارة ، ولكن وظائفها مرة أخرى اشتهائية فى معظمها فهى لاتكاد تستعمل باعتبارها وسيلة لوصف العمل القائم ، ولالتنظيمه ، ولالتوجيهه .

وإن القارب لتبنيه جماعة من الناس ، بتوجيه خبير فى بناء القوارب ، بسلسلة من المناهج الماهرة التقليدية فى كل تفاصيلها . وثم قليل ، أولاشىء ، من التوجيه النطقى حين يقوم الناس بعملهم هذا . وذلك نشاط جماعى يمكن أن يقارن تماما بالعمل الذى يقوم به الأفراد من مهرة الصناع ، الذين لم تصبح بهم حاجة إلى أن يصفوا لأنفسهم ، أو يرمزوا إلى مايصنعون ؛ فالعمل إلى هنا قد يتم بلاهدْى لغوى .

بالنسبة لمن يلاحظ ملاحظة غير دقيقة ، قد يبدو نشاط الناس من نتاج الإحساس الخفي Intuition ، فكل رجل يقوم بقسطه من العمل كما لو كان يعلم ما يجب عليه عمله دون تعليم . وهذا وَهْمٌ بلاشك . حقيقة أنه لايكاد يكون هناك تعليم في هذه اللحظة ، إذ يتعلم الناس القيام بأدوارهم بالاشتراك في العمل مع الآخرين . ولكن من الواضح أنه ، لابد أن تكون التعليمات المنطوقة قد لعبت دوراً ما في تدريب خبير القوارب حين كان يتعلم صناعته ، ولو أنه اكتسب قدرته غالبا عن طريق التلمذة العملية . وكذلك قبل أن يُبْدَأ في العمل ربما تقوم مناقشة بين الخبير في البناء وبين المالك . ويصف « مالينوفسكي » المناقشات الإطنابية الطويلة التي تسبق رحلة الكولا [1] . ومن المحتمل أن مناقشات مشابهة تسبق بناء القارب . . .

وحتى لو اعترفنا بأن اللغة ربما لعبت دوراً ما ، في تنفيذ المناهج الجماعية العملية ، التي يتألف منها المشروع ، تبقى اختلافات هامة بين مثل هذا السلوك الجماعي وبين مناهجنا الجماعية . إن أعمالنا الجماعية في تدريبها المبدئي ، وفي تنفيذها العملي كليهما ، تمتزج امتزاجا أتمّ باللغة . وعندنا بعد هذا وصف مفصل لمناهجنا من تخصيصات ، وتخطيطات ، وتعليمات ، تصبح فيما بعد في متناول شعور الجماعة المشتغلة بالعمل ، وفي المجتمع جميعه كذلك .

ومما يؤكد هذه الاختلافات واحدٌ من استعمالات اللغة لم يعد شائعا في مجتمعاتنا؛ وذلك هو السحر . ويؤكد « مالينوفسكي » ـ وتلك نقطة في نهاية الأهمية ـ أن هذا ليس في جوهره إلا مسألة رُقًى منطوقة ، واستعمال كلمات . وثمة طقوس مصاحبة لذلك ولكن هذه في الحقيقة ليست إلاَّ وسيلة لتوجيه قوة الكلمات السحرية إلى القارب ونقلها إليه . « والرُّقْيَةُ أهم مايشتمل عليه السحر حتى الآن . . . . . إنها جزء السحر الذي يظل سريًّا ، ولا تعلمه إلا الدائرة الخاصة التي تزاوله . . . . . أما

---

(١) Malinowski, AP, 748

العقل manola وهو اصطلاح يوصف به الذكاء ، وقوة التمييز ، وطاقة تعلم الصيغ السحرية ، وكل أشكال القدرات غير اليدوية ، فوطنه الحنجرة» (١) . وواضح أن سكان « تروبرياند » من رأي السلوكيين .

ويخبرنا مالينوفسكي أن السكان الوطنيين يفهمون فهما تامًّا ، الوظائف المتتالية لمناهج المهارة العملية ، والسحر الذي يصحبها . « ويعتبر كلاهما ضروريا ؛ ولكن ينظر إليهما باعتبارهما مستقلين ، أي أن السكان الوطنيين يفهمون أن السحر مهما كان مؤثرا لا يستطيع أن يعوض نقص الصنعة الرديئة . فلكل منهما جهة ؛ فخبير القوارب بقدرته ومعرفته يجعل القارب ثابتا سريعا ، ولكن السحر يعطيه ثباتا وسرعة إضافيين » (٢) . فما العلاقة إذاً بين الرقية وبين العمل الذي يجري ؟

إن السحر نوع من الطاقة . ويخبرنا « مالينوفسكي » أنه ليس عملا من أعمال العبادة ، ولا وسيلة لتهدئة القوى الخارقة للطبيعة . وتجري الطقوس السحرية في معظمها هنا بطريقة مباشرة لا احتفال فيها ، ويبدو السحر بالنسبة للمراقب جزءاً من العملية الفنية ، مثاله مثل صبغ مقدَّم السفينة أو سد شقّ فيها ، وإن معظمه « ليجري بطريقة واقعية عملية ، ولا يبدو في شيء من سلوك الساحر ، ولا هؤلاء الذين يحيطون به مصادفة ، أن شيئا مثيرا يحدث في مجرى العمل » (٣) . وقد يؤدي الساحر بعض الطقوس البسيطة ، ولكن وظيفة هذه الطقوس كما قلنا هي نقل قوة الرقية ، وتوجيهها إلى القارب ، وإلى أنواع النشاط المختلفة التي تعتبر الرقية مركزها .

ويكمن السحر هكذا في الرقية ، وإن الإنسان ليستعين بالسحر على تسخير القوى الكامنة . وليست هذه القدرة مما اكتسبه الإنسان من القوى الخارقة للطبيعة ، أو مما كشف عنه من بين أسرار الطبيعة ، ولكنها مما خلفه الأسلاف

---

(١) the same 403.

(٢) the same 115.

(٣) Malinowski, AP, 142.

الأسطوريون فى الماضى البعيد ، إذ علّموا الناس كيف يبنون القوارب ، وكيف يتلون الرقى . وإن كلمات السحر التى نُطِقَ بها الآن تلخص الماضى التاريخى للقبيلة ، واصلة إياه بالحاضر ، ومتوقعة المستقبل فى نفس الوقت ، وذلك عن طريق التعبير عن رغبات كل المساهمين فى العمل أن تزدهر أعمالهم ، وأن يكون القارب ثابتا ، وقويا ، وسريعا ؛ وأن تكون كل رحلاته سعيدة الحظ [(١)] . فالسحر من ثم نطق اشتهائى ، يتذكر الماضى ، ويتوقع المستقبل ؛ وهو تعبير عن الإحساس ، والرغبة ، ولكنه شىء أكثر من مجرد التعبير ، لأن فيه قوة تعين على استحضار موضوع الرغبة .

وإن شرحنا للحقائق التى جاء بها « مالينوفسكى » لتؤيد ملاحظته القائلة إن الرقية ليست وسيلة للاتصال الجماعى ، وليست الوسط الذى يقول فيه إنسان شيئا لإنسان آخر . وتُنطق الكلمات فيها بصوت خافت ، فلا تكون معروفة ولا واضحة إلا بالنسبة للساحر . وتكمن القوة الاشتهائية فى معرفة كون الكلمات سحرا ، أما ما يعمله المساهمون فى الطقوس ، فهو العمل الرمزى الذى تنتقل الرقية به إلى موضوعها ، فيتكلم الساحر مثلا بالرقية ، إلى ورقة من شجرة الموز ، مربوطة حول نصل قدوم ، لينتقل صوته بعد ذلك مباشرة إلى مادة الأداة نفسها ، فيجعلها أكثر صلاحية . ويعلم المساهمون جميعا هذا ، وبينما هم جاهلون بالرقى نفسها ، يرون الطقوس الرمزية التى تصحبها ، وليست هذه رمزية نطقية ، ولكنها صورية ، لها وظيفة اشتهائية ، هى جعل الجماعة كجماعة شاعرة بإحساساتها ورغباتها ، ومن ثم تسمو بها وتوجهها إلى الغرض المطلوب .

ويجب أن نلاحظ أن اللغة لا تكون لها وظيفة إدراكية جماعية فى هذا النشاط الكبير الأهمية فى المجتمع البدائى ، أى فى المنهج الجماعى الفنى ؛ لأنها لا تؤدى وظيفة الوسيلة التى تشعر الجماعة عن طريقها بما تعمل ، ولا بتوجيه سلوكها الذى

---

(١) the same 400–1.

تؤديه كجماعة . إن مجرى المنهج الجماعي هنا تقليدى ، وثم إيحاء جماعى دائم لتنشيط المساهمين ، ولإثارة دوافعهم ، والسمو بها ، ويجرى هذا بصفة رئيسية عن طريق الرمزية الإيمائية الصورية غير النطقية ، وقد تدخل اللغة هنا فى صورة السحر ، وهو وسيلة إضافية لإثارة الاشتهاء الجماعى والابقاء عليه بواسطة استدعائها للتقاليد ، وبمعونة توقعها للمستقبل .

(٨)

إن انعدام هـذه الوظائف الإدراكية للغة يبدو أيضا فى النواحى العامة للسلوك الجماعى البدائى ؛ أى فى التنظيم الاجتماعى والسياسى العام فى الجماعة . فحيث يتحكم فى المجتمع الحديث تنظيم دقيق لانجد نظاما للعـادات فى المجتمع البدائى إلا نادرا ، مهما كانت هذهالعادات صارمة . ولا توجد قواعد عامة من أى نوع لنظام العادات؛ بل إن العادات نفسها هى التى تتوارث . ويخبرنا « مالينوفسكى » عن سكان جزر « تروبرياند » أن العادات والنظم فى الحياة القبلية عندهم « لاتنتظم فى قواعد أبدا » . فليس ثمة نظام من القوانين مكتوب ، أو معبر عنـه تعبيرا صريحا ، وإن تقـاليدهم القبلية كلها ، وبناء مجتمعهم جميعه ، لتستقر فى الكـائن الإنسـانى وهو أبعد المخلوقات عن الاطراد . ولـكن هذه القوانين لانجدها مُقَنَّنَة بصفة نهائية ، حتى فى العقل والذاكرة الإنسـانية . . . وإن الاطراد فى النظم الوطنية لنتيجة آلية لتفاعل القوى العقلية للتقاليد مع الظروف المادية للبيئة [1] .

وليس معنى هذا بالطبع أن التنظيم فى مثل هذا المجتمع البدائى مفـكك أوعديم الهدف . بل على العكس ، فربما يكون معقدا جدا ، ولـكنه يتماسك بسبب القوى الاشتهائية للتقاليد . وإحدى الخصائص الرئيسية فى المجتمعات البدائية كما يصفها

---

(١) Malinowski. AP. 11

أصحاب الدراسات الشعبية هي النجاح الفعل لطرقهم في الوصول إلى تكوين الاشتهاء الجاعي وتوجيهه . فالرقص والحفلات ، والطقوس ، والصور ، كلها كما يجب أن نشير إلى ذلك ، رموز صورية لا منطوقة ، تؤدى الغرض في خلق أعلى مستوى من التكوين لاشتهاء الجماعة ، وتوجُّهُ وجهة الطرق المألوفة للسلوك الجماعي .

ولكن إلى جانب هذا المستوى من تكوين الاشتهاء ، ثمة انعدام ملحوظ لتنظيم الدوافع الجاعية . بعكس الحال في مجتمعاتنا . ويؤكد « مالينوفسكي » هذه النقطة، وإن دوافع سكان جزر« تروبرياند » ربما اتضحت إلى درجة كافية للباحث الشعبي ethnographer ، وربما فطن إليها الخواص من أعضاء المجتمع، كالطبيب ، والساحر ، ورؤساء القبيلة ، ولكنها لا يرمز إليها في الاتصال اللغوى الجماعي . « وكل رجل يعرف مايتوقع منه بحكم مركزه، ويقوم بعمله ، سواء أكان معنى ذلك الحصول على ميزة ، أو أداء عمل أو الرضى بالحالة الراهنة »[١] .

(٩)

لا يمكن الغرض من هذا العرض لسلوك بعض الجماعات البدائية أن نحاول استخلاص نتائج عن السلوك الجماعي في عمومه ، بل بعكس هذا أن نوجه الانتباه إلى الحقائق التي في السلوك المقابل في مجتمعاتنا . وواضح أن الوظائف الإدراكية للغة في المجتمعات البدائية مثل مجتمع سكان « ترو بريآند » أقل كثيرا في تقدمها مما هي عندنا . إن الجماعة البدائية قلما تستعمل اللغة أو ربما لا تستعملها أبدا باعتبارها وسيلة لمراقبة ماضى سلوكها. ويمكن أن نقول إن الجماعة هنا تشتغل بالتذكر الجماعي ، والتصور الجماعي ممزوجين دائما بالإحساس الجماعي، والرغبة الجماعية، ولكنها لا تكاد أبدا تشتغل بالتفكير الجماعي. وهناك انعدام للصياغة النطقية الجماعية في تذكر الماضي، والكشف

---

(١) the same 158—9.

على العكس من ذلك يؤثر أقوى تأثير على سلوكه الحاضر ، ولـكن استمرار الماضى فى الحاضر ، إنمـا يكون فى صورة عادات تحددها التقاليد . فيؤثر الماضى فى الحاضر بطريق العادات الجماعية ، أكثر مما يؤثر بالذكريات الجماعية المحددة .

ولهـذا الوضع فى الحقيقة شبه كبير بالتمييز الذى قال به برجسون فى الذاكرة الفردية ، أى الاختلاف بين « الذاكرة الصريحة » و « ذاكرة العـادة » . أما فى ذاكرة العادة فإن التجارب الماضية للفرد تشتمل عليها عاداته الحاضرة ، ولا يستطاع القول بأنه يتذكر هـذه التجارب الماضية إلا بقدر مايشعر بها فحسب ، أى بقدر مايذكرها بالذاكرة الصريحة ، أو بعبارتنا نحن ، بالقدر الذى يستطيع به أن يرمز إلى هذا الماضى ، ولا شك أن للمجتمع البـدائى فى عاداته ، وطقوسه ، واحتفالاته ، ومناهجه الفنية التقليدية ، طرقا يحددها الماضى . وعنده كذلك بعض التذكر للماضى ، ولـكن هذا التذكر إذا رُمز إليه بالنحت ، والرسم ، والآثار الأخرى ، أو إذا حدث أن رُمز إليه باللغة فـكانت إلى حد كبير لغة منطوقة تصويرية ،أصبح تذكر الجماعة محدودا ومشوها . وتؤدى اللغة المنطوقة وظيفتها بهذه الطريقة ، لأن الرواية الشفوية للتقاليد لابد أن تجنح إلى الصبغة التصويرية ، كما أوضح لنا « بارتليت » ، وذلك لتبرز لنا النواحى التى تتفق مع الميول الاشتهائية الغالبة فى المجتمع .

إن الذاكرة الجماعية فى المجتمع البدائى يحتمل ، لهذا السبب ، أن تـكون لاشعورية أو دون الشعورية ، ولا تـكون شعورية إلا إلى درجة محـدودة . وإذا لم يكن عند الجماعة رمزية محددة إلى ماضيها أصبحت ذاكرتها لاشعورية بالنسبة إلى الماضى ، بالرغم من أن هذا الماضى ذو أثر فى تشكيل سلوكها الحاضر . وتـكون الجماعة غير شاعرة بماضيها إذا كانت تذكره بطريقة مشوهة ، محجبة برموز صورية ، ولو أنه يمكن للتذكر مع هذا أن يوضَّح ، ويُجعَل أكثر ضبطا ، بالوصف المنطوق.

ولا يمكن أن يقال إن للجماعة ذاكرة جماعية شعورية إلا حين تتم الجماعة وصف تاريخها ، ببحث الآثار ، والخرافات ، والتقاليد ثم تفسيرها .

ولهذا السبب يتناسب مدى الشعور بالماضى فى كل جماعة تناسبا طرديا مع طبيعة الاتصال اللغوى الذى فى متناولها . وحيث تكون لغة التذكر صورية جدا . لا يمكن أن يوجد أكثر من الخرافة ، أما اللغة التجريدية ، وفيها وسائل التحليل والتركيب فتزيد من إمكان التذكر المضبوط . واللغة المكتوبة هى التى تخلق الظروف المناسبة للشعور الجماعى بالماضى شعوراً مضبوطاً شاملا .

ويجب أن نفرق فى كل هذا بوضوح بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية ، من حيث الاتصال بماضى الجماعة . فربما شعر فرد أو هيئة فى كل مجتمع بماضى هذا المجتمع دون أن يكون هناك وصف تاريخى له ، ودون أن يكون هناك أية ذاكرة جماعية شعورية بهذا الماضى الاجتماعى فى مجموعه . ويغلب صدق ذلك فى الحقيقة على المجتمع البدائى . ويستطيع قوم مختارون مُعَيَّنُون ، كالمُطَبِّبِينَ والسَّحَرَةِ ، وإلى درجة أقل من ذلك المهرة فى إدارة المناهج الجماعية ، أن يضعوا وصفا كلاميا لأقسام من تاريخ المجتمع . وهم إلى هذا الحد شاعرون بالماضى ، على حين يكون لبقية المجتمع ذاكرة لاشعورية به ، أو دون الشعورية ، وستكون الذاكرة العامة Collective memory فى الجماعة باختصار من طبيعة ذاكرة العادة ، ما دام السلوك فى الجماعة محصوراً فى المجرى التقليدى . وتبدأ فى صيرورتها تذكرا حقيقيا حين يضاف إلى ذلك بعض الرموز الصورية للماضى فى شكل طقوس وآثار وخرافات . وينمو التذكر الحقيقى فيكون أكثر وضوحاً حين يوجد التحليل والتركيب للماضى فى صورة تاريخ كلامى ، أما تطوره الأتمّ والأضبط ، فيتوقف على إمكان وجود تاريخ مكتوب ذى تفاصيل دقيقة .

(٢)

إن طبيعة الأداة اللغوية فى كل واحد من حقول الرمز الجماعى الأخرى المذكورة آنفا ، وهى : الكشف عن البعيد من جهة المسافة ، وتوقع المستقبل ، وتوجيه النشاط الحاضر ، تنعكس كذلك فى مدى الشعور الجماعى .

وقد رأينا مثلا كيف يتم الرمز بين أفراد قبيلة السوازى إلى ما بعدت مسافته بواسطة نقل الأخبار شفهيا . وتعد هذه الجماعة ، إذا ووزنت بجماعة أخرى ليس بها هذا النظام ، ذات وسيلة تُحَدِّدُ تحديدا دقيقا ما بَعُدَ من بيئتها ، ولها عند هذا الحد شعور مضبوط بهذا البعد . ولكننا إذا قارنا هذه الجماعة من جهة أخرى بمجتمعاتنا الحديثة ، فيكون واضحا أنه عند انعدام اللغة المكتوبة يظل الشعور الجماعى بالبيئة محدودا ، وعرضة للزوال والتشويه الصورى ؛ و يستطيع المرء أن يتصور كمثال متطرف لهذا صورة مجتمع يوضع شعوره ببيئته الموغلة فى البعد فى وسط من الرموز غير الكلامية فحسب . فلا يكاد مثلا أن يكون هناك شك فى أن نقل الأخبار بواسطة الأنواع المختلفة من الطبول فى بعض المجتمعات البدائية لا يكشف عن كثير من المعلومات المضبوطة ، مع كونه وسيلة قوية لإثارة الإحساس ، وجعل الجماعة فى حالة استعداد . وإن المجتمع الذى ليس لديه وسيلة أخرى للرمز إلى بيئته القصوى لا يكاد يكون له وعى جماعى بهذه البيئة . و باختصار ، يرتبط اللاشعور ، أو مادون الشعور ، أو الشعور بالبيئة المسافية عند الجماعة ارتباطا وثيقا بطبيعة أداة الاتصال الجماعى التى فى متناول الجماعة والتى ترمز إلى البيئة .

أما فى الوظيفة الثالثة — وهى الوظيفة التوقعية للاتصال الجماعى — فلا بد أيضاً أن يكون الإدراك الجماعى محدوداً ، بسبب انعدام اللغة المكتوبة ، وغلبة الرمز الصورى فى لغة الكلام . لأنه كما رأينا فى حالة سكان جزر « تروبرياند » حيث تكون تفاصيل المنهج الجماعى محددة عن طريق العادات ، وحيث يكون ثمة وصف

دقيق نوعا ما للظروف المألوفة ، لايوجد مجال للتخطيط التوقعى ، لمجابهة الظروف غير المألوفة . وإن المؤتمر الذى يعقده هؤلاء البدائيون قبل مشروع هام ليكون تذكرا لما هو معروف من تجارب الماضى ، ومعه إعداد اشتهائى تام كامل من أجل المشروع. وفى مقابل ذلك فى المجتمع الحديث ، يهدف التخطيط لمشروع هام إلى القيام بتحليل وتركيب للظروف الممكنة مع كونه كذلك اشتهائيا إلى درجة قوية . ومن ثم تحدث محاولة لإدراك المستقبل .

وأخيراً ــ ونتيجةً لكل هذا ــ نرى من المحتمل تطابق محدوديات الاتصال الجماعى فى أثناء النشاط مع محدوديات الشعور الجماعى بالمناهج . وقد رأينا دلالات على هذا فى حالة الحرب بين رجال « الماليكولا » ؛ وفى حالة مشروع اقتصادى كبناء قارب عند سكان « تروبرياند » ؛ وفى حالة التنظيم السياسى والاجتماعى العام فى هذا المجتمع الأخير . وفى الحالات التى تتحدد فيها تفاصيل المناهج الحربية والاقتصادية والسياسية بواسطة العادات ، تميل الجماعة إلى عدم الشعور بالتنظيم والتوجيه وطريق التنفيذ فى مناهجها الجماعية ، أو إلى أن تكون دون الشاعرة بها على أحسن احتمال . وفى نفس الوقت تميل إلى أن تكون غير شاعرة ببعض النواحى الاشتهائية فى سلوكها وبالأخص الحوافز الحقيقية التى تختبىء وراء النواحى الاشتهائية .

وكل هذه الخصائص المقررة فى المجتمعات البدائية تجعل بعض الحقائق المطابقة فى مجتمعاتنا الحديثة تبدو فى إطار أوضح ، فنجد هنا فى مجتمعاتنا الحديثة أن ثمة ميْلاً دائما لجعل الشعور الجماعى ذا أثر فى السلوك الجماعى كله ، وفى كل من النواحى الإدراكية والاشتهائية . وسيتبين لنا أن آثار هذه التطورات فى الشعور الجماعى فى المجتمعات الحديثة غير متساوية على أى حال . فهناك ترابط متزايد فى المجتمع من جهة القيام بالمناهج الجماعية الاقتصادية والعسكرية والسياسية . أما من جهة الاشتهاء

الاجتماعي فإن الأثر المباشر، الذي هو زيادة الشعور الجماعي ، أصبح يتمثل في صورة زيادة التفكك في المجتمع، والاحتمال الأكبر للنزاع . ولإظهار الدلالات التامة لهذه العبارات سوف نبحث بالتفصيل حالات من المناهج الجماعية والاشتباه الجماعي .

(٣)

إن المناهج الجماعية في المجتمعات البدائية تنفذ في حالاتها المثالية كما رأينا ، دون توجيه مباشر ، عن طريق الاتصال الجماعي. دعنا ننظر في مثال آخر حتى نرى العلاقة بين انعدام الاتصال هذا و بين شعور الجماعة بمناهجها .

يصف لنا «ريفرز» كيف تُدِيرُ جماعة الرجال قاربا في جزر سليمان، مع التوفيق بين أعمالهم توفيقا تاما ، دون معونة الكلام فيقول : « وكلما ذهبنا إلى الشاطيء أبحر بنا خمسة من البحارة في قارب لصيد الحوت ، فجعل أربعة منهم يجدفون ، وأمسك الخامس بالدفة ، وكلما أعلنا عن عزمنا على الذهاب إلى الشاطيء انفصل خمسة من البحارة في الحال عن البقية ، لإدارة القارب ، فيذهب أحدهم إلى الدفة ، و يذهب الآخرون إلى مقاعد التجديف الأربعة . ولم يكن ثمة في أي مرة علامة اختلاف ، أو شك : في أي أفراد السفينة يجب أن يذهب لإدارة القارب ، كما لم يكن ثمة أي تردد في أيهم يمسك بالدفة . . . . ومن الممكن أن يكون هناك تفاهم من نوع ما عَيَّنَ البحَارةُ أنفُسَهم بحسبه من يتعهدون بالأعمال المختلفة ، ولكننا لم نستطع أن نكشف عن أي دليل على مثل هذا الترتيب »[١] .

فكيف نفسر هذا ؟ وهل ثمة ما يشبهه في مجتمعاتنا الحديثة ؟ إن ريفرز نفسه يشير إلى مَثَلٍ شبيه بهذا فيقول : « إن أي ميلانيزي Melanesian يراقب حركة المرور في طرقات مدينة انجليزية كبرى سيندهش كثيرا لمرور الناس على الرصيف ، مروراً تُفَسِّرُ ندرة الاصطدام فيه بالإحساس الخفي عند كلٍّ بحركات الآخرين »[٢] .

---

(١) Rivers I U 95

(٢) the same 95

وقد يبدو أن ريفرز يقصد أنه يوجد فى السلوك الذى من هـذا النوع كثير من دقة التـكييف الاجتماعى ، الذى يصبح كل فرد من أفراد الجماعة بمقتضاه له إحساس خفى بنوايا الآخرين ، حتى إن الجميع يتصرفون بانسجام . أما فى حالة الميلانيزيين فيخيل إلى ريفرز أن التـكييف بالإحساس الخفى مظهر من مظاهر الغريزة « إذا استعملنا كلمة الغريزة استعمالا دقيقا وقد كثر استعمالها الخاطىء » ، أى إذا استعملناها كما يستعملها « مكدوجل » ويقصد منها السلوك المحدد بالفطرة . و « ريفرز » مستعد فى الحقيقة لأن يرى أنه حتى فى المهمات المعقدة ربما يرجع أىُّ عمل جماعى تعاونى كإدارة القارب إلى الغريزة الجماعية .

ولـكننا حتى لو أخذنا الحالة الشبيهة التى يقترحها هو ـ أى سلوك المدنيين فى الطريق ـ نجدها فى بُعْدِهَا عن أن تـكون غريزية هى من أوضح الأمثلة على السلوك التَّعَوُّدِىّ الذى هو نتيجة للتدريب الطويل . فإنها عادة جماعيـة ماهرة شبيهة بعادة من عادات المهارة فى الفرد . وإن الرجل الذى يكتسب عادة ماهرة كما رأينا ليصير إلى الإقلال بالتدريج من الاعتماد على الرموز الـكلامية ، باعتبارها عونا له على تذكر الحركات المختلفة التى يتكون منها العمل ، وعلى القيام بها ، حتى تؤدى العادة غرضها أخيراً خير أداء ، دون حاجة إلى توسط اللغة أبداً . ويبدو فى السلوك الجماعى التَّعَوُّدى اتجاه إلى التطور شبيه بهذا . فالمدنيون يكيفون حركاتهم فى طريق مزدحم تـكييفا قديرا ، لأنهم تعلموا وهم أطفال صغار كيف يسلـكون طرقهم بين الجمهرة المتصادمة. وقد أصبح ذلك عادة جماعية مركبة يؤدى كل عضو دوره فيها بلا خطأ ، دون أن يضطر إلى الـكلام عنها ، ودون حاجة إلى تعليمات ؛ أى بدون اتصال جماعى . ومن المؤكد أن الاتصال قد لعب دوره حين كانت العادة فى دور التـكوين ، أما بعد أن تثبت العادة ، فإنها تؤدى غرضها تماما دون أى اتصال .

فهل نحن بحاجة إلى أن نفرض أن الأشياء تحدث بطريقة مخالفة جدًّا فى ماليزيا ؟ ويبدأ الصغار فى جزر سليمان فى الالتحاق برحلات القوارب بلا شك ، ويتعلمون

مجرى السلوك الجماعى كله ، أما من هو الذى يدير القارب ، ومن هو الذى يمسك الدفة ، فسيصبح مسألة روتين . ولكن من الصعب أن نعتقد أن عملية التدريب تتم كلها دون كلمات .

إن النقطة الهامة ليست إذاً أن السلوك الذى لا يقترن باللغة فى جزر سليمان غريزى ، على حين يرجع سلوكنا إلى التدريب ؛ فى كلتا الحالتين نجد أن مجرى المنهج الجماعى نتيجة للتدريب . ولكن هناك اختلافات تستحق التسجيل . فالسلوك الذى لا يقترن باللغة عندنا أقل بكثير مما عندهم ، ومناهجنا فى عملية التدريب أكثر اعتماداً على اللغة مما عندهم ، وحين تستقر مناهجنا تصبح أكثر احتمالاً لان تغزوها اللغة . خذ مثال « ريفرز » مرة أخرى ؛ فحالما تصبح حركة المرور فى الطرقات مزدحمة ومعقدة ، تتطلب معونة الاتصال ، ويصبح من الضرورى وجود رموز من أنواع متعددة ، منها الكلمات . ومع وجود السيارات فى الطريق لا يمكن التعاون بالاحساس المجرد بين المشاة ، وركاب الدراجات ، وسائق السيارات ، وكذا نخترع نظاماً متشابكاً من الأضواء ، والإشارات ، والعلامات التوجيهية ، ورجال البوليس . حتى إن الماشى أو السائق الذى يعتمد على إحساسه الخفى ، أو على دقة التكييف الاجتماعى دون أن يعنى بالأضواء والإشارات ، قد يمضى قدماً ولكن فى طريقه إلى عالم السماء !!!

وواضح أن اللغة فى المجتمع الحديث وثيقة الصلة بكل شكل من السلوك الجماعى . وعندنا فى الحقيقة أشكال من السلوك لا تلعب اللغة فيها إلا دوراً لا يكاد يذكر ، ولكننا نلاحظ كذلك أن هذه الأشكال ما هى إلا أنواع سلوكية تدريبية جدا ، ودقيقة التنظيم ، خاصة ببعض الجماعات الصغيرة . وحتى فى هذه الحالات التى تنعدم اللغة فيها نسبيا تكثر وسائل الرمز الأخرى . وإن لعبة كرة القدم مثلا تبدو أشبه بالمثال الذى ساقه « ريفرز » عن قارب صيد الحوت ، إذ هى شكل منظم ، ودقيق جدا

من أشكال السلوك الجماعى ، مع انسجام فى العمل التعاونى ، والتكييف الاجتماعى الدقيق . وربما تم لعبها مع الصمت النسبى ، من غير اتصال لفظى كثير . ولكن لاحظ صيحات اللاعبين ،واعتراضات الحكام ، وتشاور كل مجموعة قبل اللعب، وفى منتصف الوقت ، و بطريقة الرموز غير اللغوية كالخطوط التى على الأرض ، وكأعلام زوايا الملعب .

إن كل الأمثلة للعمل الجماعى التى يصاحبه أقل قدر ممكن من اللغة فى مجتمعاتنا تميل إلى أن تكون من هذا النوع ، فهى تعاون منظم للغاية ، فى جماعة صغيرة مدربة جدا ، تقوم بعمل خاص . وحالما ننتقل إلى ما وراء هذه القدرات الجماعية المحدودة نسبيا ـ أى القدرات التى تقوم بها مجموعات خاصة فى المجتمع ـ أى حالما نصل إلى السلوك الاجتماعى فيما يتصل بتصرف المجتمع وبحروبه ، تصبح الاختلافات بين المجتمعات الحديثة والبدائية أكثر وضوحا . فإن مناهجنا الحكومية تمدّنية فى جوهرها ، وتجرى بواسطة الصياغات الواضحة للمناقشات ، أما فى المجتمعات البدائية كما علمنا،فربما ابتعدت المجالس فى الغالب عن الصياغات الواضحة التى من هذا النوع . فعندنا لجان ، ومجالس ، و برلمان ، وهو هيئة لا يكاد اسمها يُذَكِّر بالصمت [1] ، واسم الموظف الرئيس فيه Speaker ، وأعماله كلمات لا أفعال . ولكن « ريفرز » يخبرنا أنه « ليس ثمة تصويت فى المجالس التى يعقدها سكان هذه الجزر وليس ثمة أية وسيلة أخرى للتعبير عن رأى الهيئة . . . وحين وجد المراقب الإنجليزى بعد زمن أن الناس كانوا يناقشون موضوعات مختلفة اختلافا كليا ، واستفهم عن وقت إقدامهم على اتخاذ قرار فى المسألة التى كان مهتما بها ، أخبروه أنهم وصلوا فيها إلى قرار وأنهم تعدّوها إلى مناقشات أخرى . . . . فقد أصبح أعضاء المجلس شاعرين عند نقطة معينة بأنهم متفقون ، فلم يكن من الضرورى أن ينبهوا إلى هذا الاتفاق تنبيها

---

(١) Parliamentparler

ظاهرا »[١]. وهكذا لا تحتاج القرارات الناتجة عن مناقشات فى المجتمعات البدائية إلى أن توضع فى شكل عبارة لغوية .

هذه الاختلافات بين المجتمعات البدائية ومجتمعاتنا تعنى اختلافات هامة أكثر وضوحا فى الشعور الجماعى . وإن الاتصال فى داخل المجتمع الحديث فيما يخص مناهجه الجماعية يعنى أن أعضاء المجتمع « يفكرون معا » فى هذه المناهج . وازدياد الاتصال اللغوى فى المجتمع الحديث ازدياد فى التخطيط الجماعى ، والسيطرة على المهام الجماعية ، ويؤدى هذا إلى مستوى عال من الترابط العملى .

(٤)

ولكننا حين نصل إلى الشعور الجماعى بالاشتهاء تختلف الحالة ؛ فالمجتمع الحديث بلا شك أكثر شعوراً من المجتمع البدائى بعملية إثارة الاشتهاء والإبقاء عليه ، لأن المجتمع الحديث يحدد دوافعه لنفسه . ومع هذا لا تؤدى الدرجة الكبرى من الشعور بالاشتهاء الجماعى ، كما سنوضح ذلك ، إلى درجة كبرى من الترابط الاشتهائى ، بل إلى زيادة التفكك والنزاع ، فالمجتمع البدائى لا الحديث هو الذى يترابط ترابطا قويا بالاشتهاء .

دعنا ننظر أولا إلى طبيعة الاشتهاء الجماعى ، حتى تتضح الموازنة . إن تكوين الإحساس فى الجماعة كما أشرنا من قبل غير مقصور على إثارة الإحساس فى الأعضاء ، كما قد يبدو من افتراض وجود « تعاطف سلبى بدائى » ، أو «تيليبائى» . وإن الحقيقة البسيطة هى أننا لسنا فى وضع يمكننا من أن نقول ما إذا كان التعبير مثلا عن الغضب يثير الغضب فى الآخرين أو لا يثيره . أما الواضح على أى حال فهو هذا :

---

(١) Rivers 1U 95.

حين تثير الرموز السلوك الاشتهائى للجماعة وتبقيه ، وتوجهه ليوصل إلى ترابط أتم ، لا يحدث هـذا باستنباط نفس الشعور ، أو إثارته فى كل عضو من أعضائهـا ، بل بتشابك استجاباتهم الاشتهائية للرموز ، واستجابة كل منهم للآخرين . وكما يتحرك الإدراك الجماعى ، ويتطور فى الجماعة ، بالمعارضة والموافقة ، تـكون الحال فى الاشتهاء الجماعى ، إذ هناك تفاعل وشركة فى الاستجابات . وتصبح الرموز والاستجابات لها هى ما سماه « ميلر » و « دولارد » « مثيرات الجمهور »[١] . وفوق ذلك يجب أن تتذكر دائما أن الاشتهاء والإدراك ليسا أكثر من جهتين من نفس السلوك العقلى . وإن تداخل الاستجابة والمثيرات يشتمل على الاشتهاء والإدراك كليهما .

ويبدو الآن أن ثمة نتيجتين فى الجماعة البدائيـة ، حيث تـكون اللغة التى تثير الاشتهاء صورية غالبا ، وحيث يوجـد قليل من تنظيم السلوك الاشتهائى . وأولاهما أن قوة إثارة الاشتهاء ترى مختفية فى الـكلمات نفسها ، وثانيتهما أن الانتباه يبتعد عن الدوافع الحقيقية التى تدفع الجماعة إلى سلوكها .

ونقول فى إيضاح النقطة الأولى إن الاعتقاد فى تأثير أية عبارة فى نظر سكان جزائر تروبرياند « يكمن فى الخصائص المتعددة للـكلمات التى عبر بهـا عنها من جهة المعنى والصوت . والوطنى فى هذه الجزر مقتنع اقتناعا عميقا بأسرار بعض الـكلمات ، والقوى الداخلية فيها ، إذ يعتقد أنها لها قوة فى ذاتها ، إن صح هـذا التعبير ، لأنها وجدت منذ العصور الأولى ولا تزال ذات نفوذ مباشر »[٢] . وهذه الجماعة أكثر استجابة لأصوات الـكلمات وأشكالها منها لأى معنى يمكن أن تؤديه هذه الـكلمات . ويصف « مالينوفسكى » جماعة من الوطنيين ينتظرون زيارة قوم من جزيرة أخرى يتغنون

---

(١) See above

(٢) Malinowski, AF, 451.

بسحرهم حين كانت القوارب تقترب من الشاطئ . يعرف « الدو بوا نيون » أن قوى جبارة تسيطر بعملها عليهم ، ولابد أن يحسوا موجة النفوذ السحرى متقدمة ببطء ، منتشرة فوق قوامهم . . . . إنهم يستطيعون تخمين معنى التمتمة من الأصوات الكثيرة . . . ويعلمون ما يتوقع منهم فينهضون للمناسبة . أما من ناحية القادمين فإن هذا السحر ، وغناء الأصوات الكثيرة ، ممزوجا بأصوات النفخ فى الأصداف ، يعبر عن آمالهم ورغباتهم ، وانفعالهم المتزايد [١] .

وسيعلم الوطنيون بالطبع أن إحساساتهم قد أثارتها الكلمات التى سمعوها تنطق ، ولكن أى واحد منهم ، إذا سئل عن هذا كيف حدث ، فسوف يجيب أنه حدث لأن الكلمات فيها قوى سحرية . وهذا صحيح من الناحية العملية ، لأن الكلمات السحرية تصبح مؤثرة فى مجتمع يعتقد أنها ذات أثر سحرى . وثمة بالإضافة إلى هذا إمدادٌ قوى لهذا الاعتقاد ، يأتى من الميراث الاجتماعى . فلقد فُرضت القوى السحرية لبعض الكلمات على الفرد الذى نما فى هذا المجتمع . ويخبرنا « مالينوفسكى » أن الرقية تجعل السحر يؤثر على الأعمال التى يراد القيام بها بتذكر الأصل القديم للقوة السحرية الراقية . ويقول إنه بهذه الطريقة يكون السحر « حلقة اتصال بين الحقائق الخرافية والعملية » [٢] . وللكلمات السحرية قوة اشتهائية ، لأنها تصل حاضر الجماعة بماضيها الخرافى . وتشعر الجماعة حين تشتغل بمشروع ما بضعفها ، وعدم أمنها فى مواجهة القوى المجهولة ، أو ربما القوى المعادية فى بيئتها ، فيجلب لها السحر إحساسا بالأمن ، يمنحه إياها الاعتقاد فى القوى الخارقة ، ومهارة الأسلاف فى ماضيهم البطولى .

ومعنى هذا أيضا أن الجماعة لا تشعر بالمنابع الاشتهائية العميقة فى سلوكها ؛ فهناك انعدام شعور الجماعة بالدوافع الجماعية ، إذ يصبح الدافع الأول هو قوة

---

(١) the same 345.

(٢) Malinowski, AP. 328

التقاليد والعادات . وهكذا إذا استفهم غريب ، كباحث الدراسات الشعبية مثلا عن سبب عمل هذه الأشياء فى الجماعة فلن يكون هناك جواب وراء قولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» . « إن الوطنيين يطيعون قوى النظام القبلى وأوامره ، ولكنهم لا يفهمونها ، كما يطيعون غرائزهم تماما ولكنهم لا يستطيعون وضع قانون واحد فى علم النفس . . . . ولا يستطيع الوطنى أن يخرج من محيطه القبلى ويراه رؤية موضوعية ، وحتى لو استطاع ، فسوف لا يجد الوسائل العقلية واللغوية الكافية للتعبير عنه »[١] . وإن الباحث فى الدراسات الشعبية هو الذى يتأمل ويلاحظ ملاحظة خارجية ، « فيكشف عن ظواهر الطبيعة الإنسانية التى ظلت فى مجموعها مختفية حتى عن هؤلاء الذين حدثت بينهم »[٢] . وبعبارة أخرى يتحرك السلوك الجماعى فى المجتمع بدوافع هى دوافع جماعية بلا شك من حيث كونها نتيجة إثارة وتفاعل فى داخل الجماعة . ولكن هذه الدوافع لا يعبر عنها فى الاتصال الجماعى ، حتى إنه لا يوجد إلا القليل من الشعور بهذه الدوافع لدى الجماعة .

وحين ننتقل من مجتمع بدائى كهذا إلى مجتمعاتنا المتحضرة الحديثة لن نجد هناك اختلافاً أوضح من هذا ؛ ويتجه الانتباه فى المجتمعات الحديثة دائما إلى طبيعة الاتصال ، ومن ثم إلى العلاقة بين اللغة وبين آثارها فى الاشتباه الجماعى ، وثمة تحليل دائم ومناقشة مستمرة لقوة الإذاعة والصحافة ، ومن ثم تكون الجماعة شاعرة بعمل رموزها الجماعية . وإلى جانب هذا ، وكنتيجة جزئية له ، هناك نقاش دائم ، ومن ثم شعور متزايد ، حول الدوافع الجماعية . ولكن من المهم أن نعترف بأن هذا بعيد أن يكون شعوراً شاملا . وتؤثر الأضواء المسلطة من الشعور الجماعى فى الدوافع لدى الجماعة بطريقة لا تسمح إلا بوجود بعضها ، أو جزء من هذا البعض ، فى متناول الجماعة ،

---

(١) the same 12-454

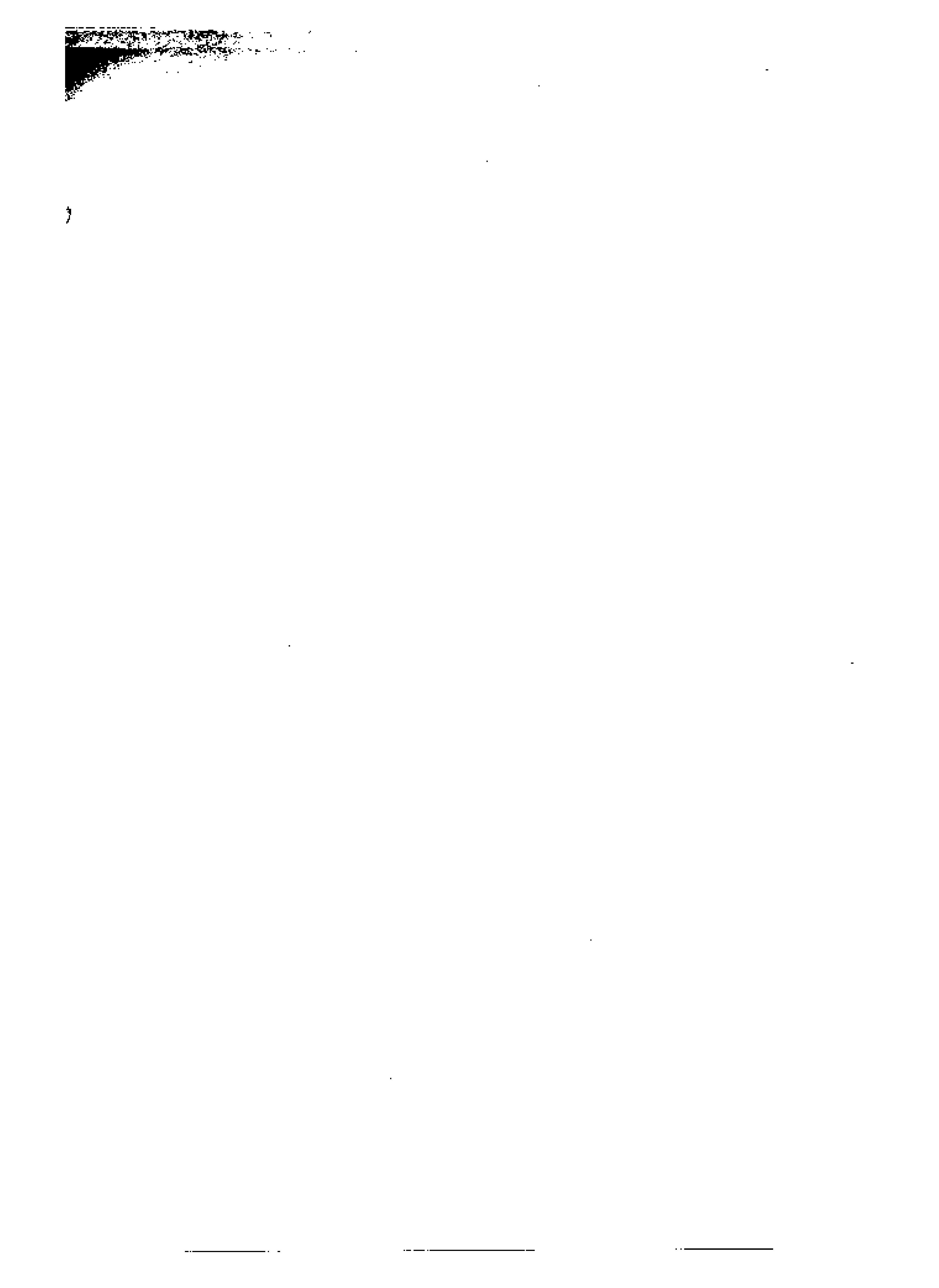
(٢) the same 397

إن هذا الشعور الجزئي مصحوبا بالشعور المتزايد بالعلاقة بين الرموز الجماعية والاشتباه الجماعي ، هو الذي يميل إلى خلق التفكك الاشتباهي في المجتمعات الحديثة .

وسوف ننظر في الفصول التالية في آثار الاتصال اللغوي المتزايد ، ومن ثم في آثار الشعور الجماعي ، في المناهج الجماعية والاشتباه الجماعي ، سواء في الأعمال الاقتصادية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، في مجتمعاتنا الحديثة .

القسم الثالث

اللغة في المجتمعات الحديثة



الفصل السابع

اللغة في الصناعة والحرب

(١)

إن نمو المهارة الجماعية ليعدُّ إحدى الخصائص الرئيسية للمجتمعات الحديثة . ولقد قال «لويس ممفورد » في كتابه الطرق الفنية والحضارة (Technics and Civilization) إن ظهور الآلة وحلولها محل الفرد ، لتَغَيُّرٌ يستلزم تغيرا مشابها في السلوك الجماعي ، هو تحول الجماعة المفككة النظام إلى جماعة آلية وثيقة العرى . وبدل أن يقوم الصانع على كيره ، أو نوله ، أو دولابه ، وهو يعمل منفردا ، أو بالتعاون مع صناع آخرين قامت جماعة من الصناع والآلات ، تعمل متساندة لإنجاز مهمة خاصة . وهذه المجموعات الآلية تصبح أكبر فأكبر ، حتى إن مهمة خاصة واحدة ربما تطلبت جُهداً منسقا تنسيقا شاملا دقيقا يصبح المصنع الضخم فيه وحدة من الوحدات .

وهذا النوع من العمل الجمعي لاتصطبغ به الصناعة الحديثة فحسب ، وإنما يصطبغ به العملان الرئيسيان في المجتمع ، هما الحرب ، والسياسة . وفي كل من هذه الحقول الثلاثة ــ الاقتصادي ، والعسكري ، والسياسي ــ تبتكر المناهج الفنية الجماعية وتنمو من أجل العمل الجماعي الضروري لصالح المجتمع .

وتحليلات ممفورد للمناهج الجماعية الصناعية مترابطة مفصلة ، ولكن ثمة نقطة وحيدة لم يؤكدها هو ، ولا كثير من علماء الاجتماع الآخرين : فاللغة من بين المناهج

الجماعية قاطبة تشغل مكانا خاصا، إذ هي المنهج الذي يقف وراء كل المناهج الأخرى. وإن اللغة الجماعية لهي الشرط الجوهري للعمل الجماعي . و إذا كان نمو الاتصال اللغوي مدينا إلى حد كبير للآلات ، فمن المؤكد صحة القول بأن الآلات مدينة بكل شيء لنمو الاتصال . وإن « المجموعات الآلية » التي تتكون من رجال يعملون على الآلات لايمكن أن تؤدي وظيفتها إلا بفضل الاتصال اللغوي الذي يربط مابين أعضائها . وهَمُّنا هنا أن نلاحظ العلاقة بين هذا المنهج اللغوي من مناهج الاتصال ، و بين المناهج الجماعية الأخرى .

وثمة طرق ثلاث ممكنة في المنهج الجماعي ، يمكن أن تنظم الجماعات على أساسها، من أجل القيام بسلوكها . تلك هي التوزيع والتخصص في العمل ، وآلية الوظيفة . وتوجيه المنهج الجماعي ، بواسطة الشعور الجماعي . وهذه الأشكال الثلاثة للأداء ربما تبدو بوضوح خاص في تاريخ الصناعة ، حيث تظهر في صورة مراحل ثلاث متعاقبة من التنظيم الجماعي . والنموذج العام في التطور هو : أولا توزيع العمل باعتباره وسيلة لضمان درجة عليا من الكفاءة ، عن طريق التخصص ؛ ثم ثانيا الآلية المترتبة على ذلك في المناهج ، وأخيرا تقاص الآلية لصالح الشعور المتزايد لدى الجماعة بمناهجها .

وفي كل من هذه المراحل الثلاث يصبح الاتصال اللغوي وسيلة أساسية ، تصير المناهج الجماعية بها عند هذا الحد ممكنة . وفي المرحلة الأولى يمكن إلى حد كبير بواسطة اللغة أن يوضع تخطيط لتوزيع العمل ويُبَصَّرَ كل عضو من الجماعة بوظيفته الخاصة في المهمة الجماعية . وربما كان لدى كل عامل شعور بهذه المهمة الجماعية في مجموعها ، ولو أن ذلك لايكاد يكون ضروريا لكفايته في أداء عمله الخاص و يناسب هذا البناء البسيط للتنظيم الاجتماعي أن يكون نمط الاتصال الجماعي بسيطا كذلك . وربما كانت الكلمة المنطوقة كافية بمفردها ، أو أن درجة معينة من معرفة القراءة

والكتابة تصبح ضرورية . حيث يكون العمل الجماعى أكثر تعقدا ، ولو أن تلك الحاجة بالنسبة لمعظم العمال ليس من الضرورى أن تتعدى مبادىء القراءة والكتابة والحساب .

وتصبح الجماعة نفسها أشبه بالآلة ، حين تصل إلى المرحلة الثانية ، أى مرحلة الآلية فى المناهج وحين تظهر الآلات ، فهنالك ينعدم شعور الفرد العامل بتفاصيل عمله ، الذى تقوم الآلة به من أجله ، كما تنعدم معرفته بالمهمة الجماعية فى مجموعها . وثمة تغيرات مشابهة فى وظيفة الاتصال اللغوى . فمن جهة تصبح مهمة الفرد العامل عديمة الصلة باللغة نسبيا ، على حين تصبح المهمة الجماعية من السعة والتداخل بالنسبة إليه بدرجة لاتجعله قادراً على التعبير عنها بالكلمات ، ليصل إلى معرفة واضحة بتركيبها. إن الذى يدير الآلة الآن لايحتاج إلى استعمال اللغة فى عمله بالقدر الذى كان لدى سلفه الماهر فى المرحلة الأولى عند توزيع العمل . ومن جهة أخرى تزداد الحاجة إلى الإشراف كلما نمت الآلية ، لأن العامل حين تصبح مهمته آلية يفقد قدرته على تكييف موقفه فى الظروف الشاذة . وإن تبعة التصرف والتغيير لتتحول إلى المراقبين . وهكذاتؤدى آلية المناهج عندالكثرةفىالنهاية إلى شعور القلة شعوراً كاملا بهذه المناهج ،أماالأيدى العاملة ، فتقوم بعملها دون حاجة كبيرة إلى الشعور ، على حين لايكاد الرؤساء يفعلون شيئا سوى الإشراف ، وتنسيق العمل . وهكذا تعمل الأيدى بدون تفكير ، وتفكر الرءوس بدون عمل .

وتتجه وظيفة الاتصال اللغوىفىهذه المرحلة الثانيةوجهةأخرى . فيصبح الحصول على درجة عليا من القراءة والكتابة أمرا جوهريا بالنسبة إلى الصفوة القائمة على الإدارة . على حين لايحتاج معظم الجمهرة العاملة إلا إلى أقل قدر منها يجعل فى طوقهم أن يطيعوا التعليمات . وسوف يزداد عدد الرؤساء ، ويرتفع مستوى التعلم بالنسبة إليهم . ويؤدى هذا إلى ضمان جعل القدرة العامة على القراءة والكتابة

ترتفع إلى مستوى مقبول فى المجتمع الذى يُسمح فيه لبعض الرؤساء أن يرتقوا من بين صفوف العمال .

وأخيرا ، حين تصبح المناهج الجماعية أكبر وأكثر تفصيلا وتعقدا ، نرى ضرورة وجود تكييف وتنسيق أدق فى المنهج الجماعى تسبب ظهور المرحلة الثالثة ، حيث نرى الكثير من الطبقة العاملة يطلب إليهم أن يفكروا فى عملهم المشترك ، باعتباره كلا مُوَحَّداً . ومعنى هذا بالنسبة إلى جمهرة الناس ضرورة وجود درجة أعلى من معرفة القراءة والكتابة ، ويصبح من المتوقع من عدد متزايد منهم أن يكتسب بعض المعارف الفنية فى حقل من حقول المنهج الجماعى أوسع من مهمته الشخصية . وإلى جانب هذا نرى بعض الوظائف الإشرافية تهبط من مراكز التوجيه إلى الأيدى التى تقوم بالعمل . وبعبارة أخرى يتسع الاتصال وينمو فيما بين الجماعة العاملة ، فيتزايد تعقيد العمل الجماعى .

وهكذا نرى من خلال التغيرات الطارئة على مدى الاتصال الجماعى وتطوره تغيرات مطابقة فى مدى الشعور الجماعى وتطوره . أما فى المرحلة الأولى ، فإن كل عضو فى الجماعة يكون شاعرا بمهمته الخاصة حتى يمكن أن يتعاون مع البقية . وربما يكون ثمة بعض الشعور الفردى بالمنهج الجماعى فى عمومه . ومع نمو التعقيد فى المهمة الجماعية ، وصيرورتها إلى الآلية فى المرحلة الثانية ، ينعدم الشعور فى الأفراد الأعضاء فى الجماعة ، ويتركز فى مراكز قليلة للتوجيه ، أى المراقبين والمديرين ، حتى إن بعض العمال فى الحالات القصوى ينعدم لديهم كل توجيه شعورى حتى لمهمتهم الخاصة . أما فى المرحلة الثالثة ، فإن الشعور يميل مرة أخرى إلى أن يوجد لدى كل الأعضاء فى الجماعة ، متطلبا من كل منهم شيئا من المعرفة بالمنهج الجماعى . وقلما يكون ثمة شعور لدى الجماعة بكل تفاصيل المنهج الجماعى ، بل إن من المحتمل أن يكون هناك تخصص فى وظيفة التفكير مع تكامل غير تام بين تفكير الهيئات وتفكير الجماعة

كلها . ومع هـذا ، يبدأ ينمو هذه المرحلة الثالثة إمكان الشعور لدى الجماعة بالمنهج الجماعى المركب .

ولقد وصفنا إلى هذا الحد تموذج المراحل الثلاث فى التغيير بعبارات عامة جدا ، وننتقل الآن إلى ملاحظة هذه المراحل الثلاث فى الصورة الفعلية التى تحدث بها فى الصناعة والحروب فى عهدنا الحديث .

(٢)

كان آدم سميث هو الذى اهتدى إلى صياغة التعبير « توزيع العمل » فى مبدأ الثورة الصناعية ليصف به تنظيم المنهج الجماعى ، ليحل محل المناهج الفردية التقليدية . ويجب أن يوصف هـذا وصفا أطول وأدق ، بأنه التخصص فى تـكامل العمل فى الجماعة . وكلا هذين نتيجة حتمية بالطبع حينما كان هناك نمو فى المناهج الجماعية مهما كان بدائيا ، فثمة مثلا تخصص ، وتـكامل فى المهمات ، فى المثال الذى جاء به « ريفرز » ، يقص قصة سكان الجزيرة الخمسة الذين أداروا قارب صيد الحوت . ولـكن توزيع العمل الخاص بالثورة الصناعية ليس زيادة فى دقة التخصص ومـداه فحسب ، ولـكنه أيضا جعل الآلات تحل محل الفرد ، وهذا هو التغيير الحاسم .

والمثال الـكلاسيكى الذى جاء به آدم سميث يظهر هـذه الظواهر الثلاث فى توزيع العمل بـكل وضوح ، وهى التخصص ، والتـكامل فى العمل ، واستعمال الآلة . وكان الصانع المفرد فى الماضى ربما جَهِدَ فى صناعة دبوس .أما الآن فإن « رجلا واحدا يسحب السلك ، وآخر يقيمه ، وثالثا يقطعه ، ورابعاً يُذَبِّبُ طرفه ، وخامسا يسحجه فى قمته لتركيب الرأس ؛ أما صناعة الرأس فبحاجة إلى عمليتين متمايزتين أو ثلاث : فوضعها على الدبوس عمل خاص ، وتبييض الدبابيس عمل آخر ، وغالبا

مايـكون وضع الدبابيس فى الورق صناعة قائمة بذاتها . والعمل المهم فى صناعة الدبوس موزع بهذه الطريقة إلى مايقرب من ثمانى عشرة عملية مختلفة » (١) .

وهنا توزيع وتخصص فى العمل بلا شك ، ولـكن هذا وحده لا يـكوّن منهجا جماعيا . فمن غير تـكامل مهام التخصص لتـكوّن مهمة موحدة ، لاتساوى العملية كلها دبوسا واحدا . ويؤكد آدم سميث فوق ذلك أن النتيجة الحتمية لهذا التخصص هى اختراع الآلة لتحل محل الـكثير من المهمات المتخصصة المعينة ، وبعبارة أخرى ، النتيجة هى التحول إلى الطابع الآلى .

فما علاقة الاتصال اللغوى بهذا التنظيم فى المنهج الجماعى ؟ إن مما يمـكن تصوره فى أبعـد الفروض ، أن الصانع ربما تعلم أن يصنع دبوسا بالتقليد فحـسب ، دون أن ينطق أحد بـكلمة ، ولـكن مع توزيع العمل فى المنهج الجماعى ، يصبح بعض اللغة ضروريا . ولـكون العمل فى التخصص غير كامل ، وله من ثم معنى أقل من العمل الـكامل ، يجب أن تلقى التعليمات إلى العامل المفرد ؛ فأما المراقبون فيجب أن يكونوا قادرين على إلقاء التعليمات ، وأما العمال فيجب أن يـكونوا قادرين على فهمها .

وهـكذا جاءنا التعبير الأول فى تطور المناهج الصناعية الجماعية ـ تعبير « توزيع العمل » ـ بضرورة زيادة قليلة ولـكنها ملحوظة فى القدرة الإدراكية ، وربما كانت هذه القدرة منصبة على الـكلمة المنطوقة ، أو ربما امتدت إلى القراءة والـكتابة . فبدل اكتساب المهنة بالاشتراك اليومى الطويل فى مجرى العمل فى الحقل ، أو الـكير ، أو البيت ، ترى ضرورة أن يتعلم العامل هنا مهمته المتخصصة بطريق معونة الـكلمات ، التى إما أن تـكون مسموعة منطوقة ، أو ربما كانت مقروءة مكتوبة .

---

(١) Smith WN bk. 1 ch i.

والعامل لا يزال صانعا حتى هـذه المرحلة ، وليست الآلات التى يستخدمها إلا أدوات لمعونته فى صناعته ، ولاتزال مهمته تتطلب شيئا من المهارة ، فهى أبعد ماتكون عن الآلية التامة . وربمـا كانت قدرة العامل على وصف مهمته الخاصة ذات قيمة ، من حيث تجعل فى استطاعته أن يعدل من إجراءاته فى حدود الوظيفة المتخصصة الموكولة إليه فى توزيع العمل .

وتتحول الصناعة بتطور الآلات إلى مرحلتها الثانية ، وهى الآلية الخاصة فى المنهج الفردى والمنهج الجماعى كليهما . وبعد نشر كتاب The Wealth of Nations منذ نصف قرن ، أشار « أندروأور » وهو المدافع المتحمس عن نظام المصنع ، إلى أن توزيع العمل قد حلت محله تعطية العمل equalization ، أى أن تخصص الوظيفة قد جنح بالعمل إلى الآلية . وكان الهدف الأساسى لنظام المصنع فى ذلك الوقت « أن يُدَرَّبَ الناسُ على التخلى عن العادات غير المتكاملة فى العمل ، وأن يدخلوا فى الاطراد الذى لايتخلف للآلة المركبة . . . . وحين كتب آدم سميث عناصره الاقتصادية الخالدة ، حين لم تكد الآلات الأوتوماتيكية تكون معروفة ، ربمـا وصل إلى اعتبار توزيع العمل مبدأ كبيرا من مبادىء تحسين الصناعة . . . . ولكن ما كان فى أيام الدكتور سميث موضوعا للإيضاح النافع لايمكن أن يستخدم الآن بهذه الصورة دون المخاطرة بتضليل عقل الجمهور فيا يختص بالمبدأ الصحيح لحرفة الصناعة ، وفى الحقيقة إن توزيع العمل ، أو لعله تكييف العمل بالنسبة لقدرات العمال ، قلما يكون محل تفكير فى التوظيف فى المصنع . وعلى العكس من ذلك ، كلما تطلبت عملية ما ، مهارة خاصة ، وثبات يد ، أبعدت بأقصى سرعة ممكنة عن العامل الماكر ، المعتاد على مختلف أنواع الشذوذ ، ووضعت تحت عناية تركيب ميكانيكى ذاتى الضبط ، يمكن أن يشرف عليه طفل » . [1]

---

(١) Ure PM 15, 19.

إن وضع الآلة موضع الصانع من أجل تحويل المنهج الجماعى إلى منهج آلى ، لتصبح الجماعة جماعة آلية ، تسل بضبط دقيق مسبب عن الآلة ، قد أصبح كما يقول « أور » مثلا أعلى فى نظام المصنع . ومن الواضح الآن أن وجود الصانع الذكى صاحب النظرة الفاحصة فى مهمته ، وحسن التصرف فى محاولة تعديلها ، أصبح عقبة كبرى فى طريق مجرى العمل فى الجماعة الآلية . ويقول « أور » : « يحدث بسبب الضعف فى الطبيعة الإنسانية أنه كلما ازداد العامل مهارة أصبح عرضة لاستقلال الإرادة ، وشدة المراس ، وأصبح بالطبع أقل صلاحية لأن يكون عضوا فى نظام آلى يمكن بشذوذه عنه بين حين وآخر أن يتسبب فى تلف عظيم فى النظام كله . إن الهدف العظيم لصاحب المصنع الآن هو أن يجعل مهمة العمال عنده باتحاد رأس المال والعلم ، مقصورة على اليقظة وخفة اليد » . (١)

وكلما كان العامل أقل مهارة كان أحسن . وفى هذه المرحلة من مراحل التطور الصناعى لا توجد بالتأكيد ضرورة لزيادة القارئين الكاتبين فى طبقات العمال . وإذا لزم أى تغيير فليكن إنقاص القراءة والكتابة ؛ فالآن « أكبر هدف لصاحب المصنع الحديث » أن يحول الصانع إلى آلة ، ولو لم يكن هناك عامل آخر فى تطور هذه المرحلة الثانية ، هو زيادة ضخامة الوحدة العاملة ، فكما حل الكثيرون محل العامل الواحد فى المرحلة الأولى حلت الورشات الكثيرة محل الورشة الواحدة ، والمصانع الكثيرة محل المصنع الواحد فى هذه المرحلة ، وكل ذلك يعمل معا لينتج سلعة واحدة . وهنا يشمل المنهج الجماعى نظاما واسعا معقدا ؛ فبدلا من مركز واحد من مراكز التوجيه ، ترى تعددا فى هذه المراكز . وبدل المراقب الواحد تجد عددا من المراقبين . وإذ تصير مهمة العامل الواحد أبسط وأكثر آلية ، تصبح المهمة الجماعية فى مجموعها أكثر تعقيدا ، ويصبح على هؤلاء الذين يوجهونها أن يكونوا على

(١) Ure PM 21

درجة كبرى من النظرة الفاحصة . ويصبح العامل شيئا فشيئا آلة مشرفة على آلة ، ليس له قدرة على الابتكار ، وينحصر عمله فى منع أى شىء يعطل العمل المنتج الذى تؤديه الآلة . وبهذا نصل إلى الحد الأقصى من الاستغناء عن الشعور الفردى فى أداء العمل ، ويصبح القائم على الآلة غير شاعر بسير العملية ، لأن هذه العملية قد تحولت الآن إلى جهة أخرى هى الآلة .

وحيث لايكون بالعامل حاجة إلى اللغة فى أداء واجبه الفردى ، يصبح بحاجة أقوى إليها من أجل فهم تعليمات المراقب وطاعتها . ويجب أن يكون العامل أكثر تهيؤا لفهم الكلمة المنطوقة والاستجابة إليها . وحين يتخذ موضعا له فى اقتصاد يتطلب تعقده زيادة فى استعمال الكلمة المكتوبة ، يصير واجبا عليه أن يكتسب ولو أقل قدر من القراءة والكتابة.وأخيرا ثمة حاجة عظيمة إلى عدد كبير من المراقبين والمشرفين ، الذين يجب أن يحصلوا على درجة من القراءة والكتابة تتناسب مع مكانتهم العليا . ومعنى هذا هو التوسع فى الإعداد المستوى الذى يمكن أن يختاروا منه .

وهكذا نصل إلى عصر التعليم الابتدائى العام ، والتعليم الثانوى لمن يستوفون الشروط . ويصبح من الضرورى أن تكون الأمة فى مجموعها على درجة من القراءة والكتابة عميقة بحيث تتيح لنا فرصة اختيار مايقرب من عشرة فى المائة للتعليم الثانوى ويصبح عدد المختارين محصوراً بدقة فى هذه الحدود ، عن طريق اختبارات موضوعة بعناية . وفى بريطانيا فى العقدين الأولين من هذا القرن مثلا ، وضعت طريقة للاختيار ، بحيث تقدم للمدارس الثانوية مايقرب من نصف مليون طفل من مجموع أطفال المدارس البالغ مايقرب من عشرة أمثال هذا العدد .

أما اليوم فإننا نجد حركة بطيئة ، ولكنها ملحوظة فى اتجاه المرحلة الثالثة . فثمة حاجة متزايدة للتوسع فى التربية الفنية لكل من يشتغل بالصناعة ، حاجة إلى أن

يكون من واجب كل عامل ، مهما كان العمل الذى يؤديه محدودا وآليا ، أن يعرف القراءة والكتابة معرفة تامة فى حقل أوسع مما يتطلبه عمله منفردا . ومن الواضح الآن أن التكامل التام فى المنهج الجماعى فى الصناعة يتطلب شيئا من الشعور من الجماعة بمهمتها. ويجب أن يكون ثمة منهج للاتصال اللغوى فى سائر الجماعة ، يتناسب فى مدى تعقده مع المناهج الصناعية فيها .

واتخذ هذا الفهم فى بريطانيا شكل الحاجة إلى تعليم ثانوى للجميع ، وهو مطلب بدأ يصل إلى الآذان حالما وجد نظام الاختيار على حسب النسبة تقريبا . ولم تتم محاولة إجابة هـذا المطلب إجابة عمليـة ، إلا حين ظهر قانون ١٩٤٤ . وألغى نظام النسبة الخاصة بين التلاميذ رسميا ، وأعطى كل طفل حقه فى التعليم الثانوى الذى يتناسب « مع إستعداد سنه ومقدرته » .

ومن المهم أن نلاحظ أن التوسع فى القراءة والكتابة ليس أثرا من آثار المرحلة الثالثة من مراحل المنهج الصناعى فحسب ، ولكنه أيضا شرط ضرورى لتطوره . وإن التوسع والتكامل فى الصناعة لايتوقفان على الظروف الاقتصادية وحدها ، بل من الضرورى أيضا وجود اتصال لغوى ذى تعقد مناسب . ويشير « ممفورد » إلى أنه قبل ظهور التليفون نما حجم الوحدات الصناعية بلا شك ، ولكن كفاءتها لم تسابق هذا النمو . بل على العكس من ذلك أصبحت هـذه الوحدات « متأثرة بالتضخم ، حيث نما حجمها وتجمعت معا ، دون أن تحاول خلق تعادل بين الحجم والكفاءة . ونتج هـذا جزئيا عن النظام المعيب للاتصال ، الذى سبق ظهور التليفون ، فكان من ذلك حصر الإدارة ذات الكفاءة فى وحدة صناعية واحدة ، وجعل من الصعب أن تتفرق الوحدات المختلفة » (١) . والاتصال المحقق للهدف بالاختصار شرط أساسى

---

(١) Mumford TC, 224.

لتطور المنهج الجماعى تطوراً ناجحا . وقد أصبح من الممكن الوصول إلى تكامل حساس فعلى للمناهج الصناعية فى المجتمع ، لوجود نظام اتصال كامل التطور .

(٣)

أما اليوم ،فى المجتمعات التى فيها تطور جديد فى التنظيم الصناعى ، فإن الاتصال الجماعى من ثم يبدو فى صورة المنهج الذى لا يستغنى عنه . وقد صارت الثورة اللغوية جزءاً من الثورة الصناعية . وأول خطوة فى سبيل التطور بالصناعة يجب أن تكون هى التوسع فى تعليم القراءة والكتابة . وإن هناك محاولة فى أفريقيا فى هذه اللحظة مثلا لإنشاء مناهج تعاونية فى الزراعة ، وأول خطوة فى هذا الاتجاه كما يرونها هى تعميم القراءة والكتابة ، وإن اللجنة الاستشارية التى تألفت فى وزارة المستعمرات ، لدراسة تعليم العامة فى أفريقيا (١٩٤٣) تقول : « لقد عملنا فى المستعمرات البريطانية إلى هذه اللحظة مع افتراض أن الجمهور فى النهاية سيتقبل الطرق الحديثة للزراعة ..... دون أن يتعلم القراءة أو الكتابة » ويستطردون إلى أن كل الدلائل تدل على عدم جدوى هذا الفرض . لأن تعليم الكبار القراءة والكتابة هو الضرورة الأولى لتنظيم المجتمع من أجل تحسين مناهج المعيشة ، وكل تعليم للقراءة والكتابة يجب أن يتجه إلى هذه المناهج . « أما النصوص المستعملة فى تعليم القراءة والكتابة ، فيجب أن ترتبط بحاجات الجمهور ، ومواضع اهتمامه ، كما يجب أن تساعد على تنبيه رغباته فى تحسين الظروف التى يعيش فيها والسيطرة عليها » (١) .

وهذا صحيح فى جميع حالات التعقد فى نواحى الصناعة . فلا يمكن لمجتمع أن ينظم اليوم بحيث يستغل موارده الاقتصادية استغلالا تاما إلا على أساس تعميم القراءة والكتابة ، وهذه القدرة على القراءة والكتابة يجب ألا تشملهما

---

(١) Report pp. 14, 17

فحسب ، بل أن تشمل الاستماع والكلام كذلك ، بعد أن تطورت وسائل الاتصال الكلامى .

وإن الاتحاد السوفييتى هو الذى يعطينا فى هذه اللحظة صورة مفصله لتحقيق كل هذا ، ولتطبيقه العملى المباشر . فهنا يوجد إسراع عظيم فى التصنيع ، فى الوقت الذى بدأت الثورة اللغوية فيه تهيئ الوسائل لاتصال واسع متشابك ، وقد شملت السرعة المراحل الثلاث للتنظيم الصناعى ، وقَصَّرَتْ أَمَدَهَا فجعلتها مرحلة واحدة . وإن المجتمعات الروسية التى كانت تعمل قبل الثورة بأقل قدر من التوزيع والتخصص فى العمل قد طلب إليها حينئذ أن تؤدى مناهج جماعية فى فترة واحدة ، مع شعور جماعى كامل بها .

ويصف « مينارد » فى The Russian Peasant (١٩٤٢) تلك التغيرات اللغوية التى صحبت تصنيع الزراعة . وقد فهم الناس مرة واحدة أن القراءة والكتابة أول شرط من شروط النجاح فى الزراعة التعاونية الحديثة ، ففى جمهرة القرى المنعزلة فى نواحى الأراضى الزراعية فى الاتحاد السوفييتى كان كبار الفلاحين وصغارهم يهيمون فى اكتساب الكلمة المكتوبة ، واتسع فى نفس الوقت صبغ الحقول بالصبغة الآلية عن طريق استخدام الجرارات . ولكن الحقيقة التى تستحق التسجيل أن محطات الجرارات لم تكن محطات آلية فحسب ، بل تحولت إلى مراكز تعليمية بالتدريج . ففى أثناء تعلم العمال كيفية استخدام الآلات ، يتعلمون كيف يحيون فى العالم الحديث ، فتقدم إليهم الوسائل التى يشرفون بها على أعمالهم الخاصة ، ولدى كل جماعة شعور مطرد النمو بمنهجها . وكما يقول « إبشتاين » Epstein ، وهو المتحدث الرسمى عن أهداف التربية السوفييتية : إن هدفنا أن نخرج « رجالا يسيطرون تماما على المنهج الفنى فى عملهم . . . . ومن ثم نتقدم بالدولة السوفييتية إلى مكان أقرب إلى

العهد العظيم الذى ينمحى فيه الحد الفاصل فى النهاية بين العمل العقلى ، والعمل العضوى » . [١]

وبهذه الطريقة تركزت المراحل التطورية الثلاث فى زحف متناسق على جبهة واحدة : فتوزيع العمل ، ووصفه بالصيغة الآلية ، وبدء الشعور الجماعى تكاتفت جنبا إلى جنب ، حتى إن القدرة على القراءة والكتابة اللازمة للمرحلة الأولى أصبحت أساسا للقدرة التى أكبر منها ، الضرورية للمرحلة الثالثة .

وهذه القدرة تشمل الكلمة المنطوقة كما تشمل الكلمة المكتوبة ، فنى الأقاليم السهلية فى سيبريا ، حيث يصعب السفر تتم المقابلة بين الملاحظين للحقول الجماعية فى صورة مناقشات بالراديو أو بالتليفون . وتصف السيدة « سيما ألان » فى كتابها « رفاق ومواطنون » Comrades and Citizens « اجتماعا » للمشرفين على الحقول فتقول : « وقد وجدت ناتاشين [المدير السياسى فى بلاَقْسْكْ] جالسا أمام الميكروفون ، فى حجرته الصغيرة للإذاعة ، فى مبنى سنترال التليفون . لقد كان يستعرض كل المشرفين على الحقول — ولكنهم كانوا جميعا يجلسون بدفء إلى تليفوناتهم فى القرى المبعثرة على مسافات بعيدة على السهل المتجمد . لقد كانت إذاعة تستعمل فيها أدوات الراديو وشبكة التليفون ، وكان فى استطاعة كل مستمع أن يتحدث إلى بلاقسك وفى استطاعة كل أن يسمع ما يقوله الآخرون » [٢] .

فتطور المناهج الجماعية هنا فى الاتحاد السوفييتى فى الزراعة والصناعة قد تقدم إذاً بسرعة ، لأن القادة سرعان ما فهموا ضرورة تهيئة نظام مناسب للاتصال الجماعى لهذه المناهج الجماعية .

وواضح أن الاتصال اللغوى والمناهج الاقتصادية متساندان . فنى العالم الحديث

---

(١) Year Book of Education, London, 1937, 786.

(٢) Allan CC, 173.

لم يتحقق التوسع فى التعليم النطق والكتابى من أجل وجود الوسائل المادية كالمدارس والصحافة والإذاعة فحسب ، بل إنه تحقق كذلك لعدم إمكان الاستغناء عن الصورة المتطورة للاتصال اللغوى ، من أجل أن تؤدى المناهج الاقتصادية الحديثة غرضها وتنمو اللغة الجماعية فى المناهج ، لأنهما متكاملان تكاملا تاما . والمناهج متكاملة فى نفس الوقت من أجل تطور اللغة الجماعية ، فهذه المناهج تؤدى وظيفتها مع قسط متزايد من الشعور الجماعى .

ولا يمكن أن نوفى القدر الذى نريده من تأكيد أن الشعور الجماعى متزاوج مع اللغة تزاوجا لا انفصام له . وكما يكون الحال فى الشعور الفردى ، يعمل الشعور هنا عن طريق الرموز ، وبها ، سواء أكانت هذه الرموز منطوقة أم غير منطوقة ، وهكذا يعمل الشعور الجماعى بالرموز الجماعية ، وعن طريقها . والوسائل المادية للاتصال فى الجماعة تهيىء شبكة يعمل الاتصال الرمزى بها وخلالها . وتجعل هذه الشبكة المادية الرموز الجماعية أمرا ممكنا ، ويؤدى هذا بدوره إلى ميلاد العقل الجماعى .

(٤)

إن تاريخ الحرب لتبدو فيه هذه المراحل الثلاث فى تطور المناهج الجماعية ، كما بدت فى تاريخ الصناعة : تخصص الوظيفة ، تتبعه الصيرورة إلى الصبغة الآلية التى يلتج منها الشعور لدى الجماعة بالمنهج الجماعى ؛ وثمة جهات اختلاف بالطبع ؛ فالمنهج الجماعى فى الصناعة بدعة حديثة ، ولكن القتال أقدم مهنة من مهن الإنسان ، حتى إننا كلما وجدنا الحرب حتى فى المجتمعات البدائية ، وجدناها موضوعة فى صورة منهج جماعى ، مهما كان من النوع البدائى . فيخرج الرجال فى جماعات ليهاجموا ، ويسلبوا ، ويتحدون من أجل الدفاع عن منازلهم .

فأين إذاً بداية تخصص المنهج فى القتال ؟ ولربما كان فى الصناعة نوع من توزيع

العمل حينما وجدت الأدوات ، كما يقول « أوز Ure » ، ولكن التخصص لم يوجد إلا مع ظهور الآلة . فكيف تختلف الأداة عن الآلة إذاً ؟ إن الأداة وسيلة يؤدى الإنسان بها عمله أكثر قوة ، أو أوسع مدى ، أو أدق ضبطا ، مما لو كان يفعله بذراعه من غير الأداة ، ولكن الأداة تصبح آلة حين تبدأ فى التشغيل الذاتى . وفى استعمال الأداة يكون الإنسان مصدر القوة والتوجيه ، حتى إن الأداة كما قال « صموئيل بتلر » وسيلة لإطالة ذراع المرء فحسب . ولكن القوة المحركة فى الآلة تتولد من جسم الآلة نفسها ، وربما تم توجيه العمليات من داخل هذا الجسم حالما تبدأ الآلة فى الحركة ، وفوق هذا أنه كلما كانت الآلة أكثر ضبطا وقوة ، ضاق مدى عمل الإنسان الذى يلاحظها ؛ فالتخصص يتبع الآلة .

وتعطينا الحرب مثالا مشابها . فالأدوات فى الحرب هى تلك الأسلحة التى يستطيع المرء بها أن يقوم بالتحطيم بصورة أكثر قوة ، وأوسع مدى ، وأدق ضبطا ، مما لو كان يفعل ذلك بذراعه من غير الأداة ، فالمقلاع أداة أحسن من أن يُرمى الحجر باليد ، والقوس أحسن من المقلاع ؛ وإن آلات الحرب أسلحة تدار ذاتيا ، وأبسط آلة فى الحرب هى البندقية ، وكل آلات الحرب ، من أبسط مدفع يرمى بالحجارة ، إلى القنبلة الذرية ، هى بنادق .

ويتبع التخصص فى الحرب الآلة كما فى الصناعة . وفى هذه البلاد (بريطانيا) مثلا ، جاءت بداية التخصص فى الحرب كما علمنا فى القرن الثالث عشر . فلقد أصبح المقاتلون متخصصين ، وأصبح الجيش لأول مرة منذ الإمبراطورية الرومانية ، مجموعة منظمة من الأسلحة المختلفة . ولكن الذى لا نلاحظه دائما أن هذا كان وقت اختراع الآلة الحربية . وأول ما نعرفه مما يمثل البندقية فى هذه البلاد يرجع تاريخه على ما يقال إلى عام ١٣٢٦ ، وكانت تقذف السهام .

ولقد كان القوس أداة عسكرية ذات قوة وضبط عظيمين ، ولكنه لم يخرج عن كونه أداة ، لأن القوة المحركة للقذف كانت تأتى من ذراع الرامى القوية . ولكن البندقية التى كانت تقذف السهام ، كانت آلة تأتى القوة المحركة للقذف منها من داخل جسمها بانفجار « العبوة » . فاختراع البندقية بهذه المثابة بدء اصطباغ الحرب بالصبغة الآلية ، أى إعطاء الصبغة الذاتية للمناهج الجماعية العسكرية و إن تحول الجماعة السيئة التنظيم من المقاتلين إلى آلة عسكرية قد بدأ هذا فى وقت أسبق من صبغ الصناعة بالصبغة الآلية . وربما كانت الحرب كما يلمح « ممفورد » هى التى قدمت للصناعة نموذجا للتوزيع والتخصص وآلية العمل : ويقول إن أولى الآلات كانت آلات الحرب ، وكانت الحرب هى التى حققت إمكان وجود جماعة من الناس المدربين ، يعملون معا ليقوموا بعمل منسق .

وذاتية المناهج العسكرية من جهة أخرى تتطور ببطء بالنسبة لطبيعة عدم انتظام الحدوث ، وقلته فى الحرب . ولقد مضت ستة قرون منذ استعمال البندقية لأول مرة فى هذه البلاد ، ولم يحدث إلا اليوم فقط أن رأينا مبدأ ظهور المرحلة الثالثة فى مناهجنا العسكرية . وثمة لحظتان من لحظات التغير الحرجة فى هذه القرون الستة التى تمت فيها الحركة الذاتية (الأتوماتية) ؛ أولاهما الوصول إلى ضبط تدريبى يشبه ضبط الآلة فى القرن السابع عشر ، واختراع آلات للحرب أكثر تعقدا فى القرن التاسع عشر .

إن جيش كرومويل المسمى « النموذج الحديث » ينظر إليه عادة باعتباره نقطة التحول فى تطور الحرب فى هذه البلاد ، ويدل على تقدم عظيم فى تنظيم المنهج الجماعى فى الحرب ، وإكمال الوحدة العسكرية باعتبارها آلة . ويقول « شيبارد » إن هذا النموذج الحديث كان من كل ناحية أحسن آلة عسكرية فى يومه . . . . ويبدو أن سمعة كرومويل العسكرية أقوى أساسا حين نبنيها على نصيبه الأوفى

فى تـكوين الآلة الحربيـة المريعة ، مما لو بنيناها على طرقة فى إدارة الحالة أو المعركة (١) » .

ويظهر أن مما يعتبره مؤرخو الحروب طبيعيا أن يسموا الجيش آلة ، وإن استعمال الآلات هكذا قد خلق فى الحرب ، كما خلق فى الصناعة ، جماعة الآلة . وثمة التدريب ، والنظام ، والطاعة المعروفة ؛ ولـكون العسكرى جزءا من جماعة الآلة أصبح آلة ، إذا أريد لها أن تتحرك باصدار الأمر ، تحركت دون خطأ إلى غايتها ، أو هلـكت .

وحرام أن ينظروا حكمة الأمـ ر إذا صاح بالأوامر صائح
مالهم غير أن يطيعوا صدى الحر ب ويُضَحُّوا بالحرب بين الذبائح

هكذا امتدح شاعر انجلترا الرسمى فى القرن التاسع عشر الآلة العسكرية بكلمات قدر لها أن تصبح عبارة على شاهد قبر ، لأنه فى نفس السنة التى قيلت فيها قصيدة « تينيسون » (١٨٥٦) اخترع « آرمسترونج » اختراعه الأول الذى قدر له أن يغير البندقية ، ويغير معها الحرب الحديثة ، فكان ذلك بداية المرحلة الأخيرة ، مرحلة استكمال ذاتية الحركة ، ومما له دلالة ، أن إنشاء كلية أركان الحرب يكاد يكون قد تم فى نفس اللحظة (١٨٥٨) .

لقد كانت اختراعات « آرمسترونج » بداية للآلية التامة ، وكانت كلية أركان الحرب اعترافا بالحاجة إلى إيجاد تدريب لهؤلاء الذين يوجهون الآلة العسكرية المتزايدة التعقيد . وكما كانت الحال فى الصناعة ، نجدها فى الحرب . فبنمو الآلية ، توجد الحاجة إلى أقل درجة من القدرة على القراءة والـكتابة ، لـكل عضو من أعضاء الوحدة المقاتلة — أى الجندى العادى ؛ على حين توجد فى نفس الوقت ضرورة خلق

(١) Shepperd, SH, 16

درجة أعلى من القدرة على القراءة والكتابة عند هؤلاء الذين يتولون القيادة والسيطرة على العمل المعقد ، ومن ثم لا بد لهم من وصف العملية ، وإعطاء التعليمات . وتصبح الكلية ضرورية بالنسبة إلى الضباط ، وهكذا تبدأ المرحلة الثانية ، وتتسم بالطابع المميز فى نظامها .

ومرة أخرى تحمل المرحلة الثانية فى داخلها كما تفعل فى الصناعة جراثيم تحللها ، وبذور المرحلة التى يجب أن تتبعها . وتجعل الحركة الذاتية فى الحرب من الممكن خلق وحدات مقاتلة أكبر ، وتجعل الجيوش والأساطيل تنتشر على مساحة أكبر فى ميادين الحلة . ويتطلب جعل هذه الجيوش والأساطيل أكبر كفاءة وسائل جديدة فعالة للاتصال . وتجعل هذه الوسائل من الممكن كذلك ازدياد حجم الوحدة المقاتلة وتعقدها . ويأتى وقت كما فى الصناعة يزداد فيه نمو المنظمة على نظام الاتصال فيها ، فتكون المنظمة أكبر مما يحتمل عقلها . والأمل الوحيد فى البقاء يبدو فى خلق عقل وجهاز عصبى كبير ، ومتشابك بدرجة كافية ، لخدمة احتياجات هذا الكائن الضخم المعقد . أو بعبارة أخرى تأتى لحظة لا يتمكن أن تصل فيها إلى درجة أعلى من درجات الشعور الجماعى لدى الجماعة المقاتلة كلها . وهنا تبدأ المرحلة الثالثة .

وربما كان الحد الأقصى من الحركة الذاتية ، إلى جانب وسائل الاتصال غير المناسبة ، قد وُصل إليهما فى الحرب العالمية الأولى . فكان فى البحر عدم قدرة الأساطيل على الحركة، وفى البر الفراغ القاتل اللعين الذى تخلقه حرب الخنادق. وكان هذان من أعراض سخرية المنهج الجماعى من نفسه بضخامة الحجم والتعقد . وهذا موضوع سلسلة من المقالات كتبها « هولاند روز » عن « كون الحرب الحديثة غير حاسمة » وهو يقول لنا : « ليس من الكثير أن نقول إن الكشوف العلمية فى عام ١٩١٤ قد سبقت قدرة الإنسان على أن يقيس نفعها ، أو أن يديرها جميعا بثقة تامة بنفسه وقد أصبح الإنسان شيئا فشيئا ضحية الآلية التى خلقها ، فهو فى قبضة المسخ

الآلى الذى جاء به ، لأن قواه لم تنم بنفس السرعة pasi passu ؛ بل إنها قد تضاءلت بسبب شعوره بأهميته الشخصية ؛ والقواد كذلك معرضون للهبوط المعنوى بسبب إحساسهم بالتبعة الضخمة ، حين يديرون هـذه الآلة الضخمة المعقدة للحرب الحديثة ، وربما نسب إلى هـذا السبب الأساسى كون الحملات يتناسب خلوها من النتائج الحاسمة تناسبا طرديا ، مع ضخامة العـدد الذى تستخدمه . »[١] ولقد أصبحت الحرب مصابة بنفس المرض ، مرض التضخم ، الذى شخصه « ممفورد » باعتباره سببا فى الفراغ الذى أصاب الصناعة فى المرحلة التى تطابق هـذه من التطور الاقتصادى .

إن الآلة الحربية الذاتية الحركة التى بدأت مرحلتها الأخيرة بعمل «آرمسترونج» فى منتصف القرن الماضى لابد لها أن تخلق لنفسها جهازا عصبيا أكثر تشعبا ، أو أن تهلك . وفى بريطانيا كما فى البلاد الأخرى صارت المناهج الحربية لهذا السبب أكثر آلية ، وأصبح من الضرورى للجندى الفرد أن يفهم شيئا ما عن الآلة التى يعنى بها ؛ شيئا له طبيعة منهج الجماعة التى هو عضو فيها واتجاهها ؛ شيئا من تقدم المعركة، شيئا له طبيعة الحرب واتجاهها . إن هـذا هو بدء الشعور الجماعى بالحرب ، ونشر الشعور فى خلال منهج ظل المثل الأعلى المركزى فيـه مدة طويلة هو التدريب ، وعدم الشعور الفردى والجماعى ، والدرجة القصوى من الضبط الآلى بالنسبة إلى أغلبية المشتركين فيه.

(٥)

ويتخذ الاتصال اللغوى فى الحرب ، كما يتخذ فى الصناعة ، شكلا مميزا ووظائف خاصة فى كل مرحلة من مراحل تطوره ، وما دام الجندى من تقاليده أن يكون أميا فربما يبدو لأول وهلة من السخف أن تؤكد وظائف القراءة والكتابة فى الحرب . ولربما يبدو من التناقض الوهمى أن نشير إلى أن كل مرحلة من مراحل تطور المنهج

---

(١) Ross : W 5

الجماعي العسكري تتطلب درجة من القراءة والكتابة أعلى مما تتطلبه مثيلتها في الصناعة ولكن هذا صحيح بلا شك ، إذا تذكرنا أن هناك درجات من محو الأمية الكلامية والكتابية . وتتطلب المناهج الجماعية في الحرب باستمرار استعمالا شاملا للكلمة المنطوقة ، وذلك بسبب العقوبة المخيفة التي تأتي من ترك المناهج تصبح ذاتية الحركة بدرجة لا تجعلها صالحة لمواجهة المفاجآت .

فإذا وازنا بين الحرب والصناعة مرحلة مرحلة ، فسيكون من الواضح أنه بينا لا يمكن لتخصص الوظيفة في الصناعة أن يبدأ دون استعمال للكلمات المنطوقة المفهومة، فإن العامل حين يتم تدريبه على مهمته المتخصصة، ربما ظل يوما بعد يوم غير محتاج إلى الاتصال اللغوي ، فهو يعلم ما يجب عليه أن يفعله . وربما كان ثمة كلام كثير في الورشة ، ولكنه لا يلزم أن يكون متصلا بالعمل أما في الحرب فليست ضرورة الاستعمال اللغوي مقصورة على تدريب الجندي فحسب ، كما يشهد أي جاويش ، بل إن الجندي طول الوقت حين يكون فعلا في العمل ، أو في أتون المعركة ، يجب أن تلقى إليه الأوامر من حين لآخر .

ويبدو من تاريخ الحرب أنه لا ينبغي أبدا أن يسمح لها بأن تصبح ذاتية الحركة تماما كالصناعة . فكلما انتظمت الجيوش جمعت لنفسها ذخرا عظيما من الاصطلاحات الفنية . حقا كانت أولى الاصطلاحات الفنية المستعملة في أي منهج جماعي هي هذه التي يستعملها الجندي ، لا تلك التي يستخدمها العامل . ولأمد طويل قبل أن يكون للمصنع اصطلاحات فنية اكتسبت الحرب حصيلة ضخمة من الاصطلاحات الفنية والتعبيرات الخاصة (idioms) ففي عام ١٥٩٨ مثلا ، قبل أن يظهر جيش النموذج الجديد أي جيش كرومويل بجيل أو جيلين ، ج . « باريت» Barret ، في كتابه « الناحيتان النظرية والعملية في الحرب الحديثة » Theorike and Praktike of Moderne Warres ، بقائمة بها أكثر من مائتي كلمة أو تعبير عسكري كانت

تستعمل حينئذ [1] .وقبل أن تكون للصناعة وسائلها الأولى للاتصال بزمن طويل، كان لكل حقل من حقول المعركة جهاز معقد من جنود الاشارات والمراسلات : وإذا كان الفضل فى بقاء نظام الصناعة الحديثة حيا ، كما رأينا يرجع إلى سريان المنشورات الدورية فى شرايينه ، فإن الاتصال الفنوى السريع الذى يشمل العالم جميعه هو بالتأكيد سر حياة الحروب الحديثة .

إن الأمية التقليدية فى الجندى العادى كانت حتى بداية المرحلة الثالثة من مراحل تاريخ المناهج العسكرية أمية تتصل بالكلمة المكتوبة فحسب . ففى حروب نابليون مثلا كان ثلثا الجيش البريطانى على ما يبدو من الأميين ، مقترنا كذلك بثلث مجموع السكان [2] واستطاع « هـ . ج . ويلز » فى وقت متأخر هو عام ١٩٠٠ أن يقول إن الجيش يحب فى تقاليده أن يكون جنوده أميين [3] . ولكننا يجب أن نلاحظ أن هذا كان صحيحا حتى فى أيام ويلنجستون بالنسبة لتعلم القراءة والكتابة : فإن محو الأمية الحقيقى للجندى فى أى جيش حسن التدريب إنما يكون متصلا بالكلمات المنطوقة . فهو ليس بحاجة إلى فن الكتابة ، أما فن القراءة فربما كان خطرا ، لأنه سيبدأ به فى التفكير المنطقى ، فيكون أقل استعداداً لتنفيذ الأوامر والتضحية بحياته. وهو من ناحية أخرى مدرب تدريباً خاصا على الاستجابة للكلمة المنطوقة ، ولا يتطلب أى عمل آخر غير الحرب مثل هذه الاستجابة السريعة المضبوطة .

أما الزيادة فى ذاتية الحركة بتزايد ضخامة الوحدة المقاتلة ومن ثم تناقص السيطرة، فإنه يتطلب على أى حال توسعا فى محو الأمية الكتابية بين الضباط . وإن التكتيك والاستراتيجيا لا يمكن أن يوجدا بدون تبادل دقيق دائم للأوامر المكتوبة ، والخرائط ، والرسوم ، والتقارير ، والرسائل . ومن الوظائف الأساسية لكلية أركان

---

(١) Journ. Soc. Army Hist. Res., 149

(٢) Fortsecue HB, ki, 16. Young VE 59

(٣) Wells, A, 96.

الحرب أن تمد إدارة المعركة بهذه الأدوات اللغوية وربما تصل العناية باستكمال هذه الأدوات إلى حد أن تصبح غاية فى نفسها. وهكذا ربما يصبح توجيه للمنهج والسيطرة عليه عرضة للمركزية الزائدة عن الحد . وربما أصبحت الأداة المركزية فى أدائها لوظيفتها متشددة وتخية للعادة إلى درجة عظيمة. وربما أصبحت نظرية الحرب خاضعة للقاعدة ، وتخطيط الحملة مفصلا إلى حد كبير ، كما تصبح السيطرة المركزية فى الحقيقة أكثر تنظيما مما تحتمله مهمتها التى هى التوجيه والتنسيق كما هو الواجب فى كل منهج جماعى مرن . والأمر كما يردد « تولستوى » دائما فى كتابه War and Peace حيث يقول : إن الذى يتم تخطيطه فى مركز القيادة ربما أخفق أن يوضع موضع التنفيذ فى أتون المعركة حيث يحدث دائما مالا نتوقع .

وباختصار تميل مناهج الحرب إلى أن تتشبع بالاتصال اللغوى أكثر مما تميل مناهج الصناعة ، بحيث لا تُوَازَنُ بها . ومن نتائج هذا أن الحرب مهنة غير أمية إلى درجة عظيمة ، تعتمد فى مراحلها الأولى على محو الأمية الكلامية ، وتتطلب فيما بعد درجة أعلى من محو الأمية الكتابية بين هؤلاء الذين يقودون على الأقل . وحين تتقدم الحرب إلى المرحلة الثالثة ، كما هى فى أيامنا هذه ، وهى مرحلة الشعور الجماعى ، يصبح حتى محو الأمية الكتابية ضرورة شاملة لكل من يشتغلون بالحرب . وإن الزيادة الهائلة فى استعمال الكلمة المنطوقة والمكتوبة فى الحرب فى أيامنا هذه لتمثل أحد التيارات الرئيسية فى الثورة اللغوية .

وهكذا أصبح من المستحيل فى بداية الحرب العالمية الثانية أن نتغاضى عن أية أمية فى الجيش البريطانى . أما الاثنان فى المائة أو نحو ذلك من الأميين أمية كاملة فقد بعث بهم كما رأينا إلى المدرسة ليحصلوا ولو على مبادئ القراءة والكتابة . وحالما يصبح محو الأمية الكتابية أداة ضرورية فى الاتصال العام فى المنهج الجماعى العسكرى لا يكون ثمة استثناءات . فكل جندى يجب أن يقرأ وأن يكتب ، وربما أصبح الجيش العامل أكثر قدرة على القراءة والكتابة من مجموع السكان فى عمومهم .

أما محو الأمية من الكلمة المنطوقة ، فلم يحدث فى أى من المناهج الجماعية السياسية أو الصناعية أن اتخذ وظائف هامة كما فعل فى الحرب الحديثة . وازن بين قول الشاعر :

وحرام أن ينظروا حكمة الأمـ ـر إذا صاح بالأوامر صائح

الذى قيل فى حرب القرم و بين التقليد الجديد فى الحرب المعاصرة من التعليمات التى تعطى للجنود فى أثناء القتال . إن الاتصال فى ميدان المعركة أصبح وسيلة أساسية لمنهج ذاتى الحركة ، أو وسيلة إعطاء الأوامر . أما اليوم فإن الاتصال اللغوى وهو يتخذ شكل الإذاعة فى معظمه ، لا يمكن أن يستغنى عنه باعتباره وسيلة للاحتفاظ بالشعور الجماعى بالظروف والأهداف الخاصة بالمنهج الجماعى . ور بما كان أوضح مثال لهذا هو الإجراء الجديد الذى يتمثل فى إذاعة معلومات مستمرة عن سير المعركة لكل من فى السفينة ، لأن ذلك يمثل تحولا عميقا فى عادات ومواقف دامت أزمنة طويلة . و إن الأميرال « كيرك » قائد القوة الأمريكية ذات المهمة المحددة (task force) فى عمليات صقلية عام ١٩٤٤ حين رأى أن « عساكرنا و بحارتنا يصبح موقفهم أحسن لو عرفوا هدفهم » قد اتخذ على سفينة قيادته مذيعا ، وأناط به مهمة جعل الأفراد دائماً على علم بما يحدث [١] .

ومعنى كل ذلك أنه مع الآلية الكاملة فى الحرب ، ومع النمو الضخم فى حجم الوحدة المقاتلة ، وفى ميدان العمليات ، لا تصبح المناهج الجماعية ممكنة إلا إذا وجد اتصال لغوى فى خلال الجماعة كلها ، و يقصد بهذا الشعور الجماعى . و إن المقاتل الفرد لم يعد وحدة ، فالذى يفعله باعتباره مقاتلا لم يعد له معنى إلا إذا انعقدت الصلة بينه و بين أفعال الجماعة التى يمكن أن تكون من الصغر بدرجة طاقم مدفع أو طائرة ، أو من الكبر بدرجة جيش . وثمة مجال ضيق للتصرف الشخصى

---

(١) London Observer, May 28, 1944

إلا باعتباره وسيلة لجعل وحدته المقاتلة أكثر تأثيرا ، أى جعلها أكثر أمنا ، وأشد تحطيما . والاتصال الجماعى فى خلال كل ذلك أداة لا يستغنى عنها فى إعطاء المعنى لأفعال الفرد المقاتل ، وإن أفعال الفرد ، سواء أكان جنديا ، أم بحارا ، أم طيارا لتفقد بانعدام الاتصال بعض مزايا التَّبَصُّر والتعقل . فهو يعمل ، ولكنه لا يكاد يميز آثار ما يفعل ، وما دام قد تدرب على أن يعمل باعتباره واحدا من جماعة ، فإنه لو حاول أن ينفذ أعماله التى تعودها وهو فى معزل عن جماعته ، فإن سلوكه ربما كان له قليل أو لاشىء من المعنى ، فى ضوء ما يحدث حوله . فالتقدم والتأخر ، وإطلاق النار ، والإمساك عنه ، والاستتار ، والخروج إلى المكان المكشوف ، هذه الأعمال كلها ربما سببت هلاك نفسه وزملائه . إنه لا يستطيع أن يقطع بما قد يحدث . وإن الجندى لا يكون بصيرا بعمله ولا وثيق الصلة بجماعته إلا إذا كان شاعرا بالدور الذى يقوم به وعلى علم باتصال ذلك بسلوك الآخرين ، ولا يكون هذا الشعور ممكنا إلا عن طريق الاتصال اللغوى .

ويجب أن نلاحظ أن هذا الاتصال حقيقى ، لا مجرد طاعة صامتة ، وإن المقاتل لا يَسْمَعُ ويُطِيعُ فحسب ، بل هو يجيب أيضاً . وثمة تفكير جماعى . فالجندى فى نقطة منعزلة عنده تليفونه اللاسلكى (radio-telephone) أو (talkie-box) ، كما يسميه الأمريكيون ؛ وكل سفينة فى البحر على اتصال دائم مع شبكة من السفن الأخريات ، والطيار الذى يطير على بعد مئات الأميال بعيداً عن قاعدته لا يزال على صلة بها غير منقطعة، ويظل فى نفس الوقت متصلا اتصالا لغويا بزملائه الطيارين من نفس السرب . وإذ لا يرى واحد منهم الآخر حين يطيرون ، يعرف كل منهم الآخر باعتباره صوتا يسمعه من الشبكة (inter-Comm) .

ولا شىء يمنح التماسك للمهمة الجماعية سوى تبادل الاتصال اللغوى (inter-Communication) فى الحرب فى أيامنا هذه . وليست الكتيبة أو الفرقة

أو الأسطول ، أو التشكيل الجوى لقاذفات القنابل ، أو الطقم من أطقم الطيران ، وحدة مقاتلة إلا بفضل تبادل الاتصال اللغوى ، ويصدق بهذا أن كل تقدم فى الاتصال معناه أن الكلمة المنطوقة أو المكتوبة تحل محلها جزئيا أنواع أخرى من الرموز ، كنقطة على قرص بدار ، أو نموذج على شاشة . ولكن هذه الأشياء ما دامت تستعمل كوسائل للاتصال بين الناس ، فهى لغة من جهة كونها نظاما من الرموز يحدد السلوك . ونستطيع حتى الآن أن نقول إن الوحدة المقاتلة لا تكتسب شعوراً بكونها جماعة إلا بواسطة تبادل اللغة . ولا تتماسك هذه الوحدات معا إلا بواسطة اللغة ، وتعمل معا باعتبارها جيشا واحدا متناسقا . وأخيراً لم يصبح التكتيك والاستراتيجيا ممكنين فى الحرب الحديثة إلا بواسطة التشبع بالشعور الجماعى ،فى الأداة العسكرية الواسعة كلها .

وأكثر من هذا أن الشعور الجماعى فى الحرب فى أيامنا هذه يجب أن يتسع إلى ماوراء حدود الأداة المقاتلة . إن الحرب الحديثة حرب كاملة شاملة ، فهى لا تكتفى بأن تشرك فى المعركة الجنود والبحارة والطيارين فحسب ، بل كل عضو فى المجتمع مشترك فى الحرب . وإن الأوامر اليومية ، والتحريض على البقاء فى وحدة لا تنفصم ضد العدو ، والسكوت عما يحدث لئلا يسمع العدو به ، وتجاهل فيض الدعايات اليومى الآتى من معسكر العدو ومقاومته — إن هذا التناسق والترابط فى المجتمع كله بواسطة الكلمات هو نفسه جزء هام من أجزاء الثورة اللغوية . وفوق هذا أن الراديو والمنشور الملقى من الجو هما قذائف لغوية لها قوة عظيمة فى إخضاع العدو ، وفى الاحتفاظ بهؤلاء الذين تحت قبضته ، وضمان ولائهم . فقبل غزو الحلفاء لأوربا عام ١٩٤٤ كانت الإذاعات اليومية من مركز قيادة الجنرال إيزنهاور إلى قوات المقاومة فى البلاد المحتلة تعتبر توغلا لغويا وراء خطوط العدو .

تلك إذاً هى الوظائف اللغوية التى لا يستغنى عنها فى مجتمع دخل فى الحرب

في أيامنا هذه ، وذلك أن تكون اللغة وسيلة لشعور الجماعة بمناهجها ، تلك المناهج التي سيطرت عليها تقاليد التدريب والنظام فقط مدة قرون عديدة ؛ وتلك هي غاية في انتفاء التفكير الجماعي ؛ ثم أن تكون اللغة سلاحا للهجوم على العدو ، وقذيفة يحملها الأثير عبر كل خط من خطوط الدفاع ، وفي كل حصن حصين — وأن تكون كذلك وسيلة تضم الصفوف ضد هجوم القذائف اللغوية التي تأتي بلا انقطاع في الليل والنهار من معسكر العدو .

ولكن الحرب الحديثة لكونها حربا كاملة شاملة ، تأتي بالمجتمع كله إلى الخطوط الأمامية ، ونحن لانستطيع أن نفرق بين التنظيم العسكري والسياسي في المجتمع الحديث ؛ والمجتمعات المتقاتلة في الحرب الحديثة يستعمل كل منها الأسلحة السياسية والعسكرية ضد الآخر ؛ ويشتمل الدفاع على التنظيم الدقيق للبنية السياسية في كل مجتمع . وإن المناهج الجماعية في السياسة ، التي تتجه إلى الاحتفاظ بالوضع الداخلي الراهن ، والأمن الخارجي للمجتمع ، لتشبه المناهج الجماعية العسكرية من جهات كثيرة . وذلك هو موضوع فصلنا الآتي : الذي يدور حول مكانة الاتصال اللغوي في السلوك السياسي الجماعي في المجتمع الحديث .

الفصل الثامن

اللغة في السياسة

(١)

إن كل مجتمع فى الوقت الحاضر يستخدم المناهج السياسية الجماعية ، أى المناهج التى تهدف إلى استمرار وجود المجتمع ، باعتباره منظمة سياسية (polity) . وسنحاول فى هذا الفصل أن نستعرض مكان الاتصال اللغوى من المناهج السياسية الجماعية فى كل من الأشكال الثلاثة للمنظمات السياسية التى اشتركت فى الحرب الأخيرة وهى النازية الألمانية . والاشتراكية السوفيتية ، والديموقراطية البريطانية .

وإنه ليبدو لأول وهلة أنه يوجد تعارض بسيط فى المناهج السياسية الجماعية بين الدول التى تحكم حكما استبداديا (totalitarian) ، وبين الدول الديموقراطية ؛ أى تخصص الوظيفة وآليتها فى ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتى ، فى مقابل التطور إلى شعور جماعى حر ذاتى فى الديموقراطيتين البريطانية والأمريكية، ولكن مجرد التطرق هذا الظن كاف للكشف عن بدائيته وعدم لياقته . فكل شكل من أشكال البنية السياسية فى العالم الحديث هو حل وسط بين المثالية وبين الظروف المعقدة الموروثة عن الماضى ، والمتطورة فى الحاضر ، وكل شكل من أشكال الوحدات السياسية يستخدم لهذا السبب مزيجا من المناهج السياسية الجماعية . حتى الديموقراطية التى تهدف إلى الحرية الفردية يجب أن تلجأ إلى بعض التخصص والآلية فى الوظيفة . أما الدولة التى تحكم حكما استبداديا والتى تضع المجتمع فوق الفرد فيجب كذلك أن

تحاول خلق الشعور الجماعى فى أعضائها كأفراد ، وأن تحصل على مشاركتهم التطوعية فى المناهج السياسية للجماعة .

ذلك بأن الهدف الأقصى لكل دولة من بنيتها السياسية وأدائها لوظيفتها هو أن تصل إلى خلق وحدة بين كل أعضائها فى الفكر والإحساس ، والعمل ، متجهة إلى إدامة كون المجتمع وحدة سياسية مثالية ، أى إلى إيجاد حالة توازن equilibrium فى الدولة ، والاحتفاظ بوجودها ، وفرضه على الدول الأخرى ، وعلى من تتوقع أن يكونوا من أعدائها أو من أصدقائها . والذى يميز دولة من دولة أخرى إنما هو تنظيم سلوك الجماعة فيها ، ليؤدى إلى اتحاد داخلى ، و إحساس جماعى ، أى إلى عقل جماعى .

وفى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، وفى خلال الحرب نفسها، كان من الممكن فى كل من الأشكال السياسية الثلاثة أن نرى ظهور عقل جماعى فى صورة ما بخصائصه المميزه ، ولكن بعض المناهج الجماعية كان مشتركا بينها جميعا ، وكان فى جميعها تطور سريع فى استعمال الاتصال اللغوى فى خدمة هذه المناهج الجماعية ، و إن منطق الحوادث ليفرض على كل دولة ، وعلى قادتها ، ضرورة أن يُوحَى إلى المواطن بكيفية تنفيذ أهداف الدولة ، وأن يتدرب على أداء وظائفه السياسية . ومعنى هذا فى وقتنا الحاضر أن أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب لا بد أن يدخل فى عداد المشتغلين بالنشاط السياسى وأن يتدرب جميعهم من ثم على المناهج السياسية الجماعية الصالحة للمحافظة على المنظمة السياسية الخاصة ، وأن توضع أمامهم غاية لأهداف الدولة ، وأن يشجعوا على الرغبة فى الوصول إلى هذه الأهداف . وواضح أن كل هذه المراحل فى السلوك السياسى الجماعى تشتمل على الإدراك الجماعى ، والاشتهاء الجماعى كليهما .

وسننظر فى هذا الفصل فى النواحى الإدراكية ؛ وسننظر فى الفصل التالى فى

النواحى الاشتهائية . وسنلاحظ فى كل من الأشكال الثلاثة للوحدة السياسية كيف يعتمد إمكان تطور السلوك السياسى على وجود اتصال لغوى مناسب . وسنحاول من ثم أن نستعرض نوايا كل وحدة سياسية ، وتنظيمها باختصار ، وأن نلاحظ استعمال المناهج الجماعية طبقا لذلك،واستعمال الاتصال اللُّغوى.باعتباره أداة من أدوات المناهج.

(٢)

لانكاد نستطيع أن نعطى حتى صورة عامة للمناهج السياسية التى استخدمت فى ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية ، وفى خلالها ؛ ذلك بأن أى شخص غير نازى لم يكن ليفهم العقلية النازية من جهة . ومن جهة أخرى للتباين الذى كان بين ما أفضى به النازيون بعضهم إلى بعض و بين ماأفضوا به إلى العالم الخارجى . وإن شيئا واحدا ليتضح هنا على أى حال ، هو أنه حتى ألمانيا النازية وهى نظام حكم أو توقراطى (فردى)،لم تستطع فى الظروف المعاصرة أن تؤدى وظيفتها بالمناهج الجماعية الأوتوقراطية فحسب ؛ إن نظرية الدولة النازية كانت بسيطة : فهى درجية (هيراركية) من القادة، والمقودين ، وأن التطبيق المستقيم لهذا فى المناهج الجماعية قد يدل على تخصص فى الوظائف ، ومحاولة جعل الوظائف التخصصية آلية . ولم يكن الفرد الألمانى بحاجة إلا إلى تعلم طاعة المجموعة المسيطرة التى تعلوه مباشرة فحسب . ولكن شيئا أكثر من هـذه الطاعة الآلية كان لازما فى التطبيق . فبينما كان القادة النازيون يهدفون إلى درجة عليا من التخصص والآلية لكل فرد فى الدولة النازية ، اضطروا إلى أن يراعوا ضرورة الشعور الجماعى فى الدولة كلها . فإن ظروف الاتصال اللغوى فى يومنا هـذا تحتم أنه كلما وُجد المجتمع ، وُجد بعض الشعور الجماعى الذى لا يمكن تجاهله ، إلاَّ مع مغامرة التعرض للخطر الذى يحيق بثبات المجتمع ، وهو خطر يجب على كل دولة أن تتجنبه خدمة لأغراضها .

لقد كانت الدولة النازية من الناحية النظرية درجية ، وكانت قمتها هى النقطة التى

يتوقف عليها كل شيء . فقد جعل القادة النازيون من همهم أن يخلقوا التفكير الجماعي ، والرغبة الجماعية ؛ والعمل الجماعي ، في انسجام مع هذه الفكرة ، فكرة الفهم الجماعي ، للبنية الدرجية والرغبة في استكمال ذلك ، والعمل على التطور به ، والمحافظة عليه . وباختصار حاول هؤلاء أن يصلوا إلى مرحلة العقل الجماعي الدرجي ، أي إخضاع التفكير ، والإحساس ، والإرادة ، والعمل ، عند كل فرد للمجموعة المسيطرة عليه مباشرة ؛ فالقائد دائما تختاره العناية الإلهية وكانت إحدى المشكلات الكبرى عند هتلر في ذلك الوقت استعمال الاتصال اللغوي ، وقوة الكلمات ، في سبيل إنشاء عقل جماعي على طراز الدرجية الديناميكية ، ثم إبقاؤه واستدامة عمله .

وربما تمت المحافظة على مثل هذا النظام قبل الثورة اللغوية بواسطة القوة المجردة للعادات ، وقد يعززها العنف والبطش . ويستطيع استعمال القوة والبطش أن يفرض الطاعة ، ولكن الذي لاشك فيه أن تَشَبُّع السلوك الاجتماعي كله بالاتصال اللغوي يجعل العقل الجماعي على صلة وثيقة بكل منهج جماعي . إن الاتصال اللغوي في تطوره في وقتنا هذا لم يعد أمرا وطاعة ، ولم يعد الفرد يُطْلَب منه أن يسمع ، ويطيع ، فلابد له بعد ذلك من أن ينصت ، ويفهم ، ويجيب . وإنما تصبح الجماعة شاعرة بسلوكها كجماعة ، بالاتصال ، وتبادل الأفكار بين أعضائها . ويصبح الاتصال بهذه المثابة أداة للشعور الجماعي بالسلوك السياسي الجماعي . فكيف نوفق إذا بين هذا وبين الفهم النازي للدرجية المطلقة ، حيث يخضع كل إنسان بطاعة مطلقة عمياء لصوت القائد الذي يعلوه — حتى القائد نفسه يطيع صوت الإحساس الداخلي في نفسه Intuition .

ولم يكن من الممكن تجنب الحاجة إلى تطويع هذه القوة الجبارة أي قوة الاتصال اللغوي . واعترف القادة النازيون على الفور بالأهمية الضخمة للدعاية — أي استعمال الرموز ، وعلى الأخص اللغة ، كوسيلة أساسية لإثارة وتوجيه الفكر ، والإحساس ، والعمل . وبعد أن استولى هتلر على الحكم بشهور قليلة — في ١ كتوبر ١٩٣٣ —

أنشئت غرفة الريخ الثقافيـة Reich Chamber of Culture ووضعت تحت إمرة جوبلز Goebbels وكانت ثمة نية واحدة فى أقسامها السبعة جميعا ـ الأدب ، والصحافة ، والإذاعـة ، والفن ، والموسيقى ، والمسرح ، والأفلام ـ هى أن « كل القوى المنتجة فى كل المجالات يجب أن تجتمع تحت قيادة الريخ لتوحيد تـكييف الإرادة » (١) .

« القوى المنتجة . . . . . . توحيد تـكييف الإرادة » ! كيف يتفق هذان ؟ إن هـذه المعضلة لم تقلق الفلسفة النازية بغير وجه حق . ففى التشريع الذى قضى بتكوين الغرفة الثقافية ، نُصَّ بكل وضوح على أن « المجهود المنتج لابد أن يكون فرديا غير مقيد » . و بعبارة أخرى لم يتطلب مبدأ الخضوع للقيادة (Führerprinzip) نفى الدافع الفردى . بل على العكس يجب كل على فرد فى الدولة أن يسعى بنشاط لإخضاع إرادته لقائده ؛ يجب أن يوجه إرادته الشخصية بكل قوة لإخضاع إرادته . وهكذا تبدو فى محاولة القهر النفسى للفرد نظرية فيها تناقض ظاهرى، لأنها تـكشف لنا عن معضلة الاستبداد فى عالم أوضح ما فيه الآن الاتصال الدائم بين الجميع .

إن السيكولوجية النازية لو بقيت مدة الألف سنة التى قدّرها هتلر لبقاء الريخ ، لـكان يمكن أن تنتج الشخص النازى . ولـكن التاريخ لم يمنح أى زعيم الألف سنة التى يحتاج إليها . ففى خلال سنتين من إنشاء الغرفة الثقافية اضطر جوبلز إلى الشكوى من أن الفنّان والمثقف ، كانا عزيزين على الاستجابة ، ومستقلى الإرادة إلى حـد بعيد ، وهكذا كان كلام جوبلز دون علم منـه صدى لـكلمات « أندرو أور » التى قالها قبله بقرن ، وهى أنه كلما زادت قدرة الصانع كان أقل انسجاما مع الآلة .

وقد تنبأ هتلر نفسه بهذه الصعوبة فيما يختص بعلاج هؤلاء الذين لم يستطيعوا

---

(١) Roberts HB 242

أن يكرسوا أنفسهم قلبياً للخضوع فى خدمة الدولة. فى كتابه كفاحى Mein Kampf رأى من الضرورى أن يفرق بين هؤلاء الذين يخضعون بالفكر والإحساس فحسب ، وبين هؤلاء الذين يشمل خضوعهم الإرادة والعمل . « إن التابع Anhanger لأية حركة هو الذى يفهم أهدافها ، ويقبلها ؛ ولكن العضو Mitglied هو الذى يقاتل من أجلها »(١) .

وإن مشكلة النازى كانت تحويل أتباع الجماعة إلى أعضاء فى الدولة members of a state أى ترجمة الفكر والإحساس إلى إرادة وعمل. وقد فهموا دائماً أن هذا كان مسألة من مسائل تأليف القلوب أكثر مما كان مسألة من مسائل الإرغام ، وكذلك لم ييأسوا أبداً من الوصول إلى إخضاع الإرادة والعمل عن طريق القهر النفسى للفكر والإحساس . ولقد قال الزعيم هتلر : « إن فن الدعاية هو هذا : عند ما تثير خيال جماهير الشعب بجذب إحساساتهم تتوخى أقوى الأشكال السيكولوجية فى التأثير ، لتصل به إلى الانتباه والقلوب »(٢) . إن السوط ، والمدفع الرشاش ، ومخيمات الاعتقال ، ربما أعطت السلطة ؛ ولكن الدعاية هى المديح المتعصب ، الذى ترجعه السلطة القهرية إلى علم النفس .

وليس من الضرورى أن نؤكد ما تبع ذلك من اهتمام ؛ صرفه القادة النازيون إلى كل تفصيل من تفاصيل الرموز غير اللغوية واللغوية . فالصليب المعقوف ، وطقوس الخطوة العسكرية ، والموسيقى ، والغناء ، وطريقة السلام العسكرى ، والهتاف « بهايل هتلر » ، كل أولئك أشكال مختلفة للاتصال الرمزى الذى يعبر فى نفس الوقت عن التفكير والإحساس والعمل المباشر . وكانت الحاجة إلى استعمال شكلين من أشكال الاتصال فى المجتمع الحديث أكثر أهمية من ذلك ؛ ذانك هما الصحافة ،

---

(١) Hitler MK 651.

(٢) the same 198.

والإذاعة ؛ وهما الأداتان المادتيان من أدوات الثورة اللغوية.أما بالنسبة إلى الصحافة ، فإن جوبلز ربما كان ناجحا . ولـكن قوة الـكلمة المنطوقة فى العالم الحديث جعلت حتى جوبلز يفشل فى جعل الإذاعة تحت سيطرته تماما ، فموجات الإذاعة تتجاهل الحدود الدولية.واللغات الأجنبية لا تصبح أجنبية إلا لعدد من الناس يقل بالتدريج . وإن مصادرة كل أجهزة الراديو فى الريخ كله ربما كانت وسيلة فعّالة تجعل التفـكير والإحساس عند الشعب الألمانى غير مدنسة بآثار البرابرة فى الخارج.ولـكن مصادرة كل أجهزة الراديو ربما كانت كذلك حرمانا للزعيم من أقوى أدواته . وقد تسربت الأنباء من الخارج إلى الريخ قبل الحرب على أى حال ، كنتيجة من نتائج هذا ، برغم وجود أكثر القوانين ردعاً (١) .

وليس هذا إلا مثلا من أمثلة المعضلة الدائمة فى المناهج السياسية الجماعية فى يومنا هذا ، أى أنه فى الوقت الذى تأتى فيـه الثورة اللغوية بوسائل لخلق تكامل أشمل فى المجتمع ، تجعل المجتمع عرضة لقوى التفـكك الآتية من الخارج . فإذا نظرنا نظرة أكثر شمولا ، وجدنا هذا فى الحقيقة شرطا دائما فى كل خطوة من خطوات التطور الإنسانى فيما يخص الاتصال اللغوى منذ بدء الخليقة . فحين يتعلم الإنسان أن يتكلم إلى جاره ، تزداد إمكانيات الاتصال الاجتماعى إلى غـير حد ، ويزداد معها أمن كل عضو فى الجماعة اللغوية فى عالم متناحر . ولـكن تطور اللغة يزيد كذلك فى خطر احتمال استراق العدو المختفى للسمع فى مناقشة أية خطة مقترحة ، واحتمال أن يُضْبىء رجلا عن ولائه لهذه الجماعة بنفس هذه الأداة النطقية .

ويبدو مع هـذا أن قادة النازى فى الحدود التى حددتها هـذه الظروف القاهرة للـكلمة المنطوقة قد وصلوا إلى مستوى عال من النجاح فى مهمتهم السياسية ، وهو تنظيمُ عقلٍ نازىٍ جماعى ، بتنسيق الفـكر والعمل لدى قسم كبير من الشعب ،

(١) Roberts HB 254.

و بثبات البنية الجماعية وكفاءتها فى أداء وظيفتها ، بعد اطمئنانها ، عن طريق منظمة متشابكة منسقة من الاتصال اللغوى . وكان كل فرد ذى نشاط سياسى داخل الدولة شاعرا بالأهداف السياسية التى يستحسن أن يشعر بها ، ومتمرنا على المناهج الجماعية المناسبة لذلك . و بذلك نما الشعور الجماعى الساهر على الأهداف الاجتماعية والموجه للعمل الاجتماعى ، عند أكبر قسم من أقسام المجتمع . وفى الوقت الذى تكيف هذا الشعور الجماعى فيه بواسطة الاتصال اللغوى فى المجتمع وفى العالم الخارجى ، قوِّى كذلك من الشعور بالذاتية . وقد وصل العقل الجماعى النازى إلى هذا الحد .

إن الشكل الدرجى للنظام السياسى ربما كان فى حد ذاته ثابت الدعائم ، فكل شخص له مكانه فى هذه الدرجية ، وكلما استمرت الجماعة فى الرمز إلى نماذج تركيبها بكل نوع من أنواع الاتصال ، نما الفكر والإحساس والعمل فى الجماعة ، متجها إلى استدامة قدرة البنية الجماعية على أداء وظيفتها .

فإذا كان ثمة ضعف فى الدولة النازية ، فلم يكن هذا الضعف فى النموذج الدرجى المثالى الذى صيغت عليه البنية السياسية ، ولا فى المناهج الجماعية المستخدمة فى المحافظة على ذلك النموذج بل كان الضعف فى الحصر الضرورى للشعور الجماعى فى حدود ما أراد القادة للمجتمع أن يعرف ، ولا سيما فى صرف الشعور الجماعى عن الانتباه إلى دوافع جماعية معيّنة.وهذا التحديد الأخير للشعور الجماعى له خطر خاص على الاستقرار السياسى . و إن توجيه الشعور الجماعى إلى المناهج الجماعية إذ يتسبب فى ازديادصلاحية هذه المناهج لأداء وظيفتها ، كما أشرنا إلى ذلك ، ربما تسبب فى نفس الوقت فى صرف الشعور عن الدوافع الجماعية. فإن صلاحية الاتصال اللغوى لخلق معرفة أوضح، و إيجاد توجيه للسلوك الجماعى ، ربما كان من نتائجها جعل النواحى الاشتهائية الهامة لهذا السلوك أكثر غموضا . و يزيد احتمال كل أولئك عند ازدياد الاتصال اللغوى . وكلما سلك الشعور الجماعى وسطا لغويا فتعودت الجماعة على الانتباه إلى هذا الجزء

من سلوكها المرموز إليه بالكلمات ، زاد احتمال أن يظل السلوك غير المرموز إليه فيما وراء الشعور الكامل .

تلك كانت الحالة فى ألمانيا النازية . فلم يتسع الاتصال الجماعى ليشمل التفكير ، والإحساس ، والعمل الجماعى ، وكثير مما خطر فى الفكر أو الإحساس أو الرغبة أو العمل عند قادة الدولة ، وباسمها غالبا ، لم يُعطَ شكلا علنيا ، وبقى من ثم مختفيا عن الشعور الكامل للمجتمع فى عمومه . ولكن تَعْمِيَةً كهذه فى العصر الحاضر الملىء بالاتصال اللغوى لا تكاد تتم فى الغالب . فإن معرفة كل مجتمع بنفسه تنعكس عليه من الخارج . وهكذا وُجد فى ألمانيا تيار دائم تحت السطح ، وحركة لم تعلم بها الدولة كدولة ؛ أى حركة أرغمت على الغوص تحت مستوى الشعور الجماعى . وسنعود إلى طبيعة هذا النوع من الحركات السرية فى المجتمع وصلتها باللغة فى الفصل التالى .

(٣)

ونموذج الدولة السوفييتية درجىّ أيضا ، ولكن بينا يقف الهرم النازى على قمته ، يقف الهرم السوفييتى مستقرا على قاعدته . فيجب على الألمان أن يطيعوا هتلر لأنه هو الذى اختارته العناية الإلهية ، ويجب على الروس أن يطيعوا ستالين لأنهم اختاروه بأنفسهم . وإن جوهر النظام السوفييتى هو أنه نظام من الهيئات (Soviets) أى من اللجان الشعبية . وإن هذه اللجان هى التى تتكون منها القاعدة ، والوحدات المكونة للبناء كله .

والمناهج الجماعية السياسية فى الاتحاد السوفييتى وُضع تصميمها للمحافظة على هذا البناء . وإن أول خطوة فى انتخاب النواب جميعا طبقا لدستور ١٩٣٦ أى دستور ستالين (من مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد إلى لجان نواب العمال المحلية) ، هى اختيار المرشحين عن طريق الهيئات الشعبية الانتخابية . وإن اختيار المرشحين محصور فى هذه الهيئات التى يجب أن تتكون من جماعات معترف بها كاللجان

الفرعية للحزب الشيوعى ، والنقابات ، والجمعيات التعاونية ، ومنظمات الشباب ، والجمعيات الثقافية . وإن عمليـة انتخاب النواب تتم فى الواقع فى المناقشات المتصلة بالترشيح لهـذه الهيئات الانتخابية ، لأن مرشحا واحدا هو الذى يختار فى ورقة الانتخاب ؛ حتى إن كل ما يستطيع الناخب أن يفعله محصور فى حدود الموافقة أو عدم الموافقة على المرشح الذى وافقت عليه الهيئة الانتخابية .

ومما يفهمه قادة الاتحاد السوفييتى فهما تاما أن هذا النوع من مناقشات الاختيار هو عملية من عمليات التثقيف السياسى التى ربما يعى المواطن عن طريقها بالمشاكل السياسية ، ويصبح عالما بطرق حلولها . والمطلوب منـه أن يهيىء نفسه ليصبح عضوا نشيطا فى الجماعة ؛ فإذا قام بدوره فى هذه الناحية ، فقد أدى واجبه الأساسى للدولة ؛ لأن هذه الهيئة وهى نفسها سوفييت تختار النواب الذين يكونون سوفييتات بدورهم. وهذه السوفييتات تختار سوفييتات أخرى . وهكذا يبدو الاتحاد فى صورة درجية من السوفييتات ، حتى إن الثقافة السياسية يجب أن تصبح ثقافة اجتماعية ، أى ثقافة الفرد فى جماعة هو عضو فيها ؛ وتتم هذه الثقافة عن طريق هـذه الجماعة . إن الفرد يؤدى وظيفته سياسيا لا باعتباره فردا بل باعتباره عضوا فى جماعة . وأصغر جماعة سياسية نشيطة هى السوفييت المحلى . هذا هو التطبيق العملى للمبدأ الماركسى الأساسى الذى اقتبسه « بوخارين » ووافق عليه حين كان قوى الصلة بستالين : « ليس شعور الناس هو الذى يحدد وضعهم فى المجتمع، بل إن وضعهم الاجتماعى هو الذى يحدد شعورهم » . (١)

إن الثقافة الاجتماعية فى الحقيقة هى الأداة الرئيسية فى النظام السوفييتى للعمل السياسى الجماعى . ويكرر « ميتارد » إذ يحاول أن يشرح ما يبدو بالنسبة للأجنبى أنه ظواهر غريبة فى السياسة الداخلية السوفييتية، أن الشعب الروسى يعيش فى المدرسة ،

---

(١) Bukharin HM 207

وأنه يتلقى الثقافة من الحزب الشيوعى [١] . إنها هى نفس الثقافة الثلاثية الضرورية الآن فى كل مجتمع حى من الناحية السياسية:فيجب أن يشعر الناس بأهداف الاتحاد وأن يحسوا بالرغبة فى استكمالها ، وأن يتمرنوا على المناهج الضرورية لذلك .

أما من جهة الأهداف فما دام من خصائص الدولة السوفييتيه أن تكون دائما فى تقدم ، وفى تكييف لموقفها على الدوام ، ليتناسب مع الظروف المتغيرة ، فإن مثاليتها أيضا يجب أن تظل فى تغير دائم . ومن ثم كان من المعترف به أنه يجب أن يكون هناك استعداد لصوغ المثالية صياغة جديدة كلما تغيرت ، أو بعبارة أخرى ، أن يكون هناك اطمئنان إلى أن المجتمع على علم بأهدافه . لأنه كثيرا ما يحدث لأى مجتمع ألا يكون فى مجموعه شاعرا بالأهداف التى اختارهاله قادته . إن تخصص العمل فى الاتحاد السوفييتى يحتم وجود شخص معين من أخص شأنه أن يلاحظ اتجاه الحركة ، ويفسر الأعمال فى المجتمع للمجتمع ، وبهذا يجعل الجماعة شاعرة بسلوكها . ومرة أخرى نورد عبارة « بوخارين » « يمكن اعتبار التطور فى المثالية شكلا خاصا من أشكال العمل يدخل فى نطاق نظام العمل العام » [٢] .

إن الشعور بالأهداف ليس فى نفسه كافيا ، فيجب أن تكون ثمة رغبة فى تحقيقها . وتعرف الفلسفة السوفييتية معرفة جيدة أن المسألة الرئيسية فى الثقافة السياسية هى اتخاذ أهداف جديدة بدلا من الأهداف التى خلقتها الطبيعة والتقاليد ، كاختيار الدافع إلى خير المجتمع بدل النزعة إلى المكسب الشخصى . وتلك إعادة تكييف reconditioning لها نفس الروح التى فى عمل « بافلوف » . فثمة واقع جديد هو خير المجتمع، حل محل الدافع القديم إلى خير الفرد . ومن ثم لم يكن هذا مثيرا للدهشة ، كما أوحى بعض الناس بأن بافلوف على كونه ضد الطفرة كان يجب أن تتقبله الثورة السوفييتية وتشيد به ، وأن توضع تحت تصرفه موارد معهد ضخم للبحث . وقد نظر

---

(١) Maynard RP 453, also Barker RG 325

(٢) Bukharin HM 217.

إليه قادة الثورة باعتباره باحثا فنيا فى علم النفس الإنسانى يهدف إلى كشف الستار عن الأسس العلمية للمناهج التى يتحتم عليهم استخدامها .

وقد رأى بافلوف بمنتهى الوضوح أن الناس يمكن أن يعاد تكييفهم حتى يقبلوا الأهداف الجديدة باعتبارها دوافع للعمل الاجتماعى. وفى فجر الثورة عام١٩١٦ حض مواطنيه على أن يعترفوا بأهمية رد الفعل الغائى « reflex of purpose » وقال إن هذا رد فعل يمكن القول به كأى رد فعل آخر مشروط Conditioned reflex وقد حضهم على أن يطرحوا عنهم قيود صفتهم الشعبية القديمة ، التى هى عدم دوام الهدف،وهى خاصية لم تعد تستعصى على المحو أكثر من أية عادة أخرى ،ور بما كانت فى نفس الدرجة من التعرض لإعادة التكييف .

« حينما تثير الظواهر السلبية فى الخلق الروسى (الكسل وعدم المغامرة ، وعدم الجدية فى كل عمل حيوى) مزاجا حزينا فى نفسى ، أقول لنفسى : لا . ليست هذه صفاتنا ،إنها ليست إلا مرضا سطحيا ، ولعنة موروثة من عهد الرق . وإن رد الفعل الغائى الذى اختفى فى التاريخ الروسى يمكن أن يسترد. فإذا اعتز كل منا به بينه و بين نفسه ، باعتباره أنفس جزء من كينونته ، وإذا جعل الآباء والمعلمون من جميع المراتب همهم الرئيسى أن يقوّوه ويتطوروا به بين العامة ، وإذا هيأ مجتمعنا ودولتنا فرصة حقيقية للتعودعليه فسوف نصبح إذاً ما يجب أن نكون ونستطيع أن نكونه »[١] .

وهذا الاعتقاد فى ضرورة إعادة تكييف الناس ، وإمكانها ، وفى تربية استجابات جديدة عندهم عن طريق التمرين ، هو فى الحقيقة المبدأ المركزى فى الثقافة السياسية السوفييتية ؛ فيجب أن يفهم جمهور الناس من المدرسة ، والصحافة والإذاعة ، أهداف الدولة ، وأن يتكيفوا بتوجيه الإحساس ، والعمل ، فى اتجاه تحقيقها ،

(١) Pavlov CR (i) 280.

ويجب أن تمحى الأمية فى الاتحاد كله. وحين أريد للصحافة والإذاعة أن تؤدى عملها باعتبارها أدوات المناقشة جاء فى دستور ١٩٣٦ (المادة ١٢٥) أنه سيكون ثمة حرية للصحافة والكلام .

وهذه واحدة أخرى من النقط يحتار عندها الغريب الذى يحاول فهم السلوك السياسى السوفييتى . لأن حرية المناقشة كما قررها الدستور ليست هى الحرية كما تفهم فى الديموقراطيات الغربية . فإن الدستور إذ يتعهد بهذا يضيف قيودا هامة ، فيجعلها « من أجل تقوية النظام الاشتراكى » . وهكذا يضمن الدستور الحرية للمواطنين ، ويقصد بها الحرية الشخصية فى الرغبة فى العمل personal initiative ، حرية السعى إلى فهم أهداف الدولة، حرية توجيه قواه إلى تحقيق هذه الأهداف ، لا حرية العمل ضدها، إنها حرية العمل فى حدود نموذج اجتماعى مقرر ، أو كما يشير « مينارد » إنها حرية لا للفرد كفرد ، بل كعضو فى جماعة ، ولا يسمح لأية جماعة بالوجود إلا من أجل العمل لخير الدولة ، ليس ثمة حرية لإنشاء حزب سياسى يعارض الحزب الشيوعى ، ولا حرية لنطق آراء أو إذاعتها تختلف عن مبدأ الحزب الشيوعى ، بل ثمة حرية لكل إنسان ليعمل ما يستطيع من أجل المساهمة فى عمل الدولة عن طريق فهم الأهداف ، وتوجيه النشاط إلى تحقيقها .

وثمة كما يشير « مينارد » تعارض واضح بين الدولة السوفييتية والديموقراطيات الغربيـة فى وظائف الفرد فيما يختص بالمناهج الجماعية السياسية فى مقابل المناهج الصناعية . فنى بريطانيا والولايات المتحدة مدى واسع ، للفرد فيه حرية التعبير عن المبدأ السياسى ، والدعوة إليه ، أما فى الصناعة ، فإن حريته محدودة فى حدود خدمة النظام الصناعى الذى يجد نفسه فيه . وأما فى الاتحاد السوفييتى فإن ثمة مدى واسعا فى الصناعة ، للفرد فيه أن يعبر عن رأيه وينشره ، ولكنه لا حرية له فى السياسة إلا من حيث خدمة النظام السياسى للدولة .

إن وظيفة الفرد السياسية في الاتحاد السوفييتي محدّدة هذا النوع من التحديد : أى أن يكون عضوا نشيطا فى السوفييت المحلى ، أو أية هيئة انتخابية أخرى ، حتى يكون المرشح أحسن شخص ممكن ليمثل رغبات هـذه الهيئة ، وليس من واجبه أن يكون آراء شخصية فيما يخص السياسة العامة للاتحاد . ونشاطه السياسى محدود تقريبا فى حدود الدور الذى يقوم به فى المناقشات التى تدور فى الهيئة الانتخابية وفى التصويت فيما بعد فى جانب الشخص المرشح .

(٤)

لقد رأينا هـذا المنهج فى صورة عملية فى انتخابات عام ١٩٣٧ التى تلت وضع الدستور الجديد موضع التنفيذ مباشرة ؛ لقد أعطى ستة وتسعون فى المائة من أربعة وتسعين مليونا من المواطنين أصواتهم . وكانت طريقـة الاختيار هى التصويت إما فى صف المرشح الذى على بطاقة الانتخاب أو ضده . وكانت المناقشات والاختيار قد حدثا قبل ذلك فى تسمية المرشحين فى الهيئات الانتخابية أما الانتخاب نفسه فلم يكن أكثر من مناسبة ليعلن الناس فيها تأييدهم للمرشح الذى اختاروه .

إن وصف هذا التطور المنهجى بأنه نوع من الثقافة السياسية الحرة ربما بدا مجافيا للواقع ، فى رأى أصحاب النظريات الديموقراطية فى الغرب ، أما بالنسبة لروسيا ، فهذا شىء جديد فى الثقافة السياسية بلا شك ؛ بل محاولة ثورية لجعل كل مواطن عاملا نشيطا فى المناهج السياسية الجماعية فى الدولة .

وإن مهمة القادة فى الاتحاد السوفييتى هى أن يجعلوا فن الاتصال فى خدمة هذه الثقافة السياسية ، وأصبح وجود منهج للمناقشات فى المراتب الدنيا من الناخبين أكثر أهمية من أن يكون للفرد عامة موقف نقدى بالنسبة للسياسات المركزية للدولة . حقيقة إن هناك بعض الوسائل التى وضعت لتمكن أصغر المواطنين شأنا

من الوصول إلى سمع ستالين نفسه ، ولكن الصعوبات وعدم التأكد فى مثل هذا الاتصال المباشر فى غاية الوضوح . والاعتماد فى معظم الحالات إنما يكون على صلاحية التركيب الدرجى من أسفل مستوى إلى ما يعلوه ، والوحدة السياسية العاملة هى المجموعة الانتخابية لا الفرد المواطن .

وهذا المنهج الجماعى السياسى ، كما هى الحال دائما ، حل وسط بين المبدأ الأسمى والأوضاع الراهنة . فليس ثمة أدنى شك فى نوايا القادة فى الاتحاد السوفييتى ، كما هو واضح من الإجراءات العملية التى اتخذوها . فقد أخذوا على أنفسهم أن يثقفوا الشعب ، أى أن يضعوا فى متناوله القدرة على استعمال الكلام والكتابة استعمالا ضروريا للأداء المنتج فى المناقشات الجماعيــة ، ولا بد من استعمال كل شكل من أشكال الاتصال الرمزى ، كاستعمال كل أنواع الفنون ، والوسائل الآلية التى توجد فى وقتنا هــذا ، كالصحافة ، والسينما ، والراديو ، ليصير الناس شاعرين بحاجاتهم وواجباتهم .

إن القاعدة المركزية فى المنهج السياسى السوفييتى فى الوقت الحاضر ، إذا حكمنا بحسب ما نعلم من تطبيقها ، هى هذا : يجب أن يكون كل رجل قارئا كاتبا ، يستعمل الكلام ، والكتابة ، والاستماع ، والقراءة ، بصورة كافية ؛ لأنه لا يستطيع أن يكون عضوا عاملا كفئا فى الجماعة إلا بهذه الوسائل . وهدف المناقشة فى كل جماعة هو توحيد الفكر ، والإحساس ، والعمل ، وهذه الجماعات الصغرى تم تكوينهــا لتكون أساس العقل الجماعى الدرجى فى الاتحاد السوفييتى كله . وفى المجتمع الذى يتكون بهذه الصورة لا توجــد حاجة إلى سلب الحقوق السياسية من الأمى ، لأن طبيعة الأشياء تبعد به عن الاشتراك العملى فى الحياة السياسية ، فالقدرة على القراءة والكتابة مؤهل ضرورى للانتفاع بحق الانتخاب .

وواضح أن هذا النموذج من نماذج العمل السياسى مكيف تكييفا تاما ليتمشى مع حاجات الاتحاد السوفييتى ، وهو إذ يتخذ أساسا فى الشيوعية المحلية التقليدية فى القرية ، يمنح هذا الشعب الضخم تقاربا وتكاملا ، ويحقق عن طريق التطور بوسائل الاتصال وتنظيمها درجة غير عادية من التكامل فى هذه الدولة الدرجية ، كما رأينا فى الحرب . ولكن النظام السياسى السوفييتى له معايب كامنة فى شكله وأداء وظيفته. فإن صلاحية الاتصال القوى وتعقده قد جعلا من الممكن مرة أخرى أن يتم توجيه الشعور الجماعى بحسب خطة . والمعايب الناتجة فى الاتحاد السوفييتى يمكن تتبعها فى نقطتين؛ فانتباه السوفييت المحلى أو الهيئة الانتخابية متجه إلى أهدافه المباشرة ، أكثر من اتجاهه إلى أهداف الاتحاد السوفييتى فى عمومه ، ولا يرتفع صوت حتى فى وسط هذه الجماعة المحدودة من أجل الفكر والإحساس الذى لا يتفق مع الصيغة الاشتراكية للسوفييت كما تفهم فى المستوى المحلى .

وهذا الحصر لانتباه الجماعة فى حدود ما يهمها هو نتيجة مباشرة للبنية الدرجية التى تعتبر الجماعة وحدة منها . فالجماعة تؤدى وظائفها بصورة مرضية حين تختار ممثلين ترى الجماعة أنهم يتوخون الأهداف الاشتراكية لها . ولهذا تميل المناقشات فى داخل الجماعة إلى أن تدور حول أهدافها الخاصة ، ولا تصاغ صياغة جماعية واضحة إلا هذه الأهداف فقط . فلا تسمح الجماعة لنفسها بأن تعطى تعبيرا كاملا للفكر والإحساس اللذين لا ينطبقان مع اشتراكية السوفييت . وهكذا يبقى هذا الفكر والإحساس فى الغالب وراء شعور الجماعة . والإحساس الذى يتجه إلى الأهداف الكبرى للاتحاد السوفييتى فى مجموعه ، والدوافع التى تدفع إلى هذه الأهداف ، لا تصاغ صياغة جماعية كذلك . وهكذا لا يطلب من الوحدة الداخلة فى هذه

المنظمة الدرجيــة أن تهتم اهتماما عمليا بالأهداف والدوافع عند هذا النظام الدرجى فى مجموعه [١] .

وربما أدى تطور الاتصال إلى إضعاف الترابط فى النواحى الأخرى من السلوك الســياسى الجماعى ، عن طريق زيادة الــكفاءة فى مناهج هذا السلوك . فــكلما وُضع بعض الفــكر والإحساس فى صورة لغوية وضعا أتم ، وجدنا بعض النواحى الأخرى التى توضع بنفس الدرجة فى صورة لغوية تغوص تحت مستوى الشعور الجماعى . ومع هذا يزداد نطاق الاتصال الجماعى حول المواطن الســوفييتى طول الوقت حتى إنه ربما شمل العالم كله، و يظل كذلك حتى لا يجاوز بآثاره إلا القليل ؛ أما الفرد المواطن، فكلما ازدادت قدرته على القراءة والــكتابة زاد تعرضه لأن تتساقط عليــه رموز الفــكر والإحساس التى لا تزال وراء شعور جماعته كجماعة . وهنا من ثم احتمال نزاع وتفــكك فى الفــكر والإحساس والسلوك عند الجماعة .

٥

إن الفرض المركزى للديمقراطية الغربية ، وما يطابق ذلك من المناهج الجمــاعية فيها، محدد فى نظريتها السياسية بقدر ما هو محدد فى النازية والاشتراكية الســوفيتية . فالهدف النهائى هو حرية الفرد فى تنمية شخصيته ، أما المنهج الذى يتم هذا عن طريقه فهو الحــكومة النيابية الحزبية ، المعتمدة على المناقشة . إن الاتفاق النهائى يتم عن طريق الاختلافات الفردية فى الرأى . ومن الوجهة النظرية على أى حال لا يمكن أن يتم تــكوين الفــكر والإحساس والعمل إلا حيث يكون هناك مجال

---

(١) تظهر المغالاة إلى حد ما فى تصوير المؤلف لشعور الســوفييت المحلى بمجرى الســياسة العامة للاتحاد ولست أشك فى أن الفرد فى الاتحاد السوفييتى شاعر تماما بأهداف الاتحاد فى السياسة والاقتصاد كليهما (المترجم) .

كامل لأن يرتفع صوت الآراء المتعارضة ؛ والمشكلة الفنية فى الديموقراطية الغربيـة من ثم هى أن توجد وسائل المناقشة التى يكون من نتيجتها وجود أساس للعمل الجماعى .

إن المناقشة تفـكير جماعى ، والوسيلة التى لا يستغنى عنها فى هذا هى الاتصال اللغوى . ونحن نجد فى مبدأ تـكوين النظرية السياسية الديموقراطية الحديثة منذ قرن من الزمان اهتماما بمسألة الاتصال اللغوى . وإن الفردية التقليدية للشخص الإنجليزى قد بدأت تتخذ أساسا عقليا ، وتنظّم لتصبح مثلا أعلى للتعبير الحر ، وتبادل الآراء الفردية فى داخل بنية المجتمع المنظمة . وإن نظرية « رسو » القائلة بالعقد الاجتماعى قد وقعت تحت سوط السخرية من « بنتام » لأنها لم تفكر فى مسألة الاتصال . « وقد اخترع « رسو » الخرافة التى جاء بها عن وجود عقد اجتماعى، أى تعاقد يتفق على أساسه أى عدد من الملايين على أن يحكم بعضهم بعضا ، طبقا لأهداف معينـــة ، دون ذكر الوسائل أو الأهداف ، ودون أن يتصل بعضهم بالبعض »[(١)] .

إن اتصال البعض بالبعض : يأتى فى تطور النظرية السياسية الديموقراطية ، بمعنى الاشتراك الحر من الأفراد فى التفكير والإحساس والعمل الجماعى . والوحدة السياسية النهائية فى نظر « بنتام » هى الفرد لا الجماعة . « إن المجتمع هيئة خرافية تتـكون من الأفراد الذين هم أعضاؤها ، إن صح هذا التعبير ، فما هى الجماعة إذاً ؟ إنه مجموع هم الأفراد الذين تتـكون منهم »[(٢)] والقاعدة الأساسية فى الفلسفة النفعية Utilitarian من ثم أن الحـكومة يجب أن توجهها مصالح أغلبية الأعضاء فى المجتمع — أى أعظم السعادة لأكبر عدد .

---

(١) Bentham OF. xxvii

(٢) the same 4

وفى الوقت الذى نصل فيه إلى « جون ستيوارت ميل » تلميذ « بنثام » نجد شيئا ما قد أصبح عقيدة مركزية فى المذهب الديموقراطى ، هو حق الفرد فى حرية الكلام من أجل صالح المجتمع، الذى هو صالح أغلبية الأفراد الذين يتكون المجتمع منهم . أو بالعبارة التقليدية التى عبر بها « ميل » عن طبيعة الحرية الديموقراطية « إذا اضطر أى رأى إلى السكوت ، فربما كان هذا الرأى صائبا . ويجب أن نتحقق من سماع هذا الرأى » [1] . ويصحب هذا تقدير متطرف لقيمة التعبير الفردى الذى لابد أن يبدو شاذًّا فى رأى النظرية النازية والسوفيتية : « إذا كان كل البشر إلا واحدا على رأى موحد ، ولم يكن على خلاف هذا الرأى إلا شخص واحد ، فليس هناك مبرر لأن يسكت البشر هذا الشخص، أكثر من وجود مبرر له هو إذا استطاع أن يسكت البشر جميعا » [2] إن حرمة هذه الحرية الفردية فى التعبير مرجعها إلى خير المجتمع ؛ فلا يمكن ضمان خير المجتمع إلا عن طريق حرية الكلام .

وتظل هذه نقطا أساسية فى نظرية الديموقراطية ، وتظل المناقشة منظوراً إليها باعتبارها واسطة للديموقراطية لايستغنى عنها ، أو بالتعبير الذى صاغه أحد ممثلى شراح هذه النظرية « إن المناقشة الحرة بين الأفراد كانت المنبع والأصل فى نظامها : والمناقشة الحرة بين الأفراد لاتزال طريقتها وجوهرها ...... وسبيلها المناقشة ، مناقشة الأفكار المتنافسة التى تؤدى إلى حل وسط تلتقى عنده الآراء جميعا ويقبله الجميع لأنهم يجدون فيه آثار أفكارهم » [3] .

ومما له صلة بهذا وجهة النظر الديموقراطية فى العلاقة بين الفرد والمجتمع، فى مقابل المبدأ السوفيتى ؛ فكلاهما يعترف بأن عقل الفرد تشكله الجماعات المختلفة التى ينتمى إليها ، وتأخذ النظرة السوفيتية هذا على محمل أن الفرد فى الجماعة يتعلم

---

(١) Mill OL 63

(٢) the same 19

(٣) Barker R.C. 12, 36.

المطابقة Conformity ، أو بالعبارة التي اقتبسناها قبل ذلك من « بوخارين » : إن الوضع الاجتماعي للإنسان هو الذي يحدد شعوره[١] . وتؤكد النظرية الديموقراطية في مقابل هـذا أن الإنسان لا يمكن أن يحقق فرديته إلا من خلال المناقشة ـ خلال احتدامها ، وخلافها ، واصطدامها ، وخلال اتفاق الآراء فيها . وهكذا تفترض الديموقراطية كما يقول « ارنست باركر » أن المجتمع « يكونه أعضاؤه ويحددون أحداثه » وإن الدولة الديموقراطية توجد في النهاية من أجل الحرية الشخصية لكل عضو من أعضائها[٢] . أما مايتبع ذلك من تطور كل شخص باعتباره فردا ، فإن التعبير النموذجي عنـه هو الذي جاء به عالم النفس « مكدوجل » في دراسته للعقل الجمعي . فهو إذ يتكلم في نفس الوقت الذي تكلم فيـه « بوخارين » يقول : « إن شعور الفرد بنفسه يتكون أساسا كنتيجة لاختلاطه بالأفراد الآخرين ـ بالتقليد ، وبالاختلاف ، وبالإجبار ، وبالتعاون ، ولابد أن يظل الشعور بدائيا بدون هـذا الاختلاط »[٣] .

إن المنهج الجماعي السياسي الديموقراطي يأخذ في اعتباره قيمة المناقشة الحرة بهذه الطريقة . لا بأن يتقارب الشبه بين الناس كما في المذهب السوفييتي ، بل بأن تنمو الفردية ـ وبالتوفيق بين الآراء المتعارضة ، لا بالمطابقة ، بل بالملاءمة بينها بالاتفاق . والتعاون النهائي بين الأفراد في نطاق المجتمع يجب أن يكون نتاج الاختلاف ، كما يجب أن يكون نتاج الاتفاق ، حتى ليجب أن يوضع ترتيب ما في كل مرحلة من مراحل الحكم للتعبير عن الآراء المتعارضة . ذلك هو نظام الحكومة القائم على الجدل المستمر . وتتم تسمية المرشحين البرلمانيين عن طريق المناقشة ، ويتم انتخاب الأعضاء بمناقشات أخرى ، ويجب أن تتكون السلطة التشريعية من آراء مختلفة ، ولكن

---

(١) ص ١٩٦ .

(٢) Barker RG. 167 — 10.

(٣) Mc Dougall GM. 165

نظرية الحكومة الحزبية تنبنى على أن مدى الاختلاف يجب أن يضيق ، فيصبح الخلاف فى الجدل غير ذى خطر . أو كما أشار المستر تشرشل إلى ذلك فى مجلس العموم : إن ترتيب القاعة ينتج عنه تقسيم المجلس إلى هؤلاء الذين يؤيدون حكومة صاحب الجلالة وهؤلاء الذين يعارضونها . و إنشاء مجلسين يدل فى النهاية على المرحلة الأخيرة من الجدل البرلمانى .

وفى خلال هذه العملية الطويلة من المناقشة لا نبحث عن المطابقة ، ولكن عن اتفاق العناصر المختلفة حتى إنه حين يتم الاتفاق فى النهاية على إجراء تشريعى ، يدل ذلك على تأكيد أن الآراء المتعارضة قد اتفقت على أن تسلك الطريق التى اختارتها الأغلبية ، لا على أن ثمة تطابقا فى الآراء فى المجتمع كله .

فالعقل الجمعى فى الديموقراطية ليس درجيا ، ولكنه جدلى فى تكوينه ، فهو قوى متعارضة ديناميكية دائمة . وهو تعارض فى الفكر ، وتعارض فى الإحساس ، ينجم عنه عمل يعبر عن أعلى درجات الاتفاق . ومن أجل خدمة أغراض مثل هذا العقل الجمعى ، تدعو الحاجة إلى مناهج جماعية مركبة كثيرة المرونة فى صورة بنية درجية أيضا . و يجب على الخصوص أن تكون ثمة وسائل مركبة مرنة من الاتصال اللغوى ، لا أن يكون هناك حرية مناقشة فحسب ، لأن ذلك هو الأساس . وإن حرية الكلام إذا أريد لها أن تكون أسمى من مجرد ثرثرة لا هدف لها فمن الواجب أن تعتمد على حريات أخرى . وهؤلاء الذى هم أحرار فى أن يتكلموا فحسب ، ليسوا إلا أفواها تخبط خبط عشواء ، كما فى تعبير ملتون اللاذع وليست حرية الكلام أكثر من أصوات ، إذا لم تحمل معها الحرية ، والوسائل ، للحصول على معرفة ضرورية للحكم على الأشياء . وحرية الكلام عمياء ، مالم يقدها الشعور بأهداف المجتمع . وهى فوضوية ، مالم تحركها الرغبة فى خير المجتمع . وهنا يكمن الضعف

الذى يمكن أن يوجد فى الدولة الديموقراطية : ذلك هو إخفاق أداة الاتصال فى أن تجارى مقتضيات المناقشات الحرة .

وقد رأينا منذ بداية القرن التاسع عشر محاولات متفرقة مكررة فى الثقافة (سواء أكانت حرة أو موجهة من الدولة) ترمى إلى استكمال القدرة العامة على القراءة والكتابة الضرورية للعمل المنتج للمناهج الجماعية الديموقراطية . ولكن فجوة واسعة كانت دائما موجودة . أما اليوم ، إذ تتغير المجتمعات الديموقراطية بسرعة أكبر مع زيادة سرعة تطور الحوادث ، فثمة اختراع دائم للمناهج السياسية الجماعية ، يناسب ما يجد من حاجات هذه المجتمعات . ولكن الفجوة بين كفاءة المنهج وتعقد العمل تزداد اتساعا .

إن الحقيقة المجردة فى كون الدولة الديموقراطية قد نمت فى عشرات السنين بدل أن يتم تخطيطها فى مجموعها فى لحظة واحدة ، كما فى ألمانيا النازية أو الاتحاد السوفيتى هى وحدها مصدر من مصادر القصور الذاتى . فثمة فقدان الدافع الذى تراه فى الصياغة الحديثة للأهداف كما فى كتاب « كفاحى » أو « دستور ستالين » . وأعضاء المجتمع فى الدول الديموقراطية سواء أكانوا قادة أم مقودين ينقصهم كذلك التوجيه الذى يأتى من الانتباه الدائم فى الدول الجديدة لمناهجها السياسية الخاصة . أما فى الديموقراطيات ، فإن الأمر كما لو كان من المسلم به أن كل مواطن شاعر بدوره الخاص فى العمل السياسى الجماعى ومتجه إلى تنفيذ ذلك . أو بعبارة أخرى كما لو كان ثمة تخصص فى الوظيفة كنتيجة من نتائج التقاليد ، دون ضرورة للصياغة الجماعية والتوجيه الجماعى .

وكان من نتائج ذلك أن المواطن العادى فى الديموقراطيات ظل دائما أميل إلى عدم النشاط ، ولا يغرى بالعمل إلا بصعوبة ، وهو من ثم ميال إلى أن يظل خاملا حين لا يهتم إنسان بإثارته ، وكذلك حين يكون من هم القلة الحاكمة أن تتأكد

من أنه سيظل خاملا . أضف إلى ذلك أن وسائل الاتصال اللغوى، ولا سيا الصحافة من بينها (وهى التى تمنحه الوعى وتدفعه إلى العمل) ، ربما تظل تحت سيطرة قوم قد يكون مافى الاتصال من وعى ونشاط خطرا عليهم ، أو غير مقبولَيْن عندهم على الأقل .

وتشكو الدولة الديموقراطية كذلك من صعوبتين تخلقهما الظروف الخاصة فى الوقت الحاضر — وهما صعوبتان يسهل التغلب عليهما فى الدولة الدرجية . أما أولاهما فتعقُّد الدولة الحديثة ، وأما الثانية فضخامتها .

(٦)

إن تعقّد الدولة الحديثة آتٍ من زيادة عدد أنواع النشاط التى تتولاها الدولة عن الفرد ، وتجعلها بهذا فى نطاق حقل السياسة . فخدمات الكبار والصغار، والمرضى والأصحاء ، فى كل ناحية من نواحى مصلحتهم الجسمانية والعقلية ، كل ذلك يصبح بالتدريج وبمضى الوقت من هَمّ الدولة . وكثير من تعقد هذه الوظيفة لا يعقل إلا مع وجود الوسائل المنتشرة المتشابكة للاتصال اللغوى ، وتتوقف حيوية الدولة بصورة متزايدة على انتشار الاتصال الكتابى؛ وإذا أردنا التوسع فى الاصطلاح الذى يصف به « ممفورد » المدينة الحديثة يمكن أن نقول إن الدولة اليوم دولة ورق [(١)] .

ومعنى هذا أن المواطن فى المجتمع الديموقراطى إذا أريد له أن يلعب دوره فى المناهج الجماعية السياسية ، فيجب أن يوضع فى متناول المعلومات ، وأن يصل إلى المقدرة على فهم دلالاتها ، وأن يتمرن على أداء أعماله المستقبلة . ويجب أن يكون ثمة منهج فى المجتمع يتجه إلى الحصول على المعلومات، والتطور بوسائل توصيلها ، والثقافة فى طريق استخدامها . وفى الدولة الدرجية لا يحتاج اهتمام المواطن إلى أن يشمل إلا مدى محدودا للوظيفة السياسة المنوطة به — ففى الدولة النازية لا يشمل هذا إلا طاعة الرئيس

---

(١) Mumford Ce 255.

المباشر ، وفى الدولة السوفيتية لا يشمل إلا وظائف الجماعة المباشرة التى هو عضو فيها . ولكن المنهج الجدلى للديموقراطية يتطلب ولو نظريا على الأقل أن يشمل هم المواطن كل الوظائف فى مختلف نواحى الدولة، وأن يكون ثمة شعور جماعى كامل بكل مدى أهدافها ومناهجها .

وهذه مهمة بطولية بالنسبة لأى مجتمع يتوخاها ، ويظنها بعضهم مهمة مستحيلة، ولكن الديموقراطيات ، وهى لا تحس بخطورة هذه المهمة ، لم يكن يبدو عليها حتى الآن أنها تعرف كمجتمعات مقدار خطورة هذه المهمة .

وأول شىء فى هذه المهمة هو الحصول على المعلومات . وقد أشار « ليبمان » إلى أنه حتى أعضاء الهيئات التشريعية فى الولايات المتحدة يجهلون حقائق كثير من المسائل التى تطلب منهم مناقشتها . وأقصى ما يمكن أن يتوقع من عضو عادى من أعضاء مجلس الشيوخ هو المعرفة بأمور ولاية التى جاء منها[1] . ولا بد كذلك أن يكون ثمة كثير من الأمور فى البرلمان البريطانى لا يمكن لشاغلى المقاعد الخلفية أن يكونوا على علم كاف به . فما احتمال وجود رأى عام مثقف إذاً بين الناخبين العاديين ؟

وكلما انعدم المنهج الملائم للإخبار بالحقائق الصريحة فى صورة معلومات منظمة ومهيأة لأن تتخذ أساسا للعمل فلا بد من وجود جهل كهذا . ولم تفعل الحرب العالمية الثانية أكثر من زيادة إيضاح الحاجة إلى إعداد مطبوعات فى الإحصاء السياسى والاجتماعى ، ولكن لم يكن ثمة دافع إلى المطالبة بوجود « هيئة اقتصادية عامة » ، و « تدريب أحسن للموظفين المدنيين على الطرق الإحصائية »[2] ، إلا بعد ذلك بخمس سنوات .

وإلى جانب منهج الحصول على المعلومات وتنظيمها ، توجد الحاجة إلى منهج

---

(١) Lippmann Po 290

(٢) Manchester Gardian June 16, 1944

لنشرها . وليس معنى ذلك مطلقا أن كل رجل أو امرأة فى الديموقراطية سيكون له من المعلومات ما يمكنه من الوصول إلى رأى مستقل ، حتى فيما يخص الأهداف والأعمال الكبرى للدولة . بل يجب أن يكون ثمة تخصص و « توزيع للعمل » فى المناهج السياسية لا يقل عما فى المناهج الصناعية ، كما أشار « ايرنست باركر » [1] . والمعلومات التى تصل إلى المواطن العادى مهما كانت دقيقة لا يمكن أن تكون إلا خطوطا عريضة . ولكن الميول الحديثة فى تعليم الكبار،وفى الصحافة، وفى الإذاعة، تدل على أن من الممكن أن نصل إلى نشر للمعرفة أوسع مما بدا بالفعل حتى الآن ليكون أساسا لمناقشة المسائل الاجتماعية والسياسية .

وهذه عادات جماعية ، تنمو نموا هادئا إلى أن تصبح مطالب اجتماعية نصف شعورية. فهل يمكن بعد هذا المنهج من مناهج نشر المعلومات السياسية أن يأتى به المجتمع ويوجهه ؟ لقد أشرنا إلى أن تعقد الموضوعات السياسية يمكن أن يُبَسَّطَ دون فقدان الدقة الأساسية للمعلومات . ولكننا لا نزال نواجه مشكلة الحجم . فالدولة الحديثة لاتقل عن الصناعة الحديثة ، والحرب الحديثة ، فى « تأثرها بالضخامة » . فهل يمكن لكل المواطنين فى الديموقراطية الحديثة أن يحصلوا على ماتقدمه الدولة من معلومات؟ وهل تقترف المنظمتان العظيمتان (الكومونولث البريطانى ، والولايات المتحدة) خطأ تحطيم نفسيهما لأن ذهنيهما أصغر بكثير من جسميهما ؟

ولكن أحد الأسباب الرئيسية للتضخم السياسى هو أيضا سبب رئيسى لعلاجه. فالشرط الأساسى لنمو الدولة الشاسعة ، سواء أكانت ديموقراطية أم استبدادية ، هو وجود لغة واحدة مشتركة،غير أن هذا أيضا هو الوسيلة الرئيسية لخلق فكر وإحساس وعمل مشترك فى سائر أنحاء الدولة . والحق إنهما الوسيلة الوحيدة التى تستطيع الديموقراطية الضخمة بواسطتها أن تأمل فى الوصول إلى خلق عقل جماعى يتناسب مع

---

(1) Barker RG 38

حجم تكوينها السياسي: ومن هنا تأتي أهمية وجود لغة مشتركة في الولايات المتحدة، ودلالة توخي الحكومة البريطانية في عام ١٩٤٤ لما يسمى Basic English أو الإنجليزية الأساسية باعتبارها لغة مساعدة. وقد أوضح مستر تشرتشل في حديثه إلى البرلمان بهذه المناسبة أن في نية الحكومة أن تشجع على استعمال الإنجليزية الأساسية لا باعتبارها وسطا من أوساط الاتصال بين الكومونولث والدول الأخرى فحسب، بل باعتبارها لغة وحيدة مشتركة بين شعوب الكومونولث جميعا [١].

إن اللغة الواحدة المشتركة مع أنها الضرورة الأولى لوجود مجتمع ديموقراطي لاتزال مجرد شرط لوجود منهج كفء، لاتحقيقا فعليا له، فكل دولة سواء أكانت ديموقراطية أم غير ديموقراطية بحاجة إلى لغة واحدة مشتركة. ولكن طريقة الحياة الديموقراطية تتطلب أن تكون اللغة المشتركة أيضا وسيلة للثقافة المشتركة، بالمعنى الديموقراطي. فيجب أن يستخدم الاتصال اللغوي في نشر المعرفة التي لاينبع الرأي الفردي المعترف به إلا منها، ويجب أن يعطي الاتصال اللغوي الفرصة لكل مواطن أن يشترك في المناقشة، وأن يمرن على هذا الاتصال، حتى يصل إلى مقدرة على المناقشة تجعلها مفيدة: وليس في الديموقراطيات الغربية من كل هذا إلا تباشيره حتى الآن. فالمواطن الأمريكي يعرف عنه الجهل الفاضح بأهداف الاتحاد ومشاكله. ويقال لنا أحيانا إن المواطن البريطاني عنده معلومات أفضل بقليل ولكن ذلك لايكاد يدل على تقدم كبير.

وأولى مراحل عملية التربية السياسية الديموقراطية هي المدرسة، كما هو واضح — ولكنها أولاها فحسب — ومن المؤكد أن الديموقراطيتين الغربيتين كاملتا الشعور بأهمية منح كل مواطن شيئا أكثر من مجرد التعليم الابتدائي. وإن « لويس ممفورد » نفسه، وهو من نتاج الديموقراطيتين كلتيهما، حين يضع قائمة بالمنظمات التي تعاقبت

---

(١) سبقت الإشارة إلى ذلك.

على السيطرة على المدينة منذ القرون الوسطى بسميها بهـذا الترتيب : الحصن ، فالـكنيسة فالقصر ، فالمتجر ، فالمصنع ، ثم المدرسة فى أيامنا هـذه [١] . وإن قانون التربية الصادر فى بريطانيا عام ١٩٤٤ اتجه فى النهاية إلى ضمان بقاء كل مواطن فى المدرسة جزئيا أو كليا حتى يشارف الرجولة . ولـكن حتى هذا ليس كافيا ، إذ يتضح بازدياد مطرد أن الحاجة الملحة فى الديموقراطية تتجه إلى تعليم الـكبار بكل ما تحمله الـكلمة من معنى .

ويجب أن يشتمل تعلّم الـكبار للمنهج السياسى ، كما قلنا ، على نشر المعرفة التى تعتبر أساسا للمناقشة ، وتمرينا عليها كذلك . ولا يستطيع المرء أن يرى فى أى من هذين أكثر من مجرد جذور ديموقراطيتنا . أما فى بريطانيا فإن الإذاعة اليومية للأخبار الصريحة التى يندر وجودها فى الصحف المتداولة ، ربمـا كانت خطوة فى الاتجاه الصحيح . والخطوة الثانية التوزيع العظيم فى خلال الحرب لمطبوعات حكومية ، كـكل ، « كتاب أبيض » رسمى صدر عن التعليم ، والخدمات الطبية الوطنية ، والضمان الاجتماعى [٢] ؛ وكطلب الإذاعة باستمرار لإجراءات البرلمان — وهو أمر كان يمكن أن يبدو على جانب عظيم من الأهمية لأى واحد من الراديكاليين الذين كانوا منذ قرن — وكنشر مقتطفات فى « بنجوين » ، ثم أخيرا ، كتكوين جمعية « التقرير الرسمى » Hansard Society التى غرضها نشر المعلومات عن البرلمان [٣] .

أما طريقة المناقشة فإن الإذاعة تقدم لها وسيلة واضحة وأداة تمرين . وهذه ناحية من نواحى التربية الاجتماعية التى سبقت الولايات المتحدة فيها بريطانيا . فى أثناء الحرب أعطت الشبكة الزرقاء Blue Network الفرصة لـكل مواطن فى الولايات المتحدة أن يشترك فى مناقشة تليفونية أو إذاعية « America's Town Meating of the Air »

(١) Mumford CC 472

(٢) لقد بيع من تقرير بفردج أكثر من ربع مليون نسخة كما ذكرت الأوبزيرفر فى ٦ يونيه سنة ١٩٤٣

(٣) Manchester Gardian Sept. 26, 1944

وتلك إذاعة لمناقشة لا رقابة عليها فى اجتماع عام يتدخل أعضاؤه فى المناقشة بكل حرية[(١)] . ولم يكن فى هيئة الإذاعة البريطانية خدمة شبيهة بهذه فى ذلك الوقت .

وتبقى مشكلة ربما كانت من أعوص المشاكل فى تنمية الوعى الجماعى السياسى عن طريق الاتصال اللغوى، هى خلق ترابط بين الاشتهاء الجماعى Group Orexis ، والشعور الجماعى بالدوافع الجماعية . وتلك مشكلة لا يمكن المبالغة فى أهميتها ، لأن سلوك أى مجتمع إنما يخضع فى تحديده لما يحس و يطلب ، أكثر من خضوعه لما يعلم . فما أحوال الاشتهاء الجماعى والشعور الجماعى بالدوافع؟ هذا هو موضوع الفصل القادم .

٧

دعنا نلخص الآن حقائق السلوك السياسى الجماعى ، فى الأشكال الثلاثة للدولة التى استعرضناها . فبالرغم من الفروق الشاسعة فى الهدف السياسى وما يتبع ذلك من فروق فى المناهج السياسية نلاحظ ثمة جهات تشابه . فالأشكال الثلاثة للدولة تتشابه فى الاعتراف بضرورة إيجاد تكامل نفسى بين أعضائها ، أى بتكامل الفكر والإحساس والعمل ، للسعى إلى الأهداف السياسية للجماعة . وسواء أكان التكامل مطلوبا عن طريق نظام درجى أو جدلى فمن المعترف به أن أداته التى لا يستغنى عنها هى الاتصال ، والاتصال اللغوى بصفة رئيسية .

وفى الدولة الدرجية النازية كان التكامل عن طريق الأمر والطاعة، يوضحه بعض الشعور الجماعى بأهداف الدولة ، تحت ضغط التحريض المستمر ، الآتى من وسائل كثيرة مختلفة للدعوة إلى تحقيق هذه الأهداف . وكل هذه المناهج الثلاثة ــ الأمر والطاعة والعمل ، ثم معرفة الهدف ، ثم التحريض الاشتهائى ــ تتوخى أكبر استخدام للاتصال الجماعى ، سواء منه اللغوى وغير اللغوى . أما نقطة الضعف فى هذه المناهج . فتأتى من أن وجود أدواتها جعل المواطن النازى عرضة للاتصال بحقول

---

(١) Observer May 28, 1944

لا سيطرة للقادة عليها . فحين تحاول هذه المناهج أن تضمن محدودية المعرفة السياسية، وأن تكبت الميول غير المرغوب فيها فى الاشتهاء الجماعى ، تقع الجماعة دائماً تحت هجوم المثيرات الإدراكية والاشتهائية من وراء حدود المجتمع ، ومن العناصر الهدامة فى الداخل . وهذه ظروف تؤدى إلى التفكك والنزاع .

أما فى الدولة الدرجية السوفيتية ، فإن الترابط يتكون عن طريق تحديد العمل السياسى للفرد فى حدود عضويته فى السوفييت المحلى أو فى المناقشة الجماعية . وغالبية المواطنين السوفييت يجتمعون فى مثل هذه الجماعات التى تكون القاعدة الدرجية للسوفييتات . ولهذا نجد فى مكان المنهج النازى من الأمر والطاعة ، منهجاً سوفييتياً للمناقشة الجماعية . ويدعى المواطن إلى أن يشترك فى هذه المناقشة ، وتمده الدولة بالقدرة على القراءة والكتابة والكلام ، وهى القدرة الضرورية التى تجعل اشتراكه فى المناقشة منتجاً ، والتى يستخدمها دائماً فى هذه المناقشة . وقد أحسن تخطيط هذا المنهج ، حتى أصبح أداة صالحة لضمان الترابط بين عدد السكان الضخم المختلف .

وفيه على أى حال نواحى الضعف التى لاحظناها فى المناهج النازية . فالشعور الجماعى بالسوفييت المحلى محدود بأهدافه فحسب ، أما الإحساسات الجماعية التى لا ترضى عنها الاشتهاءات الجماعية ، فتحرم من العرض للمناقشة الجماعية . والمواطن السوفييتى ككل إنسان آخر فى العالم الحديث ، يخضع طول الوقت لسيل من المثيرات الإدراكية والاشتهائية غير المرغوب فيها من خارج المجتمع وداخله . وثمة شىء يجب أن يقال على أى حال فى مقابل النازية ؛ فحرية المواطن السوفييتى فى مناقشة الطرق والوسائل ، وحتى الأهداف إلى حد ما ، ربما كان لها أثر فى جعل تكامل المجتمع غير مهدد بنفس الدرجة التى يهدد بها تكامل الدولة النازية .

وفى الدولة الديموقراطية الجدلية ، ربما تقل درجة التكامل الموجود ، كما يقل إمكان التفكك والنزاع عما فى الدول الدرجية . ولم تكون الحكومة الحزبية

البرلمانية فى أى من الديموقراطيات الغربية أداة قادرة على الوصول إلى وضوح المعرفة الجماعية، أو تـكامل الدافع والعمل فى الجماعة، بالقدر الذى يتسم به النظام النازى والسوفييتى . ولـكن الدرجة العظمى من حرية المنـاقشة تعنى احتمالا أقل للنزاع، وتعرضا أقل لمهاجمة الإدراك والاشتهاء فى الجماعة من الخارج والداخل .

وتبدو فى المنـاهج الديموقراطية أعراض ضعف متميزة، بالموازنة بينها و بين المنـاهج الاستبدادية، إذ لم تنجح الديموقراطيات حتى الآن فى التوفيق بين منهج المناقشة فيها، أى بين الفـكر والإحساس فى الجماعة، و بين حجمها وتعقدها . فهى لم تصل إلى توزيع منظم للعمل كالذى تتطلبه نظرية الحـكومة الديموقراطية ؛ ولم تخلق أدوات لتنظيم المعرفة ونشرها، وللمناقشة المنتجة، ولم تنشىء تدريبا على فنون هذه المناقشة . ولم تنجح كذلك فى خلق وسائل الاتصال الضرورية لتكوين التكامل بين الاشتهاء الجماعى و بين الشعور الجـاعى بالدوافع . ونحن ننتقل إلى هذه المسألة الأخيرة الآن ؛ أى إلى العلاقة بين الاتصال و بين الاشتهاء و بين الدوافع .

الفصل التاسع

اللغة والتكامل الاجتماعى

---

(١)

إن المجتمع الحديث يسأل دائما عن شئون نفسه باستعمال « كيف ؟ » فى صيغة السؤال . وهذا الازدياد فى التساؤل عن النفس سبب ونتيجة لازدياد الاتصال اللغوى . ويعنى نمو شعور المجتمع بنفسه وجود حاجة أكبر إلى الكلام والكتابة عن نفسه ؛ أى إلى الكتب التى تبحث فى تاريخه ، وجغرافيته ، واقتصاده ، وإلى الإحصاءات، والتقارير ، والصحف ، والقصص ، والروايات التمثيلية ويستمر الطوفان وينمو . وهذا التساؤل بدوره يقوده بوضوح إلى زيادة الشعور بالنفس ، ولكن الكلام والكتابة اللذين لا يتصلان مباشرة بشئون المجتمع ربما أديا إلى نفس الاتجاه وكلما اكتسب المجتمع معرفة بالمجتمعات الأخرى ، بما فيها الأحداث التى جرت فى ماضيه ؛ تعلم أن يراقب نفسه ، ويصبح شاعرا بنفسه .

وربما ساهم نمو الوعى بالنفس كما رأينا فى خلق تكامل المناهج ، فهل يميل كذلك إلى خلق تكامل فى الاشتهاء ؟ ولا شك أن من خصائص المجتمعات الحديثة أن تصل إلى درجة عليا للتكامل الفنى تقترن بوجود نزاع عظيم ، وتفكك فى حقل الانفعالات والحوافز . وسنحاول الآن أن نشرح أن هذا النزاع والتفكك لهما صلة بالحالة التى تصاحب ذلك من حالات الاتصال اللغوى . وإن الثورة اللغوية لتعمل فى اتجاهين فى نفس الوقت ؛ فهى تأتى دائما بالظروف المناسبة للترابط الوجدانى

والنزوعى ، ولـكنهـا تزيد فى نفس الوقت من احتمالات النزاع الوجدانى والنزوعى. وسننظر فى خلال هذا الفصل فى الظروف المناسبة للتكامل الاشتهائى ، وفى الفصل الآتى فى الظروف المؤدية إلى النزاع الاشتهائى .

وحين نعالج الاشتهاء فى المجتمع نجد فيما يوازيه من سيكولوجية الفرد ضوءا نهتدى به . وأشهر الحقائق الشائعة فى الحياة اليومية هى النزاع فى الشخص العادى بين سلوكه و بين مبادئه. وقد أضاف فرويد إلى فهمنا لهذا النزاع بتذكيرنا بأن الحوافز الحقيقية للسلوك الإنسانى فى معظم الحالات تخفى عليه . وحين يعلم المرء بحوافزه فيعبر عنها بالـكلمات أو الرموز الأخرى يصبح أقرب إلى تعليلها منطقيا ، أى ينشىء نوعا من الملاءمة إلى حد ما بينها و بين نظام عقائده ومبادئه . فنى سلوك الإنسان إذاً ثلاثة مستويات يتم فيها تـكوين الدوافع إن صح هذا التعبير : حوافزه الأولية ، ودوافعه التى يعلن عنها لنفسه ، ومبادؤه . وهذه المستويات تقابل فى اصطلاحات فرويد ال «هو» (Id) وال « أنا » (ego) والذات العليا (Super-ego) . فال « هو » منبع الحوافز البدائية ، وتعترف ال « أنا » بوجود هذه الحوافز وتعلن عنها فى شكل تنـكرى فى معظم الأحوال ، وأما الذات العليا فهى منطقة المبادىء . وحين ينظر المرء إلى سلوكه يبدى دوافعه لنفسه فى أشكال ملائمة لمبادئه التى يقبلها : أى هذه الدوافع المعلن عنها سواء أكانت كاشفة أم مخفية للحوافز التى لا يكاد هو يعلم بها . وهكذا تدخل الحوافز إلى شعوره، سواء أكان ذلك فى أحلامه ، أم فى حياته اليقظة، متنـكرة فى صورة دوافع مقبولة يعبر عنها بخيالات تصويرية من خصائصها التحويل displacement والتـكثيف Condensation . لأنها تحوير لما يكون دون الشعورى فى الحالات الأخرى . وغالبا مايستحيل أن تصور هذه الحوافز تصويرا كلاميا يؤدى إلى الـكشف عنها فى صورتها العادية ، وذلك للتضارب بينها و بين

المبادئ . فثمة مقاومة من ذات المرء أى ال « أنا » « ego » للاعتراف الكامل بهذه الحوافز النابعة من ال « هو » « id » الذى يتعارض مع ذاته العليا super-ego

وهكذا نجد إحدى وظائف اللغة والرموز الأخرى بالنسبة للفرد أن تجعل فى استطاعته أن يتفق مع حوافزه ، وتمكنه عند هذا الحد من أن ينهى النزاع بين بعض حوافزه المتضاربة و بعضها الآخر ، و بينها كذلك و بين المبادئ التى لاتتفق معها . ولكن نفس هذه الرمزية إلى الحوافز تميل إلى الزيادة فى النزاع . فكلما زاد المرء من شعوره بنفسه ، أى كلما ازداد تعبيره بالكلمات أو الرموز الأخرى عن سلوكه ، زاد احتمال أن يصبح أكثر شعوراً بالتناقض فى سلوكه . ور بما كان الرجل المتمدن عند هذا الحد أضعف أعصابا من غير المتمدن ، لأنه أكثر منه قدرة على القراءة والكتابة ؛ والرجل غير الشاعر بجذور سلوكه أقل تعرضا للنزاع .

وهدفنا هنا هو النظر فيما يشبه ذلك من أحوال المجتمع . فثمة مجتمعات ، كما قال لنا « مالينوفسكى » لا يكاد يوجد عندها الشعور الجماعى بحوافزها ، ولا بالمبادئ السلوكية المنظمة ، ثم لاتحاول هذه المجتمعات أن تضع حوافزها الجماعية فى ضوء النهار متنكرة فى صورة دوافع مقبولة . ومشاكل السلوك الجماعى فى هذه المجتمعات تتعلق بالكيفية لا بالسبب ، فهم يتعلمون « كيف » يسلكون بهذه الطريقة أو تلك ، فإذا سئلوا عن السبب ، وقلما يسألون ذلك، إلا إذا سألهم شخص مثل« مالينوفسكى » كان جوابهم هذه هى الصورة التى اتخذهاسلوكنا دائما . والمجتمع هنا موحد ومتكامل بالوضوح التام فى مناهجه ، إلى جانب الغموض التام فى دوافعه .

ولكن حين يبدأ المجتمع يسأل نفسه باستعمال « لماذا ؟ » فيما يخص سلوكه كمجتمع ، يزداد احتمال النزاع الداخلى فى الحال . فتَتَنَظَّمُ مبادئ السلوك ؛ وحيث لا تتفق هذه المبادئ مع السلوك العملى الذى تقرره دائما حوافز أكثر بدائية ، تبدو الحاجة إلى دوافع مقبولة ، لتسد الفجوة بين المبادئ والحوافز . وهكذا نجد فى المجتمع المتمدن ثلاثة مستويات من تكوين الدوافع ، توازى المستويات الثلاثة عند الفرد :

فهناك المبادئ المنظمة للمجتمع ، والمقبولة من أفراده ، ثم الحوافز التي تحرك المجتمع بقوة ، ولكنها حتى وإن كان الأفراد وفروع المجتمع شاعرين بها ، لم تنظم المجتمع بصفة عامة . وثمة أخيراً الدوافع المقبولة ، المعروفة الأسس ، ولكنها معروفة بطريقة تمكنها من إخفاء مواطن النزاع وتصيتها .

وأحد المبادئ المقررة دائماً عند المجتمع هو مبدأ الإنسانية في معاملة المغلوبين ، وربما كان وجود ذلك المبدأ عمداً في مقابل عدم التسامح الذي يرى في مدنية أخرى. فالحرب تأتي بالنصر ، وفي الحال تبدأ الأفراد والهيئات التي لا تقع تحت تأثير المبادئ الإنسانية في المجتمع في اقتراح معاملة قاسية غير رحيمة للعدو المنهزم . وهذه القسوة وعدم الرحمة تعبر عن حوافز لا تكشف عنها الجماعة في عمومها بصراحة لنفسها ، كالأخذ بالثأر ، وإرضاء الغضب الفطري ، أو حتى الكراهية الصريحة للأجانب والرغبة في تحطيمهم (Xenophobia) فإذا سمح لهذه البواعث impulses أن تظهر في صراحة ، تنازعت مع المبادئ الإنسانية ، وأصبحت الحاجة إذاً إلى الملاءمة بين الحوافز الفعلية وبين المبادئ التي يحرص المجتمع عليهما أمراً حيوياً للمحافظة على الاستقرار الاجتماعي . والدوافع المقبولة يحددها هؤلاء الذين يتكلمون في المجتمع ، كالكتاب ، والمشتغلين بالإعلان ، والمشتركين في المناظرات ؛ فالعقوبة مثلاً يبررها أنها ردع من أجل الجرائم التي اقترفها العدو أثناء الحرب . وهكذا يُعطَى حافز الغضب البدائي ، والانتقام ، والخوف ، لوناً واقياً من ألوان العدالة الرادعة، ويسمح له بالظهور في صورة الدوافع الجماعية المقبولة .

ولا يمكن لعملية من هذا النوع على أي حال إلا أن تكون ناجحة نجاحاً جزئياً ، مع وجود الاتصال اللغوي المتقدم في يومنا هذا . وقد تمت الحاجة إلا إعلان الدوافع لأن الجماعة في عمومها تعودت أن تراقب توجيه الأمور الجماعية ، وأن تستفهم

وتتكلم عنها ، أى تعبر عن حوافزها . ولكن الأفراد والهيئات فى المجتمع يستمرون فى تأكيد المبادئ التى لا تتفق مع الدوافع المعلنة ،أى تعبر عنها بالكلمات أو الرموز الأخرى ؛ ففى المثال الذى ذكرناه هنا قد يؤكدون مبدأ المعاملة الإنسانية . وربما غامر آخرون من جهة أخرى بأن يضعوا الحوافز الفعلية فى ضوء الشعور الجماعى ، مع أن التعبير عن هذه الحوافز ربما كان أقل قبولا ، بل ربما صادره الذين يقومون على شئون المجتمع أو يقودونه . ولهذا نجد تفككا واضحا ونزاعا مستمرا فى المجتمع الحديث ، بدل الترابط الذى تتميز به المجتمعات البدائية ، أو الأقل قراءة وكتابة . فالمجتمع القارئ الكاتب يسأل نفسه أسئلة ، فتؤدى هذه الأسئلة إلى الشعور بالنفس ، ولكن الإجابات التى تأتى بها هذه الأسئلةصحيحة صحة جزئية فحسب ، إذ تؤكد بعض دوافع المجتمع ، وتترك البعض الآخر غامضا ولكنه ليس أقل قوة . وهكذا نجد بعض الهيئات فى نزاع مع البعض فى داخل المجتمع ، بدل أن نجد المجتمع يعمل ككتلة واحدة . ويتميز سلوك المجتمع فى عمومه بتناقض وتخبط ينعكس منه عدم الترابط فى دوافعه .

وقد قال « باريتو » Pareto شيئا من هذا منذ ثلاثين عاما . واصطلاحاته أبعد ما تكون عن الضبط والاطراد ، ولكنه بصفة عامة يضع صورة لما يسميه unknown أوالحوافز ، و residues أو الدوافع المعلن عنها و derivations أو المبادئ المقبولة . ويخبرنا أن الناس يحسون دائما بالحاجة إلى تبرير أعمالهم لأنفسهم بطريقة منطقية . وهم لكونهم غير راغبين فى الاعتراف بحوافزهم الحقيقية ، التى تبقى لهذا غير معروفة لديهم ، يتخذون لأنفسهم دوافع معلنة ومبادئ مقبولة ، شبه منطقية ، وهكذا يصلون إلى توافق جزئى .

ولكن أحد مظاهر الضعف الرئيسية فى دراسة باريتو هو اعترافه غير المناسب بالدور الذى تلعبه اللغة والرموز الأخرى فى هذه العمليات الاجتماعية . حقا إنه يشير

إلى آثار التكرار ، فإذا كان أحد المبادئ المقبولة بسيطا إلى درجة كافية ، وتكرر ذكره بكثرة فسوف يحظى غالبا بقوة دافعة من نفسه،مهما كانت درجة مقبوليته[١].

ويصل صدى هذا إلى النقل من كتاب كفاحى « لهتلر » ، ولكن « لويس كارول » قد أرجع فضل ذلك الاكتشاف إلى بلمان الماركسى[٢] فى كتابه The Hunting of Snark إذ يقول : « الذى أخبرك إياه ثلاث مرات فهو صحيح » .

ولا يقول « باريتو » إلا قليلا أو لاشيء عن العلاقة الوثيقة بين عملية الدوافع المعلنة والمبادئ المقبولة ، و بين الاتصال الجماعى .وربما كان مرجع استغرابنا الكبير من إهماله لهذه العلاقة الآن إلى عظم نمو انتباهنا إلى الاتصال اللغوى فى السنوات الثلاثين ، التى انقضت منذ كتابته . ومن الواضح لنا أن الدوافع يعبر عنها فى المجتمع دائما بالإجابة على أسئلة تسأل فى داخل المجتمع . وقد وردت هذه الأسئلة فى كل العصور على ألسنة القلة من « المفكرين » ، أما اليوم ، لأن الاتصال يشمل منطقة يتزايد حجمها من المجتمع ، فإن هذه الأسئلة ترد على ألسنة الجماعات الكبرى فى داخل المجتمع وعلى ألسنة المجتمع فى عمومه أحيانا . ومعنى تطور الاتصال أن كل مجتمع يميل إلى أن يوجه انتباهه إلى جذور سلوكه الجماعى ، و يرمز لها بالكلمات ، وبهذا يسمح لبعضها بالدخول فى الشعور الجماعى فى صورة دوافع مقبولة .

وسوف نستمر فى دراسة أمثلة للعلاقة بين الاتصال و بين تكامل الدوافع فى المجتمع الحديث ، كما درسنا فى الفصلين السابقين العلاقة بين الاتصال و بين تكامل المناهج .

---

(١) Pareto MS, Sect. 973, 1737, 1749, 1426

(٢) نسبة إلى إخوان ماركس لا إلى كارل ماركس .

٢

ونبدأ هذه المرة بالحرب ، لأنه حين يكون الأمر متعلقا بسلامة المجتمع لا يقوى الشعور والرغبة فحسب ، بل يصبح من المحتم أن يصل النزاع فى المجتمع إلى توافق ، لصالح الأمن العام . ونحن نرى فى المجتمعات التى تدخل الحرب أنواع النزاع — ووسائل التوفيق المختارة لها — رؤية أدق فى وقت أقل ، وبدرجة أعلى من التركيز ، مما نستطيع أن نلاحظها فى صورتها المهتزة ، وتوفيقها البطىء ، فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية العادية .

فالمجتمع الحديث فى حالة الحرب يسأل نفسه دائما مع استعمال « لماذا ؟ » وتعنى الثورة اللغوية أن المجتمع يزداد كلامه عن نفسه ، ويلقى ضوءاً كاشفا من الشعور على سلوكه ، ومن ثم على دوافعه . وما دام يتحتم على المجتمع كله فى الحرب الحديثة أن ينخرط فى سلك مناهج الحرب ، فمن الضرورى أن تخلق بالنسبة المجتمع كله حوافز تجند نشاطه إلى درجة عليا من الكفاءة فالجندى فى خط النار والعامل وراء الخطوط لا يُشَجَّعَانِ على السؤال عن السبب فيما يخص مناهج مهمتهم فحسب ، بل هم يُطَالَبُونَ ، وغالبا ما يُسمح لهم ، بأن يسألوا عن الدوافع التى حدت بمجتمعهم على أن يعلن الحرب .

ويجد كل مجتمع تبريره الخاص لدخوله الحرب ، ولاشك أنه كانت ثمة روح نقدية تتساءل عن دوافع القادة فى كل حرب . ولكن حيث كان التصريح بالدوافع فى الماضى يمكن أن يكون محصوراً ، ولا يتساءل عنه هذا السبب إلا القلة ، يجب اليوم أن يُعَبَّرَ عن الدوافع فى صورة يمكن التصريح بها للجميع ، ويمكن أن يجاب بها على تساؤل الكثيرين . ولم يعد من الممكن أن تعلم القلة فحسب جواب « لماذا ؟ » على حين تخبر البقية بمجرد جواب « كيف » . ويجب أن يكون ثمة دوافع جماعية يمكن للمجتمع كله أن يفهمها ويقبلها .

وليس من السهل فى حروبنا المعاصرة أن نرى العلاقة بين مثل هـذه الدوافع وبين المُثل القومية ، ثم بينها وبين الحوافز الحقيقية ، حيث تكون إحساساتنا مشغولة مشغولية مباشرة . دعنا نبدأ من ثم بحالة يعطينا بُعْدُها الزمنى المسافةَ الضرورية ووضوحَ الوضع العام ــ حرب نابليون ــ فالحوافز الحقيقية التى دعت إلى نشوب الحرب عام ١٧٩٢ بين فرنسا الثورية ، والنمسا ، وبروسيا واضحة الآن وضوحا كافيا. تلك هى: رغبة الثوار فى تدعيم سلطانهم وتوسيعه ، وخوف الملوك من أن يحدث هذا ــ وهذه حوافز أساسية بسيطة من العدوان والمحافظة على النفس . وفوق ذلك بمراحل كبيرة مبادىء على كلا الجانبين؛ فى جانب توجد العدالة فى معاملة الشعوب المهضومة الحق فى أوربا جميعها ، وفى الجانب الآخر حق الملوك المقدس ، وواجبهم أن يحموا شعوبهم من القتلة المتعطشين للدم ، الطامعين فى المغانم .

فماذا قال كل فريق عن الدوافع المعلنة حينئذ ؟ إن المؤرخ المحايد حيادًا أكلته المسافة الزمنية ربما يسميها « ذرائع » . وهكذا يقول « هـ . ا .ل فيشر» ، وربما كان هو أكبر حجة بين كُتّاب الإنجليزية فى الحرب النابليونية : « ولم تنعدم الأسباب المُخْتَلَقَة لإشعال الحرب ، فقد شكا « ليوبولد » ملك النمسا من تشجيع الفرنسيين للثورة فى بلجيكا ، ومن حرمان الأمراء الألمان فى الألزاس من حقوقهم الإقطاعية ، ومن اختطاف آفينيون من أملاك البابا ، وإلحاقها بفرنسا ، ومن المبدأ المقلق الجديد القائل : إن شعب كل بلد له الحق فى أن يحدد ولاءه ، وأكثر جميع هـذه الذرائع للاحتكاك هو شعوره بالموقف الخطر الذى تقفه ملكة فرنسا » [1] . ويجب أن نشير إلى أنّ هذه الدوافع المعلنة لاتحظى مباشرة برضا المبادىء . لأن المبادىء ليست بعيدة عن الحياة اليومية للإنسان فحسب ، ولكنها معرضة تعرضا كبيرا للأسئلة والنزاع ؛ أما الدوافع المعلنة ، فتبدو كأنها متصلة بالحقائق . وتقف الدوافع المعلنة بين

---

(١) Fisher HE 809

«الحوافز والمبادئ» محاولة أن تُوَفِّقَ بينهما ، أو أن تضع حلا وسطا على أى حال . وإذ ترمز هذه الدوافع من أجل شعور الجماعة إلى هذه الحوافز الحقيقية ، تمنح هذا الاشتهاء الختفى وراءها شكلا مقبولا ، ومتماسكا نسبيا ، يحتمل أن يتميز ، كالذى يقابله فى سيكولوجية الفرد ، بالتحويل والخيالات التصورية والتكثيف .

أما التحويل displacement كما يفهمه فرويد ، فهو تحويل الاهتمام عن ما يحسن إخفاؤه إلى ماهو أسهل قبولا ، مع تضييق شعاع الشعور إلى دائرة ضوئية Spotlight تُظهر بعض الملامح فى الحوافز الفعلية ، وتترك البعض الآخر فى الغموض. وفى الأسباب المختلفة التى جاء بها « ليوبولد » يحمل التحويلُ مصلحته الشخصية فى الغموض الذى وراء الأسباب .أما مايؤتى به إلى منطقة الضوءالنهارى التام،فهو أسهل قبولافى العلن :وذلك هوخير الآخرين :أى بلجيكا،وألمانيا، والبابا،ومارى أنطوانيت، أو المبدأ التجريدى الخاص بولاء الشعب لحكامه التقليديين .

وثمة أيضا تكثيف وخيال تصويرى . إذ أن تعبيرا مثل « اختطاف آڤينيون من البابا » مثل نموذجى من طرق التعبير عن دوافع الحرب؛ فهو رمز مكثف مصوّر يدل على نسق تام من الحوادث ، إذ يضم عمليات سياسية وحربية غامضة واسعة مختلطة فى صورة بسيطة من السرقة ، يسهل فهمها على شعور الجماعة أكثر من تقلب الحوادث اليومية .

« اختطاف آڤينيون من البابا » هو التعبير المضبوط الذى يحرص عليه الرسّامون السياسيون للكارتون . وليس ذلك صدفة سعيدة فحسب . فالكارتون وسط تصويرى من أوساط التعبير عن الإحساس الجماعى . وقد أصبح الكارتون فى الزمن الحديث أداة رئيسية للاتصال فى داخل الجماعة ، تتناول كل ما لا يعبر عنه علنا بالكلمات . فهو يعبر عن الجانب الاشتهائى فى الحياة السياسية ، أكفأ مما تعبر عنه الكلمات ،لأنه بملامحه التصويرية المكثفة التلميحية يناسب الرمز إلى الحوافزالحقيقية

فى حياة الجماعة، بنفس الطريقة التى ترمز بها الأحلام وأحلام اليقظة إلى هذا الجانب من حياة الفرد. وفى الحق أن الكارتون، لكونه موجها لمخاطبة الرغبات والإحساسات نصف المنطوقة عند هؤلاء الذين سيق إليهم ، يتميز بهذه المميزات التصويرية المكثفة الملحة .

(٣)

انظر إلى أية صورة كاريكاتيرية يمارسه « جلرى » Gillray لحرب نابليون. انظر مثلا إلى تلك التى بها « چورج » الثالث و « نابليون » إبان توقع غزوة عام ١٨٠٣ (وهى موجودة فى الصفحة رقم ٢٣٩ من هذا الكتاب) هذه رمزية تصويرية تتميز بقوة التكثيف والتحويل بسبب الوظيفة التى تؤديها فى التعبير عن وجدان الجماعة .

دعنا نلاحظ أولا أنها « صورة مركبة » ؛ وهذا اصطلاح استعمله فرويد فى وصف الأحلام . وثمة تكثيف أو وضع نسق من الصور واحدة فوق الأخرى، حتى تظهر الأفكار غير المرغوب فيها فى صورة رموز مقبولة . فالفكرة الخفية المتعلقة بمقابلة قوة انجلترا ، بالضآلة الحقيرة فى فرنسا ، تنضم إلى المقابلة الصريحة بين چورج الثالث و بين نابليون ، وكذلك بين الملك ، و بين القزم Grildrig الصغير .

ويتناسب هذا التكثيف مع التحويل المعهود فى الأهمية . فالاهتمام موجه هنا بشدة إلى القوة المقارنة ، المفترضة بين بطلى القصة؛ ولا يقال شىء مثلا عن المبادىء المتعارضة ، أو الكفاءة العسكرية النسبية . وثمة أيضا ما يراه « فرويد » ظاهرة شائعة فى التحويل فى الأحلام ، ذلك هو استخدام التلميح ، حيث يؤتى بالأفكار البعيدة فى ظاهرها، لتقوى وتضيف إلى التعبير التصويرى عن الأفكار والإحساسات المركزية الخفية ؛ والتلميح فى كارتون « جلرى » ذو وجهين ، كما هو الحال دائما فى

الـكاريكاتير والـكرتون ؛ تلميح إلى الحوادث الجارية المعروفة، والمسلم بها فى الجماعة التى يخاطبها الـكاريكاتير، وتلميح إلى صورة معروفة للجماعة، تصور حادثا حقيقيا أو خياليا . ففى نهاية القرن الثامن عشر، كانت أسفار « جليفر » جزءا من التجربة العامة لمعظم الإنجليز، ويخبرنا « رايت » فى كتابه « تاريخ الكاريكاتير » أن « نابليون » كان يطلق عليه فى ذلك العصر: « الليليبوتى » « Lilliputian » أو القزم الحقير Contemptible puny Grildrig فى مقابل القوة العملاقة Brobdingnagian التى لبريطانيا [1] . ويأخذ الكاريكاتير مثل هذه القصة حجة مسلمة، ونتيجة ذلك أنه بالنسبة لأى إنسان ليس من دائرة القصة العامة، ولأى إنسان ليس داخلا فى المجتمع الذى سيقَ إليه التلميح، يبدو الكاريكاتير خاليا من المعنى، كالأحلام التى ربما كانت لا معنى لها إذا فصل بينها وبين ظروفها فى حياة صاحب الحلم .

كذلك يجب أن نلاحظ النص المطول الخارج من فم « جورج » وهو الإيضاح اللفظى، الذى كان يُعتبر ضروريا فى الـكاريكاتير فى أيام « جلرى » والذى تناقصت أهميته باطراد فى الرسوم الأكثر تلميحا، والأتم تصويرا، فى أيامنا هذه، لأن الرسام فى يومنا هـذا كما سنرى يستطيع أن يطمئن إلى أنه سيلقى مجالا أغنى فى الفهم العام عند الجماعة التى يخاطبها .

وواضح من مثال كهذا أن وظيفة الـكارتون السياسى ليست أن يرمز باختصار إلى حادث خاص أو نسق من الحوادث . فالأهم من هذا أنه يجمع وجدان الجماعة، ويرمز إليه، ويثيره . وإن لرسم « جلرى » لمعنى وقوة عند مجتمعه ؛ لأنه يضرب على وتر يستجيب له المجتمع . وقد شكلته الأفكار والإحساسات الخفية الموجودة فى المجتمع، بقدر ما شكله « جلرى » نفسه . وتظهر عبقرية « جلرى » فى تغلغل النظر الذى يبدو فى معرفة المزاج السائد، بقدر ما تظهر فى القوة التى يصور بها هـذا المزاج

(١) Wright CH 596.

ويرمز كاريكاتير كهذا إلى مايحس به الكثيرون إحساسا غامضا،ولكنهم لايعبرون عنه بالكلمات الصريحة . إنه يعبر عن الإشتهاء ، وعن الوجدان ، وعن النزوع الذى لم يعلن عنه إعلانا تاما حتى تلك اللحظة . أما بالنسبة للجماعة ، فإنه يرمز إلى إحساسات ورغبات لم تصبح الجماعة شاعرة بها إلى الآن . وربما عرفتها ورمزت إليها الأفراد والهيئات ، ولكنها لم تشع فى الاتصال الجماعى فى المجتمع كله .

حقا إن « العناصر الخفية » كما يسمى « فرويد » المعانى اللاشعورية التى تحت رمزية الأحلام — إذا عبر عنها علنا ، فربما أصبح ما فيها من ذاتية ، وتفاهة ، وخوف ، أكثر وضوحا مما يجب . والشعب البريطانى — أو « جون بول » ، وهو رمز آخر مكثف ، يُحبُّ أن يكون نابليون محتقرا أو قميئا ، ويحب أن يشعر بأن نابليون قزم تافه . تلك هى الطريقة التى يجب أن يصوره بها ، والكاريكاتير تحقيق للرغبة ، فالخوف الذى لم يُعبَّر عنه مصور فى صورة رغبة ، بل هى رغبة لا تأمل فى أكثر من المرور على الرقيب ، إذا ترجمت إلى كاريكاتير تفريحى . وقد يكون الكاريكاتير أحياناً أصرح مما يجب ، أو أكثر اتجاهاً إلى الهدف مما يجب أن يسمح به الرقيب .لاحظ أن الرمز لا يصبح هداما إلا بسبب ما يكمن فيه من خطر إثارة إحساسات موجودة بالفعل ، إحساسات ربما أضرت بالروح المعنوية العامة ، إذا عُبّر عنها بصراحة كبيرة .

والكاريكاتير باختصار وظيفة الرمز إلى العقل والأفكار ، والإحساسات ، والرغبات الجماعية ، سواء فى اللاشعور ، أو فيما دون الشعور ، التى لم يعبر عنها بالكلمات للجماعة . فإذا أريد الرمز إلى الاشتهاء كان الكاريكاتير أكثر ملاءمة لهذا من الرمز بالكلمات . فانطلاقه ، وتصويره ، وإمكانيات سماحه بالتكثيف والتحويل ، والتلميح ، كل أولئك مميزات تجعله أكثر مناسبة من الكلمات للرمز للوجدان والنزوع المنطلقين غير المرتبين ، اللذين يجب أن يجعلهما المجتمع خارج شعوره

العام . وفى أوقات الشدة فى المجتمع ، ربما أدى الكاريكاتير وظيفة صمام الأمان ، فيساعد على التوفيق بين الانفعالات البدائية والحوافز عند الجماعة وبين التقويم المثالى لنفسها ولسلوكها . ولكن التوفيق التام لا يمكن أن يحدث ، وإن وجود الكاريكاتير ، وكونه له فكرة يهدف إليها « Point » معناه أن الفجوة بين الحقيقة غير المسموح لها بالظهور وبين المثال الذى لا يمكن الحصول عليه لا تزال باقية .

وربما كانت إمكانيات النزاع محدودة كذلك فى عصر نابليون ، حين كان الاتصال فيما يخص المسائل السياسية لا يزال محصوراً فى الأفراد أو الهيئات ، أى فى مناطق خاصة من الشعور السياسى فى داخل المجتمع . وربما كان القلة المثقفون سياسيا هم الذين انحازوا إلى صف الحرب مع فرنسا أو ضدها ، وربما كانت جماهير الشعب غير آبهة فى البداية ، ثم صارت فى النهاية ضد نابليون دون تردد . ولكن فى وقتنا هذا ، حين تنتشر الوسيلتان الكلامية والتصويرية من وسائل الاتصال فى المجتمع كله ، تزداد احتمالات النزاع لأنه بينما تنضم الكلمات والصور فى أيامنا هذه ليقوى بعضها بعضا فى صورة رموز علنية ذات قوة ضخمة فى التعبير عن الدوافع المعادية للجماعة ، تخضع اليوم لنقد الجمهور كما لم تخضع من قبل أبدا . إنها الآن معرضة للتحليل العام الذى يكشف غالبا عن الحوافز الجماعية الخفية التى أريد لها أن تختفى وراءها .

(٤)

إن السنوات المائة والثلاثين التى مرت منذ أيام نابليون قد رأت مولد الثورة اللغوية وتطورها ، وتقدم الوسائل القوية للاتصال التصويرى . والآن بينما يحتمل فى ضيق الحرب أن يؤدى هذا إلى درجة لا مثيل لها من التكامل الاشتهائى فى كل من

بالمجتمعين المتحاربين ، نجد من ناحية أخرى ميلا متزايدا إلى التفكك فى الاشتهاء ، والنزاع فى السياسة قبل الحرب و بعدها .

ومرجع هـذا إلى أن لزيادة الاتصال أثرين رئيسيين على الاشتهاء الجماعى ، وأحدهما معطل فى وقت الحرب . فالـكلمة والصورة من جهة قد اكتسبا قوة هائلة فى تحديد انتباه المجتمع ، وتوجيهه ، وتركيزه على الحقل المحـدود الذى هو سلوكه ، مع الاستبعاد المؤقت لـكل ما عداه . ومن جهة أخرى تميل زيادة الاتصال الرمزى حين يخف ضغط الأزمة إلى أن تجعل المجتمع أكثر شعوراً بسلوكه السياسى ، وعلى الأخص القُوَى الاشتهائية التى من خلف هـذا السلوك . والاشتهاء المكبوت فى زمن الحرب يسمح له بالظهور فى الشعور الجماعى إلى حـد ما ، ويظهر فى الحيـاة السياسية لمجتمعاتنا الحديثـة فى وقت السلم من ثم ميلان متعارضان ؛ ثقافة سياسية عامة متزايدة ، وفى نفس الوقت توجيه الشعور الجمـاعى إلى حقل ضيق من الدافع .

وقد مر الرجل العادى المعاصر فى كل مجتمع حديث بنوع من التثقيف السياسى ، وإن كان مبعثرا وقاصرا بلا شك ، ولـكنه لا يقبل التفريط فى أهدافه ، unremitting . فالصحافة ثم الإذاعة الآن مهما كانت نواحى نقصهما جاءا إلى بيت الرجل العادى بالمشاكل القومية والعالمية الرئيسية فى عصره ، وجعلاه فوق هذا ناقدا إن لم يكن متشككا فى دوافع مجتمعه ودوافع نفسه ، وانتباهه منجذب من كل الجوانب بالـكلمات التى يتزايد سيلها عليه من الخارج، ثم الـكلمات النابعة من الداخل أى فى الصحافة والإذاعة . ولا يهرب من النشر إلا القليل . وهكذا رأينا قبل الحرب الثانية أن أفكاراً مثل حقوق الأقليات ، والأمن الجماعى ، ونزع السلاح ، حين ترجمت إلى اللغة اليومية أصبحت فى عام ١٩٣٩ من موضوعات الحديث فى المقاهى والبارات وعربات السكة الحديد ، إلى درجة لم تعرف فى الجيل السابق . ومعنى هذا

أنه مهما كانت الدوافع الرسمية ، فإن المجتمع حين يتجه إلى الحرب فى يومنا هـذا يجرى فيـه من ناحية الهيئات والأفراد تعبير عن دوافع أكثر من الدوافع الرسمية ، ويجرى نقدها كذلك .

وقد أصبح الآن من المهم لهؤلاء الذين يعنون بتوجيه سلوك الجماعة أن يضيقوا «الشعور الجماعى» ويركزوه ، وذلك بسبب التوسع فى التثقيف السياسى الجماعى . ولم تستطع الكلمة المطبوعة ، والصورة فى زمن نابليون أن تصل إلا إلى أقلية ضيئلة ، ولم تستطع مخاطبة الجماهير إلا بالمشافهة ، وهى وسيلة للاتصال مناسبة مناسبة تامة لاشاعة التحريف ، والخطأ فى الفهم ، ونشر الشائعات ، وتكاد تستعصى تماما على السيطرة حين تنطلق الكلمة من عقالها . أما اليوم ، فإن تخطيط التحريض وتوجيه الإحساس ممكنان بالنسبة لمنظمات الدعاية عن طريق أربع أدوات قوية على الأقل، كلها تعمل فى المجتمع بإصرار وتكرار لا يمكن الهرب منـه ، تلك هى الصحيفة ، ولوحة الإعلان ، والسينما ، والراديو . وتستطيع كل من هـذه ، بطريقتها الخاصة ، أن تستخدم الكلمة والصورة كلتيهما ، ومن نتائج ذلك أن ما يقال الآن علنا عن طريق إحدى هذه الأدوات ينطق بصوت عال واضح غير منقطع يستطيع التغلب على همهمات الفرد أو حتى الأقلية . أما هؤلاء الذين لا يستطيعون التحكم فى إحدى أدوات الاتصال العام فلا يستطيعون أن يوصلوا أصواتهم إلى الآخرين . ويحل ما يأتى عن طريق الايصال من معلومات محل التجربة المباشرة، ويؤثر الاتصال الرمزى أثرا أبعد فى السلوك . وبدل توكيد القول التقليدى «التصديق بالرؤية Seeing is believing» نجد قوة جديدة للرمز النطقى والتصويرى . فالقراءة ، والنظر إلى الشاشة ، والإنصات ، كل أولئك يؤدى إلى التصديق فى يومنا هذا .

وهكذا نجد فى كل الأوقات ، وعلى الأخص فى وقت الأزمة ، أقوى الأدوات لتوجيه شعور المجتمع فى شعاع مجمع ، حتى إن هـذه الأدوات حين تلقى ضوءا شديدا

أبيض مُغشياً على مساحة صغيرة ، تترك كل شيء آخر أكثر إبهاما مما كان. وتتحرك الحوافز فى هذا الغموض قوية مختفية ، غير مُعطاة حتى الآن رمزية جماعية كاملة ، فى شكل دوافع معلنة . ويركز الشعور الجماعى على مجال من الدوافع أضيق من المساحة الكاملة للحوافز الفعلية ، حتى إنه برغم وجود الثقافة السياسية المتسعة يبقى المجتمع غير شاعر أو فى أحسن حالاته نصف شاعر بالحوافز التى تختفى وراء سلوكه كجماعة .

(٥)

دعنا نأخذ الآن مثالا من كل من هذه العوامل الثلاثة المحددة لدوافع الجماعة ، وهى الثقافة السياسية العامة ، والكلمة ، والصورة ، كما نجدها اليوم فى المجتمع البريطانى .

الثقافة السياسية : من الأمثلة التى تلفت النظر للطريقة التى تتطلب بها الثقافة السياسية العامة تحديدا أشد للشعور الجماعى ما يمكن رؤيته فى سياسة الحكومة فيما يختص بالمعلومات العامة للتسلح القومى. فى القرن الحاضر ، سواء فى الحرب أو فى السلم ظلت حالة التسلح فى هذه البلاد مكتومة عن المجتمع فى عمومه . وبعض الناس بالطبع على علم تام بالحقائق ، ولكن المجتمع فى عمومه غير عالم بها . وهذا بالضبط هو الموقف الذى نقصد أن نصفه حين نتكلم عن اللاشعور الجماعى ـ حقائق مكشوفة لشعور الأفراد والهيئات ولكنها خفية على شعور الجماعة باعتبارها جماعة .

إن التوسع فى الاتصال اللغوى هو الذى زاد فى الحاجة إلى السرية . ووجود أداة الاتصال معناه أن ثمة قوما يتزايد اهتمامهم بالبحث عن شيء يقولونه ، فالآلة يجب أن تُعطَى طعامها ، وثمة دائما شخص مستعد لنشر أى شيء ، وهناك باستمرار من يسترق السمع بيننا فى أيامنا هذه . والذى يُعلم فى داخل المجتمع ، يُعلم فى نفس الوقت خارجه ، ويتجاهل الاتصالُ اللغوى الحديث الحدودَ القومية . ثم من خلال الثقافة السياسية المتزايدة التى تتبع تعميم القراءة والكتابة أصبح الشخص العادى فى

مجتمع كمجتمعنا متشككا فى أية زيادة فى التسلح . وأصبح يعتقد أن ذلك دائماً من صالح قلة ، ويؤثر فى مستقبل الجماهير . ومن نتائج الثقافة السياسية أن أصبح ضمير المجتمع أكثر حساسية للسلوك الذى يتم باسمه ، والذى يسأل عنه فيما بعد .

وقد علم قادة مجتمعنا قبل كل من الحربين العالميتين أن زيادة التسلح ضرورية، وأخفوا الحقائق عمدا فى الحالتين عن شعور الجمهور ، والبينة على ذلك لا يمكن ضحدها . ويخبرنا « ه.ا. فيشر » فيما يختص بالحرب العالمية الأولى ، أنه كان ثمة استعدادات مدروسة واسعة فى أوائل عام ١٩١٤ : « ولم تكن البلاد مطلقا أكثر استعداد للحرب منها حينئذ ... ولم يعرف إلا القليل عن هذه الاستعدادات المدروسة لدى رجل الشارع . . . . . إن الاستعدادات الفنية لآلة الحرب لم يكن لها ما يقابلها فى الثقافة النفسية للعقل الجماعى »(١) .

ومما يثير الانتباه أن نلاحظ أن اللغة التى يستعملها هذا المؤرخ لا تهتم اهتماما خاصا بموضوعنا الذى هو الاتصال وشعور الجماعة . وهو يتكلم بكثرة عن الثقافة النفسية فى العقل العام ، وهو تعبير يعنى بالضبط ما أطلقت عليه الثقافة السياسية ، عن طريق الاتصال اللغوى . وهو يقول إن بعض الحقائق الهامة عن سلوك الجماعة قد أخفيت عن شعور الجماعة . وإن ملاحظا من الخارج أو جاسوسا من وسطنا كان لا بد أن يقول إن بريطانيا تتسلح . ومع هذا لم يكن الجمهور البريطانى يعلم ذلك . وهذا بالضبط هو الحالة المشابهة فى سيكولوجية الجماعة لعدم شعور المرء بجزء من سلوكه .

وقبل الحرب العالمية الثانية وجدت نفس الحاجة إلى سرية التسلح ، ولكن الأسباب مختلفة . فقد أخبرنا لورد بولدوين أنه قبل ١٩٣٦ كانت الحكومة

---

(١) Fisher HE 1105.

شديدة الشعور بالحاجة إلى إعادة التسلح . وقد كان هو نفسه يرى بحماسة أن التسلح يجب أن يزداد إلى درجة كبيرة ، ولكنه كان يخاف أن يقول ذلك ، وعلى الأخص قبل الانتخابات العامة التي يتقرر فيها مستقبل حزبه .

«لقد كنت وكان أصدقائي منذ عام ١٩٣٣ مشغولين بما كان يحدث في أوربا . وتذكرون أنه في ذلك الوقت كان مؤتمر نزع السلاح منعقدا في جنيف . وتذكرون أنه في ذلك الوقت ربما كان ثمة اتجاه سلبي يسري في البلاد ، أقوى من أي وقت مضى منذ الحرب . وكان موقفي باعتباري زعيم حزب كبير . موقفا حرجا تماما ...... فلنفرض أنني ذهبت إلى الريف وقلت إن ألمانيا تتسلح مرة أخرى ، وإننا يجب أن نتسلح ، فهل يعتقد إنسان أن هذه الدولة الديموقراطية المسالمة كانت ستلتف حول هذه الصيحة في ذلك الوقت؟ ولم يكن شيء في رأيي أكثر مدعاة للفشل في الانتخاب من هذا القول » [1] .

أو بعبارة أخرى ، كان قائد من قادة المجتمع واثقا من أن اتجاها خاصا في السلوك كان ضروريا لخير المجتمع ؛ ورأى ضرورة ضمان التكامل في الفكر والإحساس والإرادة الجماعية بتنفيذ هذا . ولكنه رغم ذلك علم أن الطلب العلني للتسلح كان سيسبب عاصفة من المعارضة ، لأن المبرر الوحيد للتسلح في ذلك الوقت كان المحافظة على النفس ، وهو حافز أكثر بدائية من أن يرد باعتباره دافعا معلنا ، شديد التعارض مع مبدأ اشتهائي عميق كان حينئذ واسع الانتشار ؛ هو السلام العالمي . ولهذا ظل صامتا .

حقا إنه لم يكن ثمة صمت في المجتمع كله ، فقد كان هناك همهمة داخلية دائمة من الأفراد والهيئات الذين أدلوا بآرائهم . فبعض الناس علم وبعضهم تحدث . ولكن لما لم تكن ثمة صياغة للحقائق من أجل المجتمع في عمومه ، بقي المجتمع غير شاعر بهذا

---

(١) Hansard November 12, 1936.

العمل الهام جدا من سلوكه فى الشئون الخارجية ، وغـير شاعر ـ أو على الأقل دون الشاعر ـ بالحوافز القوية المحددة لهذا السلوك .

وليس من المبالغة فى شىء أن يقال إنه إذا أريد أن يكون المجتمع غـير شاعر بناحية من نواحى سلوكه فالوسيلة لهذا هى إخراج هـذه الناحية من حقل الاتصال اللغوى. ولا يمكن أن يكون ثمة رقابة عامة على أفكار الفرد وإحساساته ، وإنما تكون هذه الرقابة على إعلانها العامة . والرقابة من هذا النوع كما رأينا أصبحت ممكنة بزيادة قوة الكلمة والصورة فى أيامنا هذه. إن أدوات الاتصال العامة organs قد أصبحت أعضاء فى العقل الجاعى ، حتى إن كل مالا يتم نقله عن طريقها يكاد يصبح فى حكم العدم بالنسبة للشعور الجاعى . وإن العقل الجاعى لايؤثر فيه إلا ماهو مؤكد تأكيدا عاليا واضحا ، لدرجة أن كل مايقال بصوت أقل علوا منه لايصل إلى الشعور الجاعى.

وفى هـذه المعركة بين الثقافة السياسية النامية وبين قوة الرقابة والدعاية يلعب تطور الاتصال الرمزى دوراً متشعبا . فهو من جهة وسيلة رئيسية للثقافة السياسية النامية ومن جهة أخرى أداة رئيسية لتحديد الشعور العام .

(٦)

دعنا ننظر الآن إلى القوة المتزايدة للكلمة والصورة باعتبارهما رموزا للدوافع الجاعية ، ثم إلى درجة نجاحهما فى خلق تكامل فى الاشتهاء الجاعى .

وسنأخذ كلمة « نازى » مثالا للرمز الكلامى ، وهى كلمة ظلت ست سنوات بؤرة للكثير من الإحساس . لقد كانت صيحة المعركة فى الجانب الألمانى ، وكلمة للسب واللعن فى الجانب البريطانى . كما كانت فى كلا الجانبين أداة قوية لخلق التكامل فى الفكر والإحساس والإرادة ، تتصف كبقية رموز الاشتهاء الجاعى بالتكثيف والتحويل والتلميح .

أما التكثيف فإن كلمة « نازى » نفسها مكثفة مختصرة ، وهذا غير عرضى ، فهى تبدأ بلاشك باعتبارها اختصاراً ملائماً من « National Socialist » ولكن استعمالها سرعان ما اكتسب قوة من منابع أعمق وأقوى من مجرد الملاءمة . ففى كلا جانبى المعركة أصبح الاختصار أحسن مناسبة لوظائفه النفسية من التعبير الكامل .

ففى ألمانيا كان الاصطلاحان National و Socialist صيحتين قويتين من صيحات التجمع فى مبدأ حملة هتلر . وإن بعث الروح المعنوية الألمانية ـ بعد ١٩١٨ قد أصبح ضرورة أساسية : أى العود إلى الاعتقاد فى مستقبل الأمة الألمانية ، وإعادة خلق الثقة القومية بالنفس، واسترجاع الفكر والإحساس والإرادة الجماعية، وتكريسها لإعادة نهوض ألمانيا (أرض الأجداد) Fatherland بين الأمم . وقد رمز إلى كل ذلك وجمع فى كلمة National .

ولكن القومية لم تصبح كافية بعد قليل ، فقد لفتت الثقافة السياسية فى ألمانيا والبلاد الأخرى الشعور الجماعى إلى مشاكل البنية والتنظيم الاقتصادى للمجتمع، وربما كان ذلك فى ألمانيا أكثر منه فى البلاد الأخرى . وأفسحت القومية الطريق للغرض الأوسع : الذى هو بعث أوربا ، وتخليصها من جماعات البلشفية المفزعة . وكان معنى ذلك أنه من الضرورى أيضاً أن تزداد الهوة بين الاشتراكية القومية national socialism التى فى المذهب النازى الأصلى وبين الشيوعية الروسية ، ونسيان أن النازية كانت اشتراكية . فالرمز «نازى» بهذا التكثيف قد جعل من الممكن فى كلا الاصطلاحين « قومى » national ، و « اشتراكى » Socialist ، أن يتناسى ملامح البروجرام الأصلى الذى وضعه هتلر ، وساعد أيضا على نقل الاهتمام وتحويل انتباه الجماعة عن الدوافع التى كانت فى وقت ما مقدمة فى الشعور الجماعى . وقد تحول الانتباه عن القومية والاشتراكية فى ذلك الوقت واتجه إلى الاسم المختصر ، فى اتجاه دوافع جماعية جديدة ، فدوافع جماعية أخرى جديدة أكثر منها قبولا .

وهنا فى بريطانيا من جهة أخرى صير التكثيف والتحويل فى كلمة « نازى » هذه الكلمة رمزا لا يقل قوة للاشتهاء الجماعى ، موجها ضد ألمانيا أكثر مما يوجه الاسم الأصلى « الاشتراكية القومية » ضدها . فقد ساعدنا هذا الاسم على أن نطرد من الذهن الناحيتين القومية والاشتراكية من بروجرام هتلر، لأن القومية والاشتراكية كلتيهما كانتا مقبولتين قبولا عاما فى هذه البلاد . وقد جعلت الثقافة السياسية الناس متسامحين إن لم يكونوا مشاركين وجدانيا فيما يختص بالأمانى القومية . والقومية الألمانية لا تكاد تكون بنفسها حافزا على إثارة العداوة ، وقد تكون الاشتراكية أقل إثارة . وفى الحق إنه لو قيل إن الحرب كانت جهاداً ضد الاشتراكية ، لأدى هذا إلى معارضة واسعة النطاق أكثر مما يؤدى إلى التعضيد . فكان الاسم « نازى» ناجحا باعتباره رمزا إلى العدو على الأقل، لأنه ساعد على استبعاد القومية والاشتراكية المتلازمة من الشعور العام للمجتمع البريطانى .

ولكنّ لها كذلك فضائل إيجابية ، فالاسم « نازى » كان جديدا ، غير معروف ، غريباً ، أجنبيا ، وهكذا كان مناسبا تماما لإثارة الحوافز المستكنة على الشك والكراهية ، فيما يتصل بالمجهول ، وذلك ما يسمى Xenophobia . إن نمو المسالمة بعد الحرب العالمية الأولى ، والجدل الدائم ضد معاهدة فرساى ، قد جعل الكثيرين من البريطانيين يعطفون على ألمانيا، ويتسامحون معها، فالذى نجد من الصعب أن نصدقه بالنسبة للألمان نجد من السهل تصديقه بالنسبة للنازى . فالمسرحية ، والمظهر المتبجح ، والعنجهية ، وضيق الأفق ، والتعصب ، والقسوة النازية ، كل أولئك يمكننا أن نتعلم كيف نصدقه . وكان يمكن أن يكون أكثر صعوبة أن نضع كل هذه الصفات فى الصورة التى كانت فى دور التكوين بين الحربين والتى تمثل الألمانى المتسامح ، المتحيّر ، حسن النية، الذى عوقب بقسوة عظيمة لأنه كان على خطأ إذ أنه اتبع الطموح المجنون من جهة القيصر . وكان الاسم « نازى » لكل هذا اصطلاحا مناسبا لأنه

يرمز إلى الدوافع الجماعية ، ويوجهها فى مجراها ، لأن الوقت كان قد حان للبريطانيين أن يتحدوا فى الكفاح ضد ألمانيا الهتلرية .

ولكن لاحظ كذلك أنه بسبب كون الاسم « نازى » جديدا غريبا أصبح أقل صلاحية لأن يؤدى دور الرمز الاشتهائى بالنسبة لبطيئى الحركة من أعضاء المجتمع البريطانى ، وإن خلق رمز جديد ليكون وسيلة فعالة فى توجيه الاشتهاء الجماعى يستغرق وقتا طويلا ، وكان بطء الزمن هنا فى بريطانيا واضحا جدا . وأن تشرشل نفسه على ما له من صدق النظر صدقا واضحا مباشرا فى مناهج الحرب قد استعمل الاسم « نازى » . وإن نطقه الكلمة بطريقة تفصل بينهما وبين أية لغة إنسانية لم يكن بدون هدف ، فقد كانت على شفتيه « كلمة للخوف » ، والكراهية ، والسخرية،والاحتقار،بعيدة عن الحياة اليومية العادية بعد « الهوتنتوت» و «تمبكتو» فى الأساطير .

غير أن الصحافة العامة ، وهى تدعى صادقة أن مدى التغير أبطأ عنـد قرائها ، لم تجرؤ على مجاوزة الأسماء التى منحتها الحرب العالمية الأولى قوة اشتهائية، ألا وهى « الهون » ، و « البوش » . وفى مخاطبتها إحساسات الجزء الضئيل المعلومات من المجتمع ورغباته ، كانت كلمة « الهون » رمزا أقوى من الرمز « نازى » المحدث .

وإنه لمثير للاهتمام جدا أن نلاحظ أنه بالرغم من المجهودات المتعمدة من جانب القادة والدعاة لإثارة الاشتهاء الجماعى ، وتحويله، وتوجيهه بواسطة الرموز الكلامية المختارة كان ثمة ميل قوى من مجتمعنا إلى أن يتخذ بنفسه رمزاً آخر ، ويمنحه الشيوع ، ليعكس بدقة تيار اشتهاء منحرف عن المجرى الرئيسى للعداوة . فقد كان الاسم العام للعدو فى الحرب العالمية الأولى هو « جرى » Jerry ليرمز إلى الاحتقار الفكاهى أكثر منه إلى الخوف والكراهية . أما فى الحرب العالمية الثانية فقد بعث هذا وأصبح شائعا سواء فى البلاد أو بين القوات فى الخارج . وفى تلك الكلمة

تلميح غير مقصود إلى أداة من أدوات الاستعمال المنزلى وهذا شبيه بالتلميح الذى يصفه فرويد ، ومن ثم ينعكس من الكلمة نغمة من نغمات الاحتقار الفكاهى الذى تمتاز به جمهرة الشعب البريطانى فى مواجهة أعدائهم حتى فى وقت الحرب . وازن بين هـذا وبين « Kaiser Bill » و « Little Willie » و « Boney »



كارتون جلرى فى أيام توقع غزوة ١٨٠٣

ويوضح كل هذا تعقد الاشتهاء الجماعى ، كما يوضح التعقد وتعدد الجوانب فى الرمز إليه بالنسبة للجماعة ، فبينما تحاول الدعاية أن تحدد الشعور العام وتركزه فتنجح فى ذلك إلى حدما يظل بعض الحوافز الجماعية ينعكس ولو بصورة مشوهة فى الرموز العامة ، بالرغم من كونه غير مكشوف للشعور العام .

(٧)

وهكذا يظهر مافى الاسم «نازى» من تكثيف وتحويل؛ فكيف يكتسب الناحية التلميحية فيه ؛ أى قدرته على جعلنا شاعرين بالأفكار التى مع كونه لايرمز إليها رمزا مباشرا ، تضيف غنى إلى محتوياته ؟ ليس ثمة شك فى أن كل رمز كلامى عام مثل هذا يكتسب الكثير من قدرته التلميحية من الصور التى تنمو حوله . فقد حدث هذا فى الماضى فى صورة تكاثر بطىء للصور العرفية حول الكلمة ، أما اليوم فإن وجود الصور بكثرة على لوحات الإعلان ، وفى السينما ، والصحيفة ، يسرع بالعملية ، فيتم من تكاثر الصور العرفية فى سنة ما كان فى الماضى بحاجة إلى عشر سنوات ، أو ربما إلى جيل كامل . فما أسرع مثلا ما أصبح «ميكى ماوس» أو «الكولونيل بلمب» شخصية واضحة الصورة لدى الجماهير الكثيرة من الناس ، ورمزا يمكن أن يستعمل فى المحادثات العامة فى المجتمع كله مع وجود ما يقرب من محتويات تصويرية مشتركة فى الأذهان . والكلام عن « بلمب » يذكرنا بأنه لم يعمل إنسان على بناء الناحية التصويرية لكلمة « نازى » كما عمل « لو »[1] الذى يعتبر « جلرى » أيامنا هذه . وللموازنة بكارتون « جلرى » الذى يدور حول « جلفر » انظر إلى الكارتون الذى رسمه « لو » فيما بعد .

فإذا أخذنا الصفات المميزة الواضحة أولا ، فربما وجدنا أكبر اختلاف يلفت النظر

---

(١) دافيد لو رسام نيوزيلندى الأصل يقوم برسم الكاريكاتير لجريدة الإيفننج ستاندارد (المترجم)

فإذا أخذنا الصفات المميزة الواضحة أولاً، فربما وجدنا أكبر اختلاف يلفت النظر هو عدم وجود الكلمات فى كارتون « لو » ، وذلك إذا وازناه بالاقتباس الطويل فى رسم « جلرى » ، وهذا نموذج للطريقة السائدة فى الوقت الذى عاش فيه ، حين حُلِّيَ كل كاريكاتير بديالوج مكتوب فى بالون ضخم ، إذا غضضنا النظر عن العناوين الكبيرة . أما اليوم فإن الرسام يمكنه أن يعتمد إلى غير حد على المعنى الذى توحى به الصورة . ولهذا بدوره ناحية تلميحية خاصة . فالاتصال ، وخلق جو مشترك من هذا النوع فى يومنا هذا نتيجة للتكرار السريع ، والتوزيع الواسع الانتشار الذى أصبح ممكنا عن طريق الصحيفة ولوحة الإعلان والسينما ، إلى جانب أثر التوسع فى الثقافة السياسية . ويستطيع الرسام فى يومنا هذا أن يطمئن بسرعة إلى أن جماهير الناس قد رأت صوره ورأتها كثيرا ، وقرأت كثيرا عن نفس الخبر ، واستمعت إلى نفس الحديث المذاع .

إن صورة النازى والصور الأخرى فى الرسم (ص٢٤٦) ربما سلمنا بأن لكل منها جوه التلميحى الخاص . ولكننا إذا وازناها بهذا برسم «جلرى» ، وجدنا أن التلميح هنا ضمنى لا ظاهر . فحيث لا يدع لنا « جلرى » مجالا للشك فى أن المقصود من «جائتر» وقرمه هما « جورج الثالث » و « نابليون » ، يسلم « لو » بوضوح تلميحاته ، التى هى التحيز النازى الرومانتيكى على غرار ما فى أوبرا فاجنر المسماة « سيجفردتود » ، والمطامح الفاشية المتعلقة بالحبشة وأفريقيا ، والمطامع الميكادية اليابانية الاستعمارية ، والبساطة الخداعة فى ستالين ، وسخف ريبنتروب . وكل شخص فى هذه الصور قد صار إلى ما هو عليه فى الذهن البريطانى العام بالتثقيف السياسى الدائم ، بالكلمات والصور . وبالتسليم بوجود جو تلميحى فيه الإشارات الفكاهية إلى المزج بين سيجفريد وهتلر ، وبين الهوتنتوت وبين موسولينى ، وتصوير الميكادو كما صوره جلبرت

وساليفان [١] ، يستطيع الرسام أن يلقى ضغطا على المحتويات الكثيرة خلف النقطة الدقيقة فى طعنته ألا وهى « النظام الجديد » أو « The New Order » وهذا التعبير نفسه تلميحى ذو معنيين وقصد للتورية يفرض أن من المسلم به أن القارى سيقفز إلى الموازنة بين نظام هتلر الجديد « The New Order » و بين الأوسمة «Orders» التى تمنح للتكريم الطنى .

وفى قولنا بأن الاقتصاد والتلميح الحافل فى كارتون « لو » قد أصبحا ممكنين عن طريق المعلومات السياسية التى فيه لا نقصد المبالغة فى عمق هذه المعلومات . فالكثير منها سطحى بلا شك ، ولكنها كافية لإنشاء شعور عام ،أو إدراك جماعى ، يمكن لرمز تصويرى أن يؤدى وظيفته على أساسه أداء قويا . والصور فى كارتون كهذا تخلق جوا أكبر لمعنى الرموز الكلامية التى هى « نازى » ، و « هتلر » ، و « موسولينى » ، و « ميكادو » ، و « ستالين » . أما فى يومنا هذا ، مع الإنتاج السهل السريع للصور ، فينبنى معنى أى رمز عام على الصور بقدر ما ينبنى على الكلمات . وقد كان يصبح صعبا إن لم يكن مستحيلا أن تعبر بالكلمات عن كل ظلال المعنى الآتية من الرسم الواحد لهتلر المتبجح . ولقد خُلِقَ الجو التلميحى لكلمة « نازى » بنسق من الصور من هذا النوع ، أكثر مما خلق بالكلمات ، سواء فى الاتصال العام أو الشعور الجماعى .

إن الصور فى يومنا هذا هى من ثم التى تعطى الكلمات كثيرا من محتوياتها الاشتهائية ، وعلى الأخص هذه المحتويات البعيدة عن التعبير اللغوى التام . فالذى لا يمكن أن يقال بصراحة ، يمكن على أى حال أن يستدعى إلى الذهن . والآن نتساءل عما يستدعيه هذا الرسم فيما يختص بهتلر مثلا فقد يتطلب ذلك نظرة فاحصة

---

(١) هكذا صوراه فى الأوبرا المسماة باسمه من وضعهما . (المترجم)

أدق ، وعند الكشف عن العناصر الوجدانية غير المنطقية فى إدراكنا إياه ، نرى الكلام إذا وضع فى محل الصور يسبب استجابة نقدية أو لعلها تكون رفضا . فالقضية الشفوية القائلة مثلا « إن النازية بعث مسرحى رجعى atavistic للوثنية الرومانتيكية » قد تستدعى تفكيرا نقديا ، فى صدقهـا كقضيّة ، وقد تثير الشك فى أن هذا التعبير المادى المنطقى يخفى وراءه إحساسا ، ولكن الصورة لأنها لا تصوغ أية قضية يقل نقدها والشك فيها .

وتستطيع الصورة مرة أخرى أن تعبر عن مخاوفنا ، دون التصريح بها علنا ، وهكذا لا يوجد شك فى أن سخريتنا من هتلر ، كسخريتنا من نابليون ، قد اشتملت على أكثر من لون من الخوف . ويستطيع رسم كهذا أن يؤدى وظيفة تعمية الخوف الذى قد تفضحه الكلمات ، ويستطيع كذلك أن يحفظ فيما دون الشعور تلك الحوافز والإحساسات والرغبات التى لا يسمح لها بأن تظهر فى تعبير كلامى .

إن تاريخ هذا الرسم هو ١ أكتوبر ١٩٤٠ حين أعلنت المعاهدة التى وقعتها ألمانيا وإيطاليا واليابان ، وسميت نظاما جديدا ، وقد خيف فى بريطانيا أن يكون هتلر فى التحالف بينه وبين ستالين قد أصبح شريكا أقوى . وهكذا يوجد دون شك تحت ستار السخرية الفكهة فى الرسم خوف من أن زيادة سيطرة هتلر حتى فى روسيا ستحطم أملنا الأخير فى المساعدة السوفييتية ضد ألمانيا . وكما كانت الحال فى رسم « جلرى » يتنكر الخوف من العدو ، وإرادة تحطيمه ، فى صورة الاحتقار والسخرية .

ويتم التنكر عن طريق التكثيف والتحويل والتلميح فى الصورة . وفى صورة هتلر مثلا يتضح هذا جميعه : أى التكثيف لمجموعة الإحساسات والاتجاهات فيما يختص به ، وتحويل التوكيد إلى بعثه السخيف للماضى الوثنى الألمانى بدل أن يتجه

إلى الخطر الذى سيأتى منه ، والتلميح إلى مجموعة من الأفكار التى أصبحت مجمعة حول صورة هتلر منذ أن استولى على مقاليد الحكم : مثل كفاحى ، وفاجنر ، والشعب الأسمى Herrenvolk ، والنازى ، وكثير غير ذلك. ويعبر الكاريكاتير عن الاحتقار والسخرية اللذين يحس بهما الشعب البريطانى نحوه ، أو أكثر من ذلك « يحب أن يحسهما » . والكارتون هنا كرسم « جارى » تحقيق رغبة ؛ إنه يبدى هتلر كما يحلو لنا أن نتصوره .

وهكذا « موسولينى » و « الميكادو » ، ولكن لاحظ الفرق فى الوجدان والنزوع فى رسم صورة ستالين . فليس فيها احتقار ، بالتأكيد ، بل فيها بدل ذلك تسامح سمح الطبيعة ، ربما اختلط بتوجس من أن يؤخذ على غرة بالكلمات الطيبة والوعود الخلابة من المحور . ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى أن هذا يرمز أيضاً إلى كثير من الوجدان والنزوع السائد فى البلاد فى ذلك الوقت . فربما كان ستالين يلعب مع المحور ، ولكن قلبه كان ينزع منزعه الطبيعى ؛ أو كنا نأمل ذلك على الأقل . وكان هذا هو ستالين كما كان يحلو لنا أن نتصوره . فأما أن نقول ذلك بكلام طويل فقد كان خطرا ، وعلى الأخص خلال وسط كوسط الصحافة المكشوف . وكان من الممكن لهذا الكلام أن يكون اعترافا واضحا جدا بخوفنا من فقد الاتحاد السوفييتى باعتباره حليفا ، واعترافا من ثم بالضعف .

(٨)

إن الرسوم التى من هذا النوع ، والتى تظهر يوما بعد يوم فى أحد أوساط الاتصال أو الآخر ، تثير الاتجاهات المعينة فى الجماعة ، وتقويها وتخلق التكامل بين اتجاهاتها فتصبح استجابات للرموز الجماعية الكلامية . ومن نتيجة ذلك يصبح

اسم مثل « نازى » يحمل معنى اشتهائيا خفيفا ، ويرمز إلى الإحساس والحوافز ويُثيرها دون أن يأتى بها تماما إلى العقل الظاهر للجماعة . أما وجدان الجماعة ونزوعها فيثار وينمو دون أن يصاغ صياغة لغوية ، ومن ثم دون أن يوضع تحت العين الفاحصة من الجماعة . ومن أجل هـذه الوظيفة من وظائف الرمز إلى الاشتهاء الجماعى يتميز الرمز الكلامى العام بالتكثيف، والتحويل ، والتلميح من نفس النوع الذى يوجد فى الدوافع المعلنة فى سلوك الجماعة ، أو فى الأحلام التى ترمز إلى الاشتهاء الفردى وتعلن عنه .

وربما تتخذ اليوم رموز غنية بالتكثيف ، والتحويل ، والتلميح ، أو تخلق خلقا ، وفى هـذه الحالة تنبنى فى صورة رموز جماعية بواسطة العمل المستمر فى الاتصال عن طريق الصحافة والإذاعة والأدوات العـامة الأخرى . والأسماء التى تستعملها كل جماعة من الجماعتين المتنازعتين لتدل بها على نفسها ، أو لتسمى كل منهما بها الأخرى يحتمل أن تكون من هذا النوع . وأحيانا تُستعمل خصائص الاسم فى الجماعتين كما هى الحال فى كلمة « نازى » ، وفى أحيان أخرى ، كما فى الحياة السياسية الداخلية ، إذا اتخذت جماعة اسما لم تقبله الأخرى . إن المحافظين يسمون العمال « اشتراكيين » ويسميهم هؤلاء بدورهم العُصاة Tories .

وهكذا تعمل الكلمات والصور جنبا إلى جنب ، ويعطى كل منهما جوا تلميحيا للآخر ، وإن قوة الكلمة لتأتى مما يتضمنه استعمالها من صور ، أما الصورة فتدل على محيطها الكلامى بنفسها ، وتجرى الثقافة السياسية بطريق الاتصال فى كل القنوات المختلفة المفتوحة فى يومنا هـذا ، على حين تنتشر الصور بطريق الصحيفة والكاريكاتير والإعلانات والسينما . والصور تكثيف وتحويل وتلميح أكثر من الكلمات ، والصور أقرب إلى الاشتهاء الذى ترمز إليه مما تستطيع الكلمات أن تكون ،

ومن جهة أخرى ربما كانت الكلمات أكثر سهولة فى الاتصال بين شخص وآخر فى المجتمع ، إذ تنطق وتكتب وتسمع وترى .

وحيث توائى الظروف، لتكامل الاشتهاء الجماعى كما هى الحال أيام الحرب، فربما يتم هذا الترابط بواسطة الكلمات والصور . ويخضع المجتمع للرقابة حين يخاف على سلامته من أى رمز أو اتصال لا يتفق مع الاشتهاء الموجه إلى كسب الحرب . ومعظم هذا الاشتهاء غير المرغوب فيه يكبت تحت مستوى الشعور الجماعى ، وبهذا تصبح السيطرة على الاتصال فى خدمة تكامل المجتمع . وكلما ازدادت ضخامة وسائل الاتصال وذيوعها ازداد نجاح هذا التكامل .

ولكن حين لا يوجد تهديد لسلامة المجتمع من الخارج ـ يظهر النزاع الاشتهائى الداخلى المختفى بصفة دائمة . وسوف لا يكون أثر الاتصال حينئذ فى اتجاه التكامل دائما ، فربما أدى ازدياد الاتصال إلى تقوية النزاع ، وهذا هو موضوع الفصل القادم .



كارتون من رسم « لو » يتلاعب بلفظ Order وقد رسم سنة ١٩٤٠

الفصل العاشر

اللغة والنزاع الاجتماعي

(١)

لقد عرضنا فى الفصل الأخير لوظيفة الرمز النطق والتصويرى فى خلق تكامل اشتهائى فى الظروف الحربية المواتية ، حيث يوجد حافز قوى فى الجماعة على التوحد فى الفكر والإحساس والعمل ، والاستجابة لتوجيهات قادتها . وننتقل الآن إلى وظائف الرمز ، حيث يوجد نزاع داخلى ، وهو حالة عادية ، لأن الحرب الداخلية فى كل مجتمع حديث لاتتوقف إلا تحت ضغط الحرب الخارجية . فما دامت الحرب فى الخارج فالسلام فى الداخل ، وما دام السلام فى الخارج فالحرب فى الداخل . هذا هو التبادل المميز للمجتمع اليوم .

ونستطيع لهذا أن نجد أمثلة سريعة من كل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية، وأمثلتنا على الترابط فى المناهج الجماعية والاشتهاء الجماعى ، جاءت عن طريق الصناعة والحرب والسياسة . وسنأخذ لإيضاح النزاع الاشتهائى مثلا يلمس كل أولئك ، كما يلمس أيضاً كل ناحية من نواحى حياة المجتمع الذى يحدث فيه . ذلك هو مشكلة « الأقلية » . ومثالنا هو مشكلة الزنوج فى الولايات المتحدة ، وهو مثل مما يشيع فى العالم الآن من نزاع داخل فى المجتمع بين الأغلبية الحاكمة وبين الأقلية ، ونزاع من

ثم فى داخل كل من الجماعتين الفرعيتين [1] .

ومشكلة الزنوج فى أمريكا مشكلة اشتهائية جدا بلا شك ؛ فثم نزاع يجدد الاشتهاء الجماعى فيه شكل الشعور الجماعى ، والصياغات الجماعية ، حتى إن العلاقة بين النزاع الاشتهائى والاتصال اللغوى تبدو بوضوح . وهى فوق هذا مشكلة نستطيع نحن فى بريطانيا أن ننظر إليها بعدم تحيز وهو ما لا نقدر عليه فى منازعاتنا الداخلية الخاصة ، ولكن يمكننا فهم علاقتها بالاتصال اللغوى بسهولة أكثر مما لو كانت اللغة هناك مختلفة عن لغتنا . والسبب الذى لا يقل عن ذلك أهمية لاختيار هذه المشكلة هو ما تم أخيرا من جعل هذا موضوع دراسة مفصلة خالية من الانفعال والتحيز على يد جماعة من علماء الاجتماع . ولا يترك كتاب An American Dilemma الذى ظهر فى ١٩٤٢ بتوجيه « جنّز ميردال » زيادة لمستزيد من حيث تمام البينات التى قدمها ومدى النواحى التى كشف عنها .

ومادام « ميردال » ورفقاؤه لم يكن لهم اهتمام مباشر بمشاكل الاتصال اللغوى ، فإن مما هو ذو أهمية عندنا أن نجد آثاراً لهذه المسائل اللغوية على الموضوع المركزى . وإن هذا الكتاب ليمثل دراسة إثنوجرافية شعبية كاملة لمشكلة اجتماعية معاصرة ، حيث تقع وسائل الاتصال اللغوى وآثاره فى مكان طبيعى تماما من الصورة .

وستضطر هنا ، وفى كل مكان من دراستنا للغة فى المجتمع ، أن نبدأ بكلام مفصل إلى حد ما عن حقائق النزاع الداخلى ، قبل أن ننتقل إلى التفكير فى علاقة

---

(١) لقد كان من المغرى أن نبسط القول فى التوازى بين العقل الجماعى المتحلل والشخصية الفردية المتحللة . ولكننى سأقنع هنا باقتباس من الوصف الكلاسيكى للشخصية الفردية المتحللة وصفها به « مورتون برنس » . فهو يقول : من الممكن أن ينتج انقسام الشخصية الأصلية فى اتجاهات ولحظات مختلفة عددا من الشخصيات المختلفة التى تظهر بالتناوب . وربما وجدت فى الانقسام أيضاً حالات شعورية معينة يرفضها تركيب الشخصية الجديدة فتظل مركبة فيما بينها خارج نطاق شعور هذه الشخصية لتكون شعوراً من الدرجة الثانية يعمل فى نفس الوقت ويسمى «مادون الشعور» (Prince D P.3) فإذا وضعنا كلمة « المجتمع » مكان كلمة « الشخصية » فحدث تبعاً لذلك تغير أو تغيران فى النص وجدنا وصفاً دقيقاً لمجتمع متحلل .

هذه الحقائق بالاتصال اللغوى . إن وظيفة اللغة والرموز الجماعية الأخرى لا يمكن فهمها إلا فى ظل علاقتها بالحياة الاجتماعية التى تنشأ فيها وتعمل . فدعنا إذاً نبدأ بالحقائق .

(٢)

عندنا فيما يختص بمشكلة الزنوج حقائق كثيرة تجعل فى استطاعتنا أن نصف بشىء من الدقة أصلها وتطورها وحالتها الحاضرة . ومن وراء مشكلة اليوم يقع تاريخ استيراد العبيد السود ، والقصة الطويلة للزراعة فى الجنوب ، التى أدت إلى الحرب الأهلية ، فخلفت تركتها المشئومة لهذا النزاع . تلك مشكلة ذات نواح ثلاث ، فهى بين السود والبيض ، وهى أيضاً فى داخل كل من هاتين الجماعتين ، ثم بين أعضاء كثيرين فى الجماعتين كلتيهما . لأن مشكلة الزنوج كما أشار إلى ذلك « ميردال » مشكلة للرجل الأبيض ، فالأمريكيون البيض فى نزاع بعضهم مع البعض ، على مسألة الزنوج ، وثم فى نفس الوقت نزاع مشابه ، وإن كان أقل حدة فى داخل المجتمع الزنجى [١] . إن النقاش والإحساس المتضارب بين البيض فيما يختص بمكان الزنوج فى المجتمع الأمريكى يقابلهما تنازع بين الزنوج على نفس الموضوع ، وهذا التنازع ينعكس بالطبع فى مظاهر تفكك معينة،وفى تنازع العقول والقلوب فى أعضاء كثيرين من الجماعتين ، فهنا إذاً نزاع فى المجتمع فى عمومه ، أى فى جماعتيه الفرعيتين وفى أفراده ، نزاع مقلق مستقر عميق .

والحقيقة الأساسية فى المشكلة هى الاختلاف فى الجنس واللون . فإن ذلك هو الذى يخلق الحافز البدائى فى النزاع . فإذا نظرنا بطريقة منطقية خالصة إلى حق الزنوج فى أن يتقبلهم المجتمع الأمريكى ويمتصهم ، وجدناه لا يحتمل الجدال . إنهم يكونون

---

(١) Myrdal AD. 26.

عشر السكان جميعا ، وهم من أقدم المستوطنين فى البلاد ، ومعظمهم يمكنه أن يفاخر بوجود أسلاف أمريكيين يرجعون على الأقل إلى مائة وخمسين عاما مضت . وإن تاريخ القانون « الفيدرالى » الذى حرم تجارة الرقيق يرجع إلى عام ١٨٠٨ ولكنهم لهم تاريخ فى البلاد يساوى فى قدمه قدم أى منبع آخر من منابع الهجرة التى تدفقت معا فى المائتى سنة الأخيرة ، ليتكون منها المجتمع الأمريكى . أما فى تقاليد الثقافة ، فهنا أيضا تلاق مع بقية المجتمع . وكما أشار « ميردال » لا يوجد إنسان متمسك بالمبادىء التقليدية للحياة الأمريكية كالزنوج . إنهم يتقبلون مع بقية الأمريكيين ما يسميه « ميردال » « العقيدة الأمريكية » : أى المبدأ القوى للسلوك القومى ، مشتملا جزئيا على المعتقدات التقليدية التى تأتى من الإنجيل ومن الفلسفة الثورية التى كانت أساس ميلاد الجمهورية ، ثم من التاريخ ، ومن الأسطورة . والمذهب الأساسى الذى يقبله السود والبيض على السواء لهذه العقيدة الأمريكية هو المساواة بين الناس ، دون اعتبار جنس أو لون .

ومن المهم أن نلاحظ أن تمسك الزنوج بالعقيدة الأمريكية ليس تبريرا منطقيا من جانب الزنوج لمطلبهم فى المساواة ، إنها عقيدة قائمة على إحساس قوى هو الذى سميناه اشتهاء جماعيا حتى وإن قام شاهد على غير ذلك . « يعلم الزنوج الأمريكيون أنهم جماعة مغلوبة subordinated تقاسى أكثر من أية جماعة أخرى فى الأمة نتائج كون « العقيدة » غير مراعاة فى أمريكا . ومع ذلك ليس تمسكهم بالعقيدة مجرد وسيلة لطلب حقوقهم المضيمة . فهم كالبيض ، يقعون تحت سحر الفكرة القومية العظمى ، وهم فى جزء منهم يعتقدون كما يعتقد البيض أن « العقيدة » تحكم أمريكا [1] .

فالزنوج فى الحقيقة جزء من الشعب الأمريكى بالقوة كما يعبر المناطقة من حيث

---

(١) Myrdal A.D. 4.

إنهم يساهمون مساهمة تامة فى المعتقدات المشتركة : والثقافة المشتركة ، وليس ثم إلا قليل من الأسس لاستبعادهم من المجتمع الأمريكى . فالحوافز الحقيقية اشتهائية بلاشك.

(٣)

تظهر الحوافز الجماعية كما أشرنا إلى ذلك فى صورة دوافع معلنة فتكون حينئذ أقل وضوحا مما تظهر فى السلوك العادى للجماعة . إن هذه الدوافع المعلنة هى التى علينا أن نبحث فيها عن أدلة على الحوافز البدائية . والمراقب الخارجى هنا ، كما فى كل مكان آخر ، يرى اتحادا فى مظهر السلوك ، لا يبدو بنفس الوضوح لمن يراقبه من داخل المجتمع نفسه . وقد استطاع « ميردال » أن يضع نسقا من القواعد التى تظهر من العلاقات الفعلية بين البيض والسود فى الشمال ، وربما كانت أقل وضوحا فى الجنوب، ولكنها فى كل مكان لها نفس الترتيب من الأهمية النسبية . وأول شىء من هذا هو الحاجز دون التزاوج ، والاختلاط الجنسى بين الأجناس ، وعلى الأخص حين تشتمل المشكلة على نساء بيض . ثم يأتى حاجز ضد الاختلاط الاجتماعى العام فى الرقص مثلا ، أوفى الأكل معا ، ثم يأتى انفصال فى استعمال المرافق العامة ، وفى الحقوق السياسية ، والتمييز فى المحاكم والبوليس ، وأخيرا يأتى تمييز اقتصادى ، وعلى الأخص استبعادهم من المهن المفضلة .

وترتيب الأهمية بين هذه التمييزات يكشف عن الحوافز الخفية: ألا وهى حالات رد الفعل الاشتهائية العميقة فى مواجهة اختلاف الجنس واللون . وربما اعترف معظم البيض فى أمريكا على أى حال بموقف « غرزى » خاص تجاه الزنوج ، وربما كان ذلك مزيجا من التسامح ، والعطف ، والتعالى ، والخوف ، والكراهية ، إلى جانب إحساس مختلط بالسمو العقلى والمعنوى ، والانحطاط العضلى . وقد يعترف الزنوج من جانبهم بمزيج من الإعجاب والكراهية ، والخوف من البيض ، وبمزيج من الاحساسات بالدنو فى بعض النواحى ، والسمو فى بعضها الآخر . وإن وجود هذه الكراهية

المتبادلة Xenophobia لايمكن أن يدحض ، ولو أنه من الممكن أن نوضح ، كما فعل « ميردال » أن هــذه الــكراهية فى كلا الجانبين مدينة كثيرا للتقاليد ، بما فيها التقاليد اللاشعورية ، حتى إنه من غير المحتمل أن تــكون هذه الـكراهية فطرية إلى أية درجة ملموسة . ويذهب أبعد من هذا إلى القول إنه بالثقافة بالمعنى الأعم يمكن محو هذه الـكراهية المتبادلة ، ولـكن فى هذه الأثناء يجب أن نقبلها باعتبارها الحقيقة الأساسية فى النزاع بلاشك .

وإن الـكراهية لتجد تعبيرا عنها فى مسألتين ذواتى أهمية أساسية لأى مجتمع ، ولاسيا فيما يتصل بتاريخ المجتمع الأمريكى . ألا وهما الجنس Sex ، وتقدّم الجماعة . ولاشىء فى هــذا النزاع يمكن أن يوازن بعمق الاستنكار الانفعالى من الرجل الأبيض للعلاقة الجنسية بين الرجال الزنوج والنساء البيض ، وهو استنكار ظل فى الماضى على أى حال يقوم إلى جانب تغاض عن العلاقات بين الرجال البيض والنساء السود . والزنجى على العكس يستنكر العلاقة الجنسية بين النساء السود والرجال البيض ، على حين يميل إلى التغاضى عن العلاقات بين الرجال الــسود والنساء البيض . وهكذا نرى اتساقًا فى صورة موقف الرجل على كلا الجانبين ، كما يستنتج « ميردال » ؛ فإذا كان الأمر كذلك فربما استطعنا أن نضيف أن ذلك مثل من أمثلة الغيرة الجنسية للذكر ، أثارها احتمال التنافس الجنسى بين الذكور خارج نطاق القرابة ؛ وتلك ظاهرة شائعة فى كل مكان للعداوة الشعبية بين الجماعات ذات العلاقات المتشابكة .

ويتصل بهذه الغيرة الجنسية عن قرب غيرة من كل شىء يمكن أن يعطل تقدم الجماعة . وهكذا يخشى البيض أن يتسبب الــسود بمــا فيهم من انحطاط ، فى الهبوط بالشعب الأمريكى من المستوى الرفيع الذى قدّر له ، على حين يستنكر الزنوج من جانبهم التمييز العنصرى الذى يمنع تقدمهم فى المجتمع الأمريكى وفى العالم .

وهاتان الغيرتان تنبعثان مباشرة من الـكراهية البدائية للغريب xenophobia ،

ولكن لا شك أنهما كما قال « ميردال » تكتسبان قوة من الظروف فى التاريخ الأمريكى والتقاليد الأمريكية [1] . وإن كل جماعة من الطليعة فى أية أرض غريبة ليحتمل أن يكونوا شديدى الغيرة على الاختصاص بالنساء من بنات جلدتهم ، وأن يكونوا حساسين بالنسبة لأى شىء يمكن أن يؤثر فى تكوين الجماعة ، أو يعطل تقدمها . وهذان المظهران من مظاهر الحرص يقويان التقاليد الخلقية القوية الموجودة فعلا عند السلالات الأمريكية القومية ، كالموقف التقليدى للتشدد فيما يختص بالجنس Sex ، ومبدأ المساواة فى العقيدة الأمريكية ، وهو مبدأ يعطى الحق لكل إنسان فى حرية التقدم الاجتماعى . ويبدأ النزاع الداخلى من هذه النقطة ، لأن من المذاهب القوية فى العقيدة الأمريكية أن المرء يمكن أن يحرم هذا الحق على أساس شعبى .

والخوف والغيرة الاقتصاديان يتلوان فى الترتيب هاتين الغيرتين السابقتين مباشرة وإن المعركة من أجل كسب العيش فى أى مجتمع صناعى لتنتج حافزا مستمرا على استبعاد جماعات فرعية فى المجتمع من حقل العمل ، كالنساء ، واليهود ، والزنوج . وفى الحالة الأخيرة (أى حالة الزنوج) يتسبب استبعادهم من المهن المفضلة بدوره فى نتيجتين متلازمتين : أولاهما استنكارهم الاستبعاد ، وثانيتهما الانسحاب فى عزة وكرامة من المهن التى توجد فيها منافسة من البيض . ويهيئ المجتمع الزنجى لنفسه معظم قساوسته ومعلميه [2] .

وثمة صلة بين هذه الحوافز المتأصلة فى القوى الجنسية Sexual والاجتماعية والاقتصادية (بل انبعاث جزئى منها) ، وبين الاختلافات الهامة فى التقاليد الاجتماعية ، وفى عادات المعيشة ، كالدين ، والترفيه ، والملابس ، والتصرفات اليومية

(١) Myrdal A. D. 60.

(٢) the same 305.

العامة . ولا حاجة بنا إلى تفصيل القول فى هذه الأشياء ؛ وواضح تماما أن المسيحية عند بعض أعضاء المجتمع الزنجى لها خصائص مميزة تؤثر فى العقائد فى بعض الحالات المتطرفة . والفردوس فى المراعى الخضراء The green pastures « لمارك كونلى » فيه قسط ولكنه غير كثير مشترك بينه وبين الفردوس البروتستنتى الذى يصوره الفردوس المفقود Paradise lost .

وإن طالب الدراسات الشعبية ethnographer إذ ينتقل من المجتمع الأبيض فى عمومه إلى المجتمع الزنجى فى مجموعه ، ربما اضطر إلى أن يلاحظ مطامح شخصية أقل قوة فى الصناعة ، وطرقاً مجانية سهلة فارغة البال لملء وقت الفراغ . والغناء والرقص الزنجى فيهما تعبيراتهما المميزة ، ومع أن هذه الاختلافات فى معظمها نتيجة المعاملة التى عومل بها الزنوج منذ دخولهم إلى أمريكا ، يحس الجانبان بأنها أساسية .

وينشأ النزاع من الحوافز الاشتهائيـة الأساسية والثانوية ، ومن الاختلافات المرتبطة بهـا بين طرق المعيشة . وهنا تدرس النزاع الداخلى فى كل من الجماعتين ، وهو نفس النزاع الداخلى الذى لاحظناه فى الأمم المتحاربة ، أى نزاع بين المبادئ المحببة وبين الحوافز الحقيقية . والمبادئ كما رأينـا هى ما يعتنقه البيض والسود على السواء ، وتعبر عنها العقيدة الأمريكية . أما الحوافز ، ومعظمها متصل بكراهية الغريب Xenophobia ، فهى مخاوف جنسية واجتماعيـة واقتصادية ، تعززها الاختـلافات فى العادات والنظرة العامة . وتلخيص النزاع هو أنه مع كون العقيدة الأمريكية تندد فى عبارات صريحة بالتمييز على أساس شعبى نجد المواقف الاشتهائية والسلوك الجماعى الفعلى فى المجتمع الأبيض مشبّعَيْن بالتمييز على نفس هـذا الأساس . والمجتمع الزنجى يمزقه نزاع مشابه بين معتقداته وظروفه . وهـذا بالطبع مثال واحد من أمثـلة النزاع فى أنحاء العالم الحديث ، تلك التى تنبعث عن عدم التلاؤم بين

مبادئ المساواة التي ينادي بهـا الأحرار ، وبين التمييز الفعلي الموجود ضد جماعة الأقلية المنحطة .

كيف يعالج المجتمع الأمريكي الأبيض نزاعه الداخلي ؟ وما الدافع الجماعي الذي ظهر باعتباره وسيلة للتوفيق بين الحوافز والمبادئ ؟

(٤)

إن الدافع المعلن عند الأمريكيين البيض لتبرير التمييز ضد الزنوج هو « النقاء الشعبي » أما كون ذلك في اتفاق مع العقيدة الأمريكية ، أو مع بعض المبادئ الاجتماعية المقبولة ، أو كونه له أي معنى واضح ، فلم يكن موضع نقاش . لقد أصبح إيماناً كبقية الدوافع الجماعية في كل مكان ، بل كان إيماناً يقوم بمعجزة التوفيق بين الحقائق والمواقف المتناقضة.وفي الساعة التي يقبل فيها هذا الإيمان يصبح لـكل شيء ما يبرره في نظر الجماعة . فلتوقي اختلاط الأجناس Miscegenation يجب ألا يكون ثمة اختلاط جنسي sexual بين الأجناس المختلفة ، وما دام كل العلاقات الاجتماعية تقريبا يمكن أن يفتح الطريق إلى الاختلاط الجنسي sexual ، وجب أن يوضع التمييز الاجتماعي موضع التنفيذ . وإنـ من المهم أن يدفع الزنجي إلى الاعتقاد بأنه لا يستطيع أن يدخل مجتمعا أبيض على قدم المساواة .

وهكذا كان ذلك دائما هو الدافع المعلن ، وسنرى أن له خصائص مميزة توجد في الدوافع الجماعية المعلنة بصفة عامة . إنه يبرر الحافز الاشتهائي العميق على كراهية الأبيض للأسود Xenophobia ، والعزوف الاشمئزازي عن السماح له أن يكون مساويا جنسيا sexual أو اجتماعيا ، بإعلاء ذلك إلى مستوى الدفاع عن النقـاء الشعبي .

وما دامت كراهية الغريب في نفسها غير منطقية ، ومن ثم لاتؤدي وظيفة دافع

معلن ، لأنها لاتتفق مع مبادئ العقل والعدالة ، يصبح الدافع المعلن صيغة مقبولة قبولا عاما ، وظيفتها أن تدفع بالكراهية غير المنطقية للغريب Xenophobia إلى الانزواء وراء ضوء الشعور الجاعى .

ومما يستحق الملاحظة أنه حتى هـذا الدافع المعلن لا ينجح تماما فى التوفيق بين الأمور التى لاتتلاق . فالسماح للرجال السود أن يكونوا شركاء فى تجربة جنسية Sexual يصادف كما رأينا أعظم استنكار انفعالى ، على حين يتغاضى عن السماح للنساء الزنجيات بمخالطة الرجال البيض ، ومع هذا تعتبر كلا التجربتين اعتداء على « النقاء الشعبى » وبالرغم من ذلك أيضاً لا تتطلب العقيدة الأمريكية ولا مذهب النقاء الشعبى ، تمييزا ضد الزنوج ماداموا لايخالطون البيض « أى منعزلين لكن مساوين » . ومع هـذا ظلوا منعزلين كما يقول « ميردال » وعرضة فى نفس الوقت لنواحى العجز والقصور .

وواضح أن عندنا هنا مثالا محددا لظهور الدافع المعلن باعتباره وسيلة جماعية لسد الفجوة بين الحوافز الجاعيـة والمبادئ الجاعية ، إذ يصبح الدافع المعلن عقيدة لا يجوز التساؤل عنها ، ومعنى أن يسأل المرء عنها أن يصبح خارجا على الجاعة ، فلا محل حينئذ للإجابة على السؤال . وهـكذا يظل عدم تلاقيه مع الحوافز الحقيقية على الكره من جهة ، ومع العقيدة الأمريكية من جهة أخرى ، بعيدا عن الشعور الجاعى .

وقد يكون من السخف أن يقدم المرء حكما أخلاقيا على هذه الحالة السائدة التى نجد مقابلا لها بشكل أو بآخر ، وبدرجة كبيرة أو صغيرة ، فى كل مجتمع حديث ، وفى مجتمعنا البريطانى بالتأكيد . حقا إن نفس التحديد والوضوح فى هذا النزاع ينشأ كما سنرى من كون المجتمع الأمريكى أكثر شعوراً بنفسه ، و « أكثر صدقاً مع نفسه » من المجتمعات الأخرى . وهمنا هنا أن نأخذ النزاع باعتباره حقيقة ، وأن

نسأل عن العلاقة بين هذه الحقيقة و بين الرموز الجماعية والاتصال الجماعى .

(٥)

إن الوسائل التقليدية فى كل مجتمع لمعالجة نزاع من هذا النوع هو نسيان الحوافز الحقيقية ، أو تشويهها ، أو كلا الأمرين معا ؛ أو بعبارات دراستنا للاتصال عدم الرمز إليها ، أو أن يرمز إليها بشكل مشوه ؛ وأما بعبارات علم النفس الاجتماعى فكبتها فى اللاشعور الجماعى ، أو السماح لها بالظهور فى الشعور الجماعى عن طريق الرموز التى تمتاز بالتكثيف والخيال التصويرى والتلميح والتحويل .

ولكن أيا من هاتين العمليتين : الكبت والتشويه، لا يوجد فى المجتمع الأمريكى الآن ، لأنه مجتمع بتقاليد طويلة العهد من الشعور بالنفس والأمانة فى مواجهة نواحى نقصه . ونستطيع إذا رجعنا إلى عام ١٨٩٣ أن نقتبس دليلا لا استثناء فيه مما كتبه « برايس » Bryce إذ يقول : « إنهم يعلمون و يقتنعون بأن كل العالم يعلم أقبح ما فيهم وأحسنه كذلك ، و إن لهم لإيمانا لا حد له بالبحث الحر والمناقشة الكاملة ». ويأتى « ميردال » بهذا مع دليل سابق على نفس المعنى ، مضيفا مدحه الخاص للرغبة الدائمة عند الأمريكيين فى أن يجعلوا أنفسهم شاعرين بحوافزهم الاجتماعية ومعتقداتهم وسلوكهم [١] . ويأتى التطور الاتصالى المعاصر أى الثورة اللغوية لهذه التقاليد والرغبات كوسيلة يمكن للمجتمع الأمريكى عن طريقها أن يصل إلى مستوى عال من الشعور بالنفس .

ومع هذا يكون من المدهش ألا تستمر تلك الميول القوية إلى الكبت والتشويه، حتى مع وجود هذا التقليد الجماعى ، والرغبة الجماعية فى مواجهة الحقائق . دعنا نأخذ الكبت أولا . فمع أنه ليس ثمة إلا قليل من الإخفاء المتعمد لحقائق المشكلة الزنجية ،

---

(١) Myrdal A.D. 21.

هناك على العكس نمو فى الاتصال فيما يخص كل نواحيها ، وثم مع هـذا أيضا كثير من الـكبت غـير المعترف به ، ينتج عنـه سوء فهم ، ومعلومات خاطئة ، وجهل صريح كذلك .

وهذا بالطبع أصدق على الجنوب منه على الشمال . ويخبرنا « ميردال » أنه فى الجنوب كراهية واضحة لمناقشة المشكلة بتاتاً ،فالموضوع إلى حد ما يعتبر محرما taboo . ويقول : إن الرأى السائد عند الجنوبيين البيض أنه ليس ثمة « مشكلة للزنوج » ، حتى إنه فى الاجتماعات التى تجمع الطائفتين أصبح من آداب السلوك عند زعماء الزنوج أن يعلنوا أن اختلاف الأجناس لا يصح أن يُعَدَّ عقبة فى سير الأمور [1] . وأصبح فوق ذلك مما له حـكم العادة أن يتم تجاهل المسألة فى المدارس والصحافة الجنوبية البيضاء . وبعبارة أخرى استبعدت المشكلة من كل ما رأينا أنه وسيلة رئيسية لخلق اتصال لغوى بين الـكبار . والأكثر لفتا للنظر وجود تقليد اجتماعى يستبعد الرمز بالصور إلى الزنوج : « لقد وجد فى الماضى قانون غير مكتوب فى الجنوب هو أن صورة الزنجى لا يجب أن تظهر مطبوعة ولا يزال ذلك نادراً حتى الآن » [2] . ولقد لاحظنا بعض وظائف الصور فى الاتصال الجماعى . وفى المجتمع القارئ الـكاتب إلى حد محدود ، وفى حالة انشغال الأشتهاء انشغالا عميقا ربما تصبح الرموز التصويرية أكثر أهمية من اللغة .

ويتخذ النقاش فى هذه المسألة غالبا شكلا « غير شخصى» dispersonalized كما لو كان المناقشون لا يريدون تحمل المسئولية عن المعتقدات التى يدافعون عنها ، ولـكنهم مضطرون للخضوع لإجماع الجماعة . « ولا يكاد البيض يناقشون أبدا تلك المسألة مع التعبير « بأنا » أو « نحن » ، ولـكنهم يقولون دائما « هم » أى الناس فى المجتمع . . . . ويستطيع الإنسان أن يتجول لمدة أسابيع ، ويتـكلم

(١) the same 31

(٢) the same 37.

إلى البيض من جميع المهن ، ويسمع دائما عن الرغبات والمعتقدات عند هذا المسئول الذى يُشيرون إليه ، ويندر مع هذا أن يقابل المتجول إنسانا يقول إنه هو هذا المسئول ؛ بل إنه تابع له[١] . وملاحظة « ميردال » التى تكاد تكون عرضية ، حقيقة ذات خطر غير عادى بالنسبة لنا هنا ، فهو لا يهتم مبدئيا ، كما نهتم نحن ، بالتحليل النفسى للسلوك الجماعى ، ولهذا لا يوجه كبير انتباه إلى هذه « اللاشخصية » . ولكننا يجب أن نعترف هنا أن ذلك حقيقة هامة جدا فى سيكولوجية الجماعة ، أى أنه حيث يوجد اشتهاء جماعى قوى فى مواجهة جماعة أخرى ، كالتمييز العنصرى أو القومى مثلا ، ربما أحس الأفراد الذين يخضعون لهذا التمييز أنه قوة لا تخضع لسيطرتهم الشخصية . ويجب أن نعترف أن هذا المعنى من العجز الفردى وعدم الشعور بالمسئولية يرجع بالضبط إلى وجود اشتهاء جماعى حقيقى فى المجتمع وترابط للاشتهاء الجماعى بواسطة رموز يتم الاتصال بها خلال الجماعة .

ومما له صلة قريبة بهذه « اللاشخصية » التلميح الدائم إلى مشكلة الزنوج فى صورة الفكاهات الزنجية الخاصة . يقول « ميردال » إن الزنجى فى الجنوب هو موضع النكتة الفكاهية سواء فى مجتمع الزنوج أو بين البيض . ويضيف إلى ذلك : « والوظيفة الأساسية للنكتة هى أن تخلق استحسانا عاما مفتعلا surreptitious approbation لشىء لا يمكن أن يقبل علنا بسبب المنهيات الخلقية »[٢] . والشبه بين هذا التفسير لشيوع الفكاهات الزنجية وبين ما لاحظناه فيما يختص بوظيفة الكاريكاتير فى الفصل الأخير يلفت النظر .

فمن نتائج كبت مناقشة مشكلة الزنوج ، أو السماح بها سماحا غير مباشر ، وجود جهل فظيع بين البيض فى الجنوب بالحقائق فى حياة الزنوج . يقول « ميردال » : إن

---

(١) Myrdal AD. 37

(٢) the same 38.

المرء قد يقابل أطباء باطنيين بيضا من الجنوب لاعلم لهم بالخصائص العضوية للزنوج ، وتربويين لهم فهم خاطئ تماما لذكاء الزنوج وقدرتهم على التعلم. وبالرغم من كل ذلك فالحقيقة العجيبة هي دعوى الجنوبي الدائمة أن لا يعلم إنسان شيئا عن الزنوج كما يعلم هو [1] . وبعبارة أخرى لا يوجد كبت جماعي للحقائق فحسب ، بل يوجد كذلك « لا شعور » جماعي مخلوط بهذا الكبت .

والآن نصل إلى التشويه . إن الجهل بالزنوج لدى الجنوبيين لا يقف عند هذا الحد بل إن معلوماتهم عن الزنوج تمتلئ بتشويهات الحقائق . فبدلا من الحقائق الخاصة بالزنوج نرى نسقا من « التحريفات stereotypes » التي تتشكل في صورة للزنجي متكاملة نوعا ما وغير متناقضة ، هي رمز جماعي إليه شائع بين الجنوبيين البيض وتلك صورة جماعية تقف في مكان الحقائق الصادقة .

وهذه الصورة الجماعية تستحق الدراسة مع بعض التفصيل ، لأنها حالة نموذجية للجمع القوى بين الرمز النطقي والتصويري . إنها مشبعة بفكرة الانحطاط التكويني للزنوج ، التي هي كما يقول « ميردال » بديل حديث لفكرة لاهوتية theological قديمة [2] . فالزنجي الأسود — والسواد لون الشيطان وأتباعه — كان بربريا وثنيا ، وربما كان في نظر اللاهوت بلا روح . أما في جونا الفكري الحديث فلا تجد هذه الفكرة أية فرصة للورود ، إذ لم تعد « محترمة » . ولهذا كان لا بد أن يعطى التحيز القديم صياغة جديدة ، أو بعبارة أخرى ، لا بد للاشتهاء الجماعي المستقر من أن يمنح تعليلا منطقيا جديدا . وإن علم الحياة قد تغلب على اللاهوت : والزنجي يعتبر الآن أقل من الناحية الحيوية ، وأن له خصائص فطرية لا تغيرها البيئة ، بل هو يعتبر ببساطة أدنى منا في سلم التطور ، ومن ثم ليس له أمل كبير في المستقبل في أن يتغلب

---

(١) the same 41.

(٢) Myrdal AD, 88.

على هـذه العقبة . وهكذا كان من الممكن حتى عام ١٩١٥ لـكتاب مثل America's Greatest Problem من تأليف « شفيلدت » أن يحظى بالقبول بالرغم من أن وسيلة الإيضاح الرئيسية فيه كانت صورة الزنجى يقف بين قردين .

وعلى أساس هذه الفـكرة القائلة بالانحطاط التـكوينى عند الزنوج تنمو صورة مكونة من التحريفات المفصلة العضلية والخلقية . أما عضليا، فإن من المعتقد أن الزنوج أعظم قوة من البيض ، أى أنهم حيوانيون ، وأما جنسيا Sexually ، فهم أشد ، وتلك دلالة أيضا على قربهم من الحيوانات وعلى خطرهم الدائم على المرأة البيضاء . ومن المعتقد أيضا أن لهم مخا أصغر وأقل تعقيدا ، ومن ثم فلهم ذكاء أدنى ، وأنهم تنقصهم القدرة الفنية ، والمواظبة ، والانتباه إلى التفاصيل ، والتصرف ، وكل ذلك ضرورى للمناهج الجماعية الصناعية فى الحياة الحديثة . أما خلقيا ، فالمعتقد أنهم أكثر تحللا فى أخلاقهم الجنسية Sexual ، وأنهم أكسل ، وأكثر استعدادا للجريمة ، بكل أنواعها ، وعلى العموم هم عرضة للانتكاس إلى البربرية التى خرجوا منها حديثا جدا . ولا بد أن نلاحظ أن كل هـذه الخصائص يُظَنّ أنها فطرية ، وليس معنى ذلك استحالة استئصالها فحسب ، بل هى عرضة لأن تسبب العدوى لأى عضو من أعضاء الأجناس الأخرى يتزاوج مع الزنوج . ومن هـذا أصبح من الضرورة الملحة لخير المجتمع الأمريكى الأبيض أن يقيم ستاراً بيولوجيا حول العقيدة المثالية فى المساواة . ويشير « ميردال » إلى أنه من الضرورى خلق معتقدات فى المميزات الوراثية بسبب وجود العقيدة الأمريكية ، والتنديد بالتمييز العنصرى ، بالرغم من أن كل واحد من التعميمات التى ذكرناها قد بدا كما أضاف « ميردال » مجردا من أى أساس علمى بلا شك .

وفوق ذلك من المعتقد أن شخصية الزنجى لا بد أن تصبح مُغَلَّقَةً ، لأن تكوينه الوراثى يجعله غير قادر على التكيف بكيفية حاجاته فى المجتمع الحديث . وفى الخرافة

والقصة يبدو الزنجي من ثم شخصية مكونة من عدد من الشخصيات العرفية التي يعوزها شيء من الرجولة الصحيحة ؛ كالعبد القانع ، أو العتيق البائس ، أو الزنجي المضحك ، أو الأسود الحيواني ، أو السليل المختلط المسكين ، أو الزنجي المضاف إلى تفصيلات المنظر Local Colour Negro ، أو البدائي الغريب (١) .

والتكثيف والتحويل والتلميح على النحو الذي قال به فرويد واضحة جدا في الرمز الجماعي العام إلى الزنجي . فعندنا مرة أخرى صورة مركبة تقع التحريفات العديدة فيها واحدة فوق الأخرى ، والتناقض الذي فيهـا يصبح غير واضح إلى درجة تميّع غـير محدد ، على حين تصبح الملامح المكررة الورود فيها ، سواء أكانت حقيقية أم مزيفة ، بارزة إلى درجة أكبر مما يحتمله الموقف . وتتركز في هذه الصورة المركبة كل الرموز المختلفة للإشتهاء المعادي للزنوج . ومع أن الزنجي ربما نسبت إليه خصائص يتنافر بعضها مع البعض ، فهي لا يتضح التناقض بينهـا في الشعور الجماعي ، لأنه لا يعبر عنـه تعبيرا لغويا إلا نادراً . دعنا نأخذ مثلا واحدا يعبر عنه « ميردال » فيما يلي : من المعتقد عموما أنه ما دام الزنجي يعيش بتـكاليف أقل في المعيشة عمـا يعيش الأبيض فلا بد أن يكون قانعا بأن يعطى أجوراً منخفضة ثم هو بالرغم من هـذا متهم بشهوة التملك التي تغريه بمحاولة إخراج الأبيض من المهن المرتفعة الأجور (٢) .

والتحويل كذلك واضح وضوحا كافيا ؛ ففي الصورة الجماعية السـائدة يأتي توكيد إضراري لـكل الخلافات التي تفرق ما بين الأسود والأبيض ، مع إهمال كل جهات الشبه التي قد تدل على خصائص أمريكانية عامة . وهكذا كان الضخم ، المسترخي الأطراف ، السميك الشفاه ، الصوفي الرأس ، الأصيل السواد ، هو الصورة التي تتخذ رمزا جماعيا للزنجي في ذهن كثير من الأمريكيين البيض ، لتحل محل صورة أكثر

---

(١) Myrdal AD. 1196.

(٢) the same AD. 39.

بساطة ولكنها أسرع إلى الإدراك ، وإلى الاستقرار فى الذهن تدل على الحقيقة الأدق الأقل تأثرا بالتحيز .

(٦)

ذلك يكفى فى الكلام عن الصورة الجماعية . ونتجه الآن إلى الرمز اللغوى الجماعى . فكما هو الحال غالبا فى النزاع الجماعى الذى من هذا النوع ، نجد إسما طائفيا للأقلية — هو هنا « nigger » ، ذلك الاسم فى الأصل أى منذ أكثر من مائة وخمسين عاما مضت اسم يدل صراحة على الحقيقة المجردة للون ، أما اليوم فإنه يحمل حملا اشتهائيا ثقيلا جدا حتى إنه يجب أن يستبعد من الكلام المهذب . ويرفض « ميردال » أن يستعمله رفضا صريحا [١] .

والتغيرات التى حدثت فى الصيغة والمعنى فى هذه الكلمة تبين وظيفتها فى النزاع الجماعى الآن . ويعطينا قاموس أوكسفورد ماتتوقع من تاريخ الكلمة : « nigger » أول ورود لها فى الأدب يرجع إلى ١٧٨٦ ؛ وتغير هجاؤها بعد ذلك ، مع الدلالة على أن الكلمة ربما قد سلكت فى نفس النظام مع طبقة الكلمات الدالة على اسم الفاعل ، والتى تنتهى بحرف er — فإذا عبرنا عن ذلك بطريقة منطقية خالصة ، فإن العجز Suffix الذى فى صورة er — يدل على اسم الفاعل أو الذى قام بالعمل ، دون أى معنى من معانى العيب . ولكن barber ، و butcher ، و baker ، و Candle - stick maker كلها أسماء ترزح تحت حمل ثقيل قديم من التعالى الطبقى . وتأتى كلمات أخرى لتندرج فى هذه المجموعة من الكلمات بسبب القياس . فمثلا كما أن الكلمة fellow يمكن أن تحمل معنى عيبيا حين تنطق feller ، نجد كلمة Negro التى تكتب بهذه الطريقة تُنْطَق « nigger » [٢] .

---

(١) إنه محرم الذكر فى هوليوود Mencken AL 305

(٢) « فى الكلام الرسمى وفى الجنوب على الأخص غالبا ما تنطق كلمة Negro كما لو كانت مكتوبة Nigger » مأخوذ من Craigie and Hulbert, Dict. Amer. Eng. . أما وبستر (Amer. Dict. 1828) فانه يورد Neger بدل Negro وذلك دليل على النطق المعاصر : Mencken AL 385

وليس معنى هــذا أن القيـاس تم عن شعور ، بل على العكس نرى القياس اللاشعورى مبدأ مقبولا تماما فى الدراسات اللغوية ، ويذهب فى القدم إلى كتابة هرمان بول Prinzipien المنشور عام ١٨٨٠ . ولا يحتمل أن يطبق القياس بالضبط حيث يوجد حافز اشتهائى . وأثر استعمال صيغة nigger هنا هو تحويل التوكيد من المعنى الأولى وهو اللون ؛ ويكتسب الاسم بعض الدلالة من الـكلمات الأخرى ذات « er » وهنا شيء من الدلالة على معنى « فاعل » ، وإن nigger لَيُحَسُّ أنه شخص يسلك سلوكا مميزا أكثر مما هو شخص من شعب أولون معين . والاسم إن صح هذا التعبيرمسحوب بعيدا عن مجال المعانى المنطقية العلمية ويكتسب دلالة اشتهائية تامة فى مكان ذلك . ولهــذا حين يستعمل الأبيض أو حتى الأسود اليوم كلمة nigger ، فإن الـكلمة تدل على شيء من الازدراء الذى قد يقع فى مدى ما بين التسامح الفــكه السهل الطبع وبين الـكراهية المتطرفة . وإذا سميت جماعة من الناس Negros ، فقد وضعتهم بطريقة منطقية غير انفعاليــة محترمة جنبــا إلى جنب مع الشعوب الأخرى . أما إذا سميتهم niggers ، فقد لوثت حقيقة كون الفرق الأولى فرقا شعبيا . فالاسم nigger يضعهم فى طبقــة قائمة بنفسها لاشبيه لهــا فى بقيــة النوع الإنسانى ،وبعبارة أخرى يدعو الاسم negro إلى تفــكير منطقى فى الفرق بين الرجل المسمى به وبين البيض ، أما الاسم nigger فإنه يبهم نقطة الخلاف ، ويعبر فى مكان التفــكير المنطقى عن موقف انفعالى مركب .

فإذا حللنا هــذا الموقف الانفعالى بدت لنا منه بوضوح خصائص التــكثيف والتحويل والتلميح فى الصورة الجماعية التى ترتبط بها الـكلمة عن قرب ؛ وتساعد الـكلمة باعتبارها وسيلة للتــكثيف على تجميع كثير من التحريفات التى وصفها « ميردال » وتساعد فى نفس الوقت على نقل التوكيد من صفات من يسمى Negro التى تدعو إلى الاحترام ، وإلى التفــكير فيما تتطلبه معاملة إنسان زميل ، إلى الصفات

التى يُفْتَرضُ أنها تحدد من يسمى nigger . أما التلميح ، فواضح أن كلمة nigger تسحب وراءها تقاليد طويلة للصورة والأغنية والقصة ، وهنا ترى مما يثير الاهتمام أن نلاحظ مرة أخرى وجود « خرافة جماعية » group myth وظيفتها أن تهيء الجو التلميحى للرموز الجماعية النطقية أو التصويرية . وكان مثالنا السابق أسفار « جليفر » فى علاقتها برسم « جارى » . أما فى مثالنا الحاضر فينشأ الكثير مما هو عاطفى مثير للشفقة وللعطف فى صورة الزنجى من رواية « كوخ العم توم » Uncle Tom's Cabin . وهذه القصة بكونهامعروفة عند كل أمريكى منذ الطفولة تفضل كل القصص تقريبا فى أى مجتمع متمدن من حيث الشهرة ، وتكوين ميراث مشترك (١) .

فإذا سألنا الآن بعد التحليل المختصر لهذا الرمز النطقى للزنجى ماوظيفته فلن يكون هناك كبير شك فى طبيعة الجواب: إنه مثال آخر للرمز الاشتهائى الذى تستعمله جماعة لتسمى به جماعة أخرى ؛ قارن كلمة « نازى » . وتحل كلمة Negro اليوم محل nigger وهذا تغيير ذو دلالة على تحول فى مشكلة الزنوج . وكلما استعملت كلمة nigger رمزت إلى الاشتهاء الجماعى للمجتمع الأمريكى الأبيض تجاه الزنوج،والاشتهاء الجماعى للزنوج تجاه أنفسهم . فلقد أصبح رمزا له مجموعة من الخرافات والصور المختفية خلفه بالنسبة لكلا الفريقين ، يؤدى دور التعبير عن بعض نواحى الاشتهاء الجماعى ويبهم البعض الآخر . فيعبر عند البيض عن تجرؤ نصف فكاهى ازدرائى يوشك أن يدخل فى نطاق الإهانة ، ويبهم فى نفس الوقت النواة الحقيقية للاشتهاء وهى توكيد اللون والجنس . أما بالنسبة للزنوج أنفسهم ، فهو يعبر أيضا عن تجرؤ نصف فكاهى عيبى ، ولكنه أيضا يحول التوكيد من نقطة النزاع الحقيقية ، لأنه حتى وقت قريب ولا يزال إلى الآن إلى حدما ، وجدت عند الزنوج رغبات التقليل من خطر الخلاف

(١) يقال ان التعبير - to Uncle Tome - بين الزنوج معناه ابداء الخضوع للرجل الأبيض فى الكلام والسلوك Cayton BM 67

بين الجنس واللون ، ولجعل أنفسهم مقبولين باعتبارهم أعضاء فى المجتمع الأمريكى . وللمشكلة على كلا الجانبين هدف هو إبهام العناصر الأقل مقبولية عند الاشتباه الجماعى ، وهى تلك الملامح التى تفضل كل جماعة ألا تواجهها . ولم يستطع البيض أن يبقوا غير شاعرين بالحوافز الكرهية Xenophobic التى ربما تعارضت مع المبدأ الجماعى القائل بالمساواة العادلة ، وهو ما يمكن أن يسمى الذات العليا Super - ego عند الجماعة . وعجز الزنوج من جانبهم عن تحويل انتباههم عن هذه النقطة المتعبة نقطة الاختلاف العنصرى التى لو واجهوها لذكرتهم بالصعوبة الضخمة فى التغلب على الكراهية Xenophobia الموجهة إليهم ولذكرتهم فى نفس الوقت بما يجب أن يكون عليه اعتزازهم بالجنس .

وأخيرا لا شك فى علاقة هذا الرمز بالعمل الجماعى ، فلقد أصبح رمزا سائرا فى كلا الجانبين لأن الجماعة كانت بحاجة إلى العمل بطريقة خاصة ، واحتاجت فى عملها إلى التوفيق بين الحوافز غير المقبولة وبين المبادئ القيمة المعبر عنها . إن هذا الرمز الجماعى ما دام قد وجد كوسيلة للفكر والإحساس الجماعى فهو يحدد العمل الجماعى بعد ذلك. ونسوق على هذا شهادة وإن كانت غير ضرورية من كاتب زنجى هو « جيمس ويلدن جونسون » « إن ما يظنه الجزء الأكبر من بيض أمريكا بشأننا هو عامل هام فى جعل حالتنا الفعلية على ماهى عليه » [1] .

(٧)

ما الذى يحدث الآن حين يتزايد الاتصال تحت هذه الظروف ؟ الجواب مهما كان مفزعا هو كما أشرنا إلى ذلك : وهو أن الأثر المباشر لزيادة الاتصال اللغوى هو زيادة النزاع ، وربما كان الاتصال حين يترك ليزدهر وينتج إما ذاقيمة أو ضارًا ، فإذا أردنا له أن يقلل النزاع أو يضعفه فيجب أن نوجه عمدا فى هذا الاتجاه .

---

(١) Myrdal AD. 102.

وحيث يكون ثم نزاع بين الجماعات يستطيع المرء عموما أن يرى أن الأثر المباشر للثورة اللغوية هو أن يصبح النزاع أكثر حدة . فأولا رأينا بوضوح تام فى الفصل التاسع أن الاتصال اللغوى ربما استخدم فى الجماعة لتسلح نفسها ضد جماعة أخرى ، وذلك احتفاظ بوضع داخلىّ قلق ، بواسطة كبت المجتمع للأفكار والإحساسات التى قد تضعف جبهته المقاتلة ، ويوجد فى هذه الحالة ازدياد فى النزاع بين الجماعات على حساب التكامل الاشتهائى الحقيقى فى داخل كل جماعة منها .

ويأتى اطراد الزيادة فى الاتصال اللغوى بشعور أكثر بالنفس فى كل جماعة أى أن كل جماعة تصبح شاعرة بنواحى التناقض فى سلوكها ، وباستمرار عدم تلاقى حوافزها الحقيقية ودوافعها المعلنة ومبادئها القيمة . وفى الحقيقة إن عدم الرمز إلى الاشتهاء هو عون للوضع الاشتهائى القائم بنفس الطريقة التى فى سيكولوجية الفرد . وتقل شكوك الجماعة ما دامت الجماعة غير شاعرة بنفسها نسبيا ، ولكن حين ينمو الاتصال اللغوى الداخلى ، أى الشعور الجماعى بالنفس ، تصبح الجماعة شاعرة بنزاعها الداخلى .

ثم حيث تشترك الجماعات فى لغة عامة ، وتجد أداة الاتصال المتبادل فيما بينها ، كالأدب والصحافة ، والإذاعة والسينما ، يصبح النزاع بين الجماعات وفى داخل كل جماعة أكثر حدة ؛ لأن كل جماعة تصبح أسرع شعوراً بأفكار الأخرى وإحساساتها ، وأعمالها . ويزداد تنازع الجماعات حين تصبح كل جماعة شاعرة بالكراهية التى تبديها الجماعة الأخرى ، وبالضعف الداخلى فى هذه الجماعة ، ويصبح النزاع الداخلى أقوى لدى كل جماعة كلما أصبحت الجماعة شاعرة بأن ثمة بعض التبرير لسلوك الجماعة الأخرى فى نفس الوقت .

وإن حقائق مشكلة الزنوج لتمثل كل هذه الميول . ففى كلتا الجماعتين أولا تزايد الشعور فى الجماعة تجاه المشكلة ، وإن كتاب « ميردال » نفسه لشاهد على رغبة المجتمع الأمريكى فى أن يعرف قدر ما يستطيع من الحقائق والمواقف المختفية خلف النزاع .

ولكن هذا الكتاب ليس إلا واحداً من كثير . وثم كما يخبرنا « ميردال » مراجع كثيرة لهذا الموضوع تبلغ مئات الآلاف من العناوين [١] . وتوجد في المجتمع الزنجي هيئتان خاصتان قويتان على الأقل للاتصال : الجمعية الوطنية للنهضة بالأهلين الملونين ويبلغ أعضاؤها ٨٥٠٠٠ زنجي ولها جريدة ناطقة باسمها تسمى The crisis ، إلى جانب الصحافة الزنجية العامة المشتملة على حوالى ٣٤٠ دورية مخصصة كلها تقريبا لموضوع المشكلة الزنجية في شكل أوفى آخر . « إن الصحافة لتحدد حدود الجماعة الزنجية للزنوج أنفسهم [٢] . ويجرى هذا الشعور بالنفس خلال معظم المجتمع، لأنه مع استثناء الجنوب ، ينتشر التعليم الابتدائي بين الزنوج كما هو بين البيض وكل الزنوج الذين يستطيعون القراءة والكتابة تقريبا معرضون لنفوذ الصحافة الزنجية بعض الوقت على الأقل [٣] .

وأول أثر لهذه الزيادة في الاتصال فيما يختص بالمشكلة كان تقوية النزاع بين الجماعات وفي داخل كل جماعة، فقد استعملت الكتب والصحافة ولا تزال تستعمل في المجتمع الأبيض لتقوية الوقفة المعادية للزنوج. أما في المجتمع الزنجي فيخبرنا « ميردال » أن « الصحافة بتعبيرها عن الاحتجاج عظمت المشكلة إذ عملت عمل الناقوس الضخم — والصحافة أيضا وسيلة رئيسية لضبط الجماعة . فهي تعلم الفرد كيف يفكر ويحس بوصفه أمريكيا أسود » [٤] . وفي الجماعتين كلتيهما كما يكرر ميردال دائما إحساس متزايد بالتناقض في الفكر والإحساس والسلوك في المجتمع فيما يتصل بهذه المشكلة .

وقد قوى كل ذلك بنمو الاتصال المتبادل بين الجماعتين ، ومع أن الصحافة الزنجية تتمتع بشيوع ضئيل خارج مجتمعها ، لا يستطيع إلا قلة من البيض الأمريكيين أن يسلموا من بعض اتصال بالمشكلة عن طريق الصحافة والكتب والإذاعة والسينما

---

(١) Myrdal AD 27.

(٢) the same 911.

(٣) the same 911 — 943

(٤) Myrdell AD 911

البيضاء، ومن جهة أخرى تتمتع الصحافة البيضاء بانتشار واسع في داخل المجتمع الزنجي، حتى إنه بسبب كون الجماعتين تتكلمان لغة مشتركة تصبح كل منهما شاعرة تماما بمواقف الأخرى منها، وربما زاد ذلك في النزاع.

ولإظهار آثار هذه الزيادة في الاتصال المتبادل إظهارا أتم نستطيع أن نتذكر موقف اليهود في حيهم الخاص ghetto في القرون الوسطى. فلم تقتصر أسوار الحي على قطع الاتصال بمن خلفها، بل إن اليهود كذلك تكلموا لغة غير سائدة في العالم الخارجي، وأقاموا حواجز ضخمة من التحريمات taboos ضد كثير من تعاليم غير اليهود Gentiles. وهكذا بالرغم من أن اليهود كانوا خاضعين ومُسْتَغَلّين، ومقتّلين بانتظام، في كل مجتمع أوربي تقريبا، كان ثمة وضع ثابت قائم واستقرار ما في سيكولوجية الفرد، في داخل كل جماعة وفيما بين الجماعات، فلم تكن ثم مشكلة يهودية حتى تحرر اليهود؛ أي حتى تهدمت أسوار الحي، وأصبح اليهود جماعة فرعية في كل مجتمع غير يهودي، مع حرية في تبادل الاتصال اللغوي [١].

والمشكلة الزنجية بنفس الطريقة تصبح أكثر حدة بنمو الاتصال غير المقيد بين السود والبيض. وستضطر كلتا الجماعتين قريبا أو بعيدا إلى مواجهة حقائق المشكلة ومع أن ذلك ربما يقود في النهاية إلى تحلل النزاع فلا بد أن يسبق ذلك ازدياد في حدة النزاع. لاحظ مثلا استبدال كلمة Negro حديثا بكلمة nigger [٢] وترمز Negro كما ذكرنا إلى مسألة مركزية، واستعمالها المتزايد في يومنا هذا يدل على أن كلتا الجماعتين بدأت تواجه هذه المشكلة بإطراد. أما بالنسبة للبيض فإن استخدام هذا الاسم يدل على أنهم بدأوا يعترفون بأن الفرق الأساسي بينهم وبين الزنوج إنما

---

(١) ويمكن أن يقال بمعنى من المعاني إن نقص التفكير الذي تسبب في تحرر اليهود (والإلغاء النظري لمداوة السامية) قد زاد من نمو الحركة الجديدة ضد السامية.

Ency. Soc. Sciences, Anti-Semitism.

(٢) أعلنت جريدة نيويورك تايمز في ٧ مايو عام ١٩٣٠ أنها ستستعمل من ذلك الوقت فصاعدا حرفا كبيرا في مبدأ كلمة Negro Mencken AL. 299.

هو الجنس ، ومن ثم سوف يتساءلون عما إذا كان الاستمرار فى وصم الزنوج بالعجز يتفق مع العقيدة الأمريكية . وأما بالنسبة للزنوج . فإن استخدام هذا الاسم يدل على أنهم بدأوا يواجهون المسألة تماما ، ويعترفون بأن هناك نزاعا حقيقيا بين رغبتهم فى أن يتشربهم المجتمع الأمريكى ، وبين اعتزازهم بعاداتهم وطرق حياتهم الخاصة .

وقد فطن « ميردال » وهو يكتب خلال الحرب العالمية الثانية إلى أنه مع كون المشكلة هادئة فى الوقت الحاضر ربما أصبحت بعد الحرب إحدى المسائل القومية الهامة فى أمريكا . ويذكر « المستوى الثقافى المرتفع ، والشعور الجماعى المتزايد ، وسخط الزنوج أنفسهم »[1] باعتبارها عاملا مساهما . أضف إلى ذلك إصراره الدائم على أن معظم الأمريكيين البيض شاعرون بالمشكلة ، وواضح أنه يخبرنا أن نمو الشعور الجماعى بالمشكلة هو الذى يؤدى إلى تقويتها .

وفى ضوء تحليلنا لهذا النزاع يمكن الآن أن نذهب إلى الاعتراف بأنه يحتمل أن تحدث نفس العمليات بسعة أكبر . وحيثما وجد النزاع بين الجماعات كان من المحتمل فى البدء أن يزيد تطور الاتصال المتبادل من شدة النزاع لا أن يخففها . ويحتمل أن يكون ذلك صحيحا على الأخص بالنسبة للهيئات فى داخل المجتمع الواحد الذى يشترك فى نفس اللغة والأشكال الأخرى من الرموز ، ويستخدم نفس أدوات الاتصال . وبنمو الاتصال فى المجتمع يتضح له عدم التلاؤم بين سلوكه وحوافزه ودوافعه ومبادئه . وإذ يصير النزاع أدق تحدّدا ، يصبح فى الحقيقة نزاعا أشد . وثمة عملية شبيهة فى سيكولوجية الفرد . وبما أن الفرد يصبح عن طريق التحليل الذاتى أكثر شعوراً بنفسه ، وبما أنه يستحضر إلى الشعور ما يمكن فى ظروف أخرى أن يكون فيما دون الشعور أو فى اللاشعور ، فربما كان الأثر المباشر أن يزداد النزاع

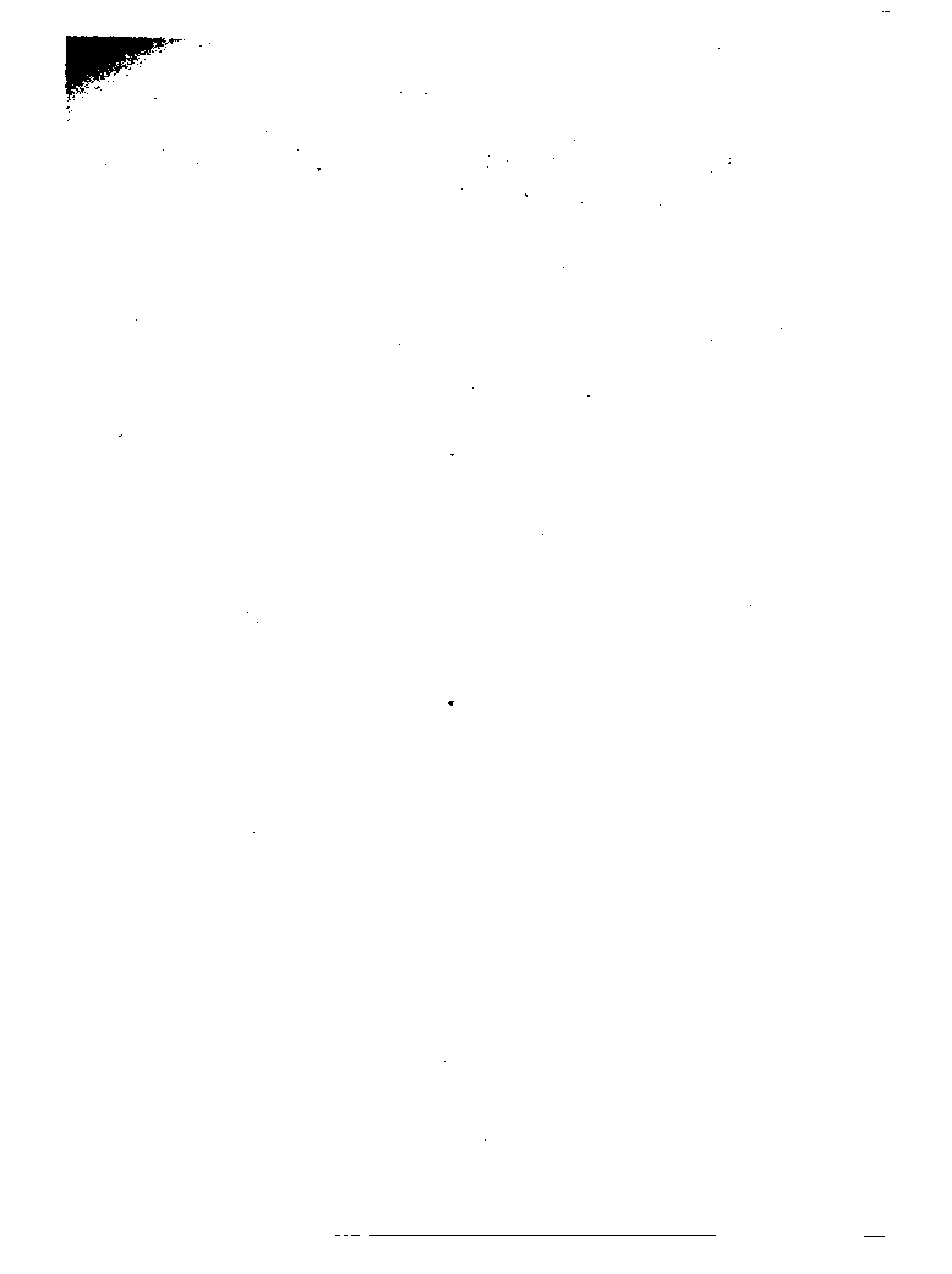
---

(١) Myrdal AD 37.

داخل نفسه . وجعل الاشتهاء الذى يمكن أن يسبب القلق مكبوتا تحت مستوى الشعور هو عملية دفاعية ممكنة ضد النزاع . وربما سلب الشعور التام بالنفس تلك النفس من بعض دفاعها ضد النزاع فى داخلها .

وبنفس الطريقة بينما ينمو الاتصال بين المجتمعات ، ربما يكون أثره المباشر زيادة النزاع بينها . وحين تشترك المجتمعات فى لغة عامة وفى الأشكال الأخرى من الرموز تصبح شاعرة بالفروق ، ونواحى التشابه فى سلوكها ، وحوافزها ، ودوافعها ، ومبادئها ؛ وتصبح الاختلافات والانسجامات أكثر تحددا . وكلما أصبح النزاع أكثر تحددا أصبح نزاعا أشد .

كيف إذاً يمكن أن يخفف الاتصال الرمزى من النزاع فى المجتمعات وفيما بينها . ذلك هو موضوعنا الأخير .



الفصل الحادى عشر

إمكانيات

(١)

سنحاول أن نجيب على هذا السؤال بالنظر أولا إلى الظروف التى يؤدى فيها نمو الاتصال إلى حل للنزاع فى مشكلة كمشكلة الزنوج ، ثم نمضى فى ضوء هذا إلى التفكير فى المسألة الأوسع ، وهى مسألة إمكانيات الاتصال باعتباره وسيلة لحل التنازع الجماعى فى عمومه . فما العلاقة بين الاتصال اللغوى و بين الرغبة فى حل هذه المشكلة،وما الذى الذى يصبح الاتصال فيه وسيلة ترابط فى الجماعة ، و بين الجماعات ؟ تلك هى أسئلتنا .

أما فيما يخص مشكلة الزنوج فيوجد شرط واحد لا يمكن التغاضى عنه فى حل أى نزاع ، ألا وهو الرغبة فى الإحاطة بالمشكلة وفى مواجهة احتمالاتها ، ومن ثم فى زيادة وتوسيع الشعور بما يوجد فى جذور المسألة من الحقائق والإحساسات ـ وهى أقل أهمية ـ ثم الاتجاهات ، أو بالاصطلاحات السيكولوجية التى استعملناها من قبل ، توجد رغبة جماعية لتنمية شعور جماعى بالنواحى الإدراكية والاشتهائية فى المشكلة .

و يصر « ميردال » مع بعض التوكيد على أنه فى كافة أنحاء المجتمع الأمريكى

توجـد رغبة متزايدة « لمعرفة الحق وللتفـكير المستقيم » [1] . والآن نرى أن مما له أهمية قصوى أن نلاحظ أنه بالرغم من كون تلك الرغبـة نتيجة لزيادة الاتصال بلا شك ، فهى بالأحرى سبب له . إن زيادة الاتصال لا تنتج حتما رغبة فى الفهم ، وحتى حيث يوجد الفهم لا يؤدى إلى حل النزاع مالم توجد رغبة فى ذلك . و يُظن عادة أن نمو الفهم بين الجماعات لابد أن يؤدى إلى زوال النزاع ، والفهم الكامل يؤدى إلى التسامح الكامل tout comprendre c' est - tout pardonner ولـكن الحق أن ذلك الفهم قد يوجد حيث توجد الرغبة فى الفهم فحسب . وليس سوء الفهم سببا فى النزاع بقدر ما يكون النزاع سببا فى سوء الفهم . و إن الرغبة فى حل النزاع هى الشرط الأساسى ، فإذا توفر هـذا الشرط ، أصبح الاتصال اللغوى وسيلة يمكن أن يحل بها النزاع . وحالما يوجد اشتهاء قوى لحل النزاع ، تهيىء الجماعات المعنية نفسها لاستعمال الاتصال اللغوى ، باعتباره منهجا يتحول به الاشتهاء إلى عمل .

ذلك بأن نمو وسيلة الاتصال كما رأينا من قبل قد يقوّى النزاع فعلا و يزيد من خطورته بدل أن يعين على حله . والاتصال من جانبه الإدراكى ربما استعمل لـكبت الحقيقة ، أو لنشر فـكرة مزيفة تماما . أما من الجانب الاشتهائى ، فإن الاتصال ربما استخدم لإثارة نفس المواقف التى تخلق النزاع أو تقويه . وقد يستعمل الاتصال لـكبت الحقيقة على نحو ما رأينا فى الفصلين الأخيرين ، أى لصرف انتباه الجماعة إلى بعض النواحى من المشكلة واستبعاد النواحى الأخرى ، وذلك بجعل الحقائق المتصلة بالزنوج ، والتى تؤكد الاختلاف بينهم و بين البيض مثـلا ، فى المقدمة ، ولاسيما تقاليدهم وعاداتهم وطرق معيشتهم . أو ربما استخدم الاتصال فى نشر مبدأ خاطئ ، كـكون الذكاء الفطرى عند الزنوج مثلا أقل مما عند البيض . بل ربما استعمل الاتصال كذلك لتقوية النزاع ، كما يحدث مثلا من إشاعة القصص التى تحكى عن رغبة الزنجى الدائمة أن يواقع النساء البيض .

---

(١) Myrdal AD 109

وللتعبير عن هـذا بصراحة نقول : كانت رغبة أمريكا البيضاء فى الماضى تتجه إلى استبعاد الزنوج من المشاركة الفعالة فى المجتمع الأمريكى ، ومع أن هـذه الرغبة لم يعبر عنها أبدا ، أو إلا نادراً ، أى لم توضع فى الشعور الجماعى ، استخدم الاتصال مع هذا فى خدمتها . وكانت الرغبة اللاشعورية ، أو الشعورية ، فى استبعاد الزنوج أقوى من الرغبة فى حل النزاع الناتج . لقد بدا الأمر كما لو أن الأمريكيين البيض قد قالوا لأنفسهم : مهما كان الثمن فى النزاع يجب ألا يسمح للزنوج بأن يساهموا مساهمة تامة فى المجتمع الأمريكى . ولـكن الرغبة فى حل النزاع الآن تـكتسب أرضا جديدة ، ومعها إمكان استعمال الاتصال لهـذا الهـدف . وإن الرغبة فى معرفة الحقيقة تؤدى إلى نشر الحقيقة .

هـذا كاف فى الـكلام عن الشعور المتزايد بالنواحى الإدراكية للمشكلة ، وواضح أيضا أن ثمة انتباها متزايدا لنواحيها الاشتهائية ، وربما كان أكبر دليل على هذا هو الأصل فى كتاب « ميردال » نفسه . فحين قررت مؤسسة « كارنجى » أن تنشىء بحثا شاملا مفصلا لمشكلة الزنوج ، أيد رجالها اعترافهم بالطبيعة الاشتهائية وذلك بالإصرار على أن القائم بها يجب أن يكون « شخصا يستطيع أن يتناول الموضوع بعقل محايد ، غير متأثر بالمواقف التقليدية »[١] . وقد بدا هذا الشرط الضرورى لهم كأنما يستبعد كل الباحثين الأمريكيين ، سواء أكانوا بيضا أم سوداً . وإن الفكرة الرئيسية عند « ميردال » والتى يرددها دائما هى أن النزاع لا ينشأ من « حقائق » المشكلة ، ولـكن من العقائد التى خلقها ، وعلى الأخص معتقدات البيض[٢] . ومن ثم يؤكد ميردال الحاجة إلى دراسة أتم لهذه المعتقدات ، أو إذا عبرنا عن ذلك باصطلاحاتنا نقول إنه يؤكد الحاجة إلى شعور جماعى أتم باشتهاءات الجماعة .

والمثل الواضح على الطريقة التى تعمل بها معتقدات الجماعة على تحديد الانتباه

---

(١) Myrdal AD vi ; Foreward by President of Carnegie Corporation

(٢) Myrdal AD 110

الجماعى إلى الحقائق يبدو فى هذه العبارة لميردال : « وقد أصبح الآن من الصعب حتى بالنسبة للكتاب المفضلين أن يحتفظوا باحترام عقلى إذا عبروا عن آراء غير آراء المساواة العنصرية » [١] ومعنى هذا أن نفس الآراء التى كانت فى مقدمة الشعور الجماعى فيما مضى ، تقع الآن تحت الكبت ، لأنها أصبحت لا تتلاءم مع الاشتهاء الجماعى ، على حين يؤتى بالآراء التى كانت مكتوبة فى الماضى إلى الضوء الكامل للشعور الجماعى. وفى هذا أيضا خطر واضح . فلن يوجد أبدا حل تام للنزاع مادام ثمة كبت للحقيقة .

وهناك أمل واضح على أى حال من أجل مستقبل مشكلة الزنوج الأمريكيين . ففى وسط الظلمة والكفاح فى يومنا هذا نرى أملا فى حل نهائى للنزاع ، ولكنه ببساطة ليس نتيجة حتمية للنمو الأعمى للاتصال . فثمة أمل لأن هناك رغبة لحل المشكلة ، وسوف يجند هذا كل موارد الاتصال اللغوى فى خدمته ، بل سوف يقوّى نمو الاتصال بدوره الرغبة فى حل النزاع ، وذلك بتطور الشعور الجماعى فى الأسس الاشتهائية ، والإدراكية ، للمشكلة .

وفى ضوء هذا التحليل لمشكلة الزنوج ، دعنا ننظر أخيرا إلى إمكانيات الاتصال اللغوى باعتباره وسيلة لحل التنازع ، فى الجماعة ، وبين الجماعات ، فى يومنا هذا .

(٢)

إن الاعتراف فى العهد الحديث بأن الاتصال التام فى المجتمع شرط فى الوصول إلى تكامل اجتماعى وتام يرجع على الأقل إلى الثورة الفرنسية . ولقد أصر « بنثام » و « ميل » كما رأينا على أن الاتصال هو الشرط الأساسى للنظام الاجتماعى وقد رأوا أن النزاع ينحل باستعمال الاتصال فى المجتمع ، وينشأ مع هذا الاستعمال وضع ثابت

---

(١) Myrdal AD 96.

ويستقر؛ ولكنهم سلموا بأن كل مجتمع تحركه الرغبة فى أن يستند الوضع الثابت فيه على الحل الحقيقى لمنازعاته الداخلية .

إن هذا الفرض هو الذى جُعل بالتدريج موضوع تفكير متزايد فى تاريخ القرن الماضى . وواضح وضوحا تاما أن المجتمعات تعاود استعمال موارد الاتصال فيها فى محاولة إنشاء وضع ثابت داخلى ، لا عن طريق حل النزاع ، بل عن طريق جعل المعرفة والاتجاهات التى قد تسبب النزاع مكبوتة فيما وراء الشعور الجماعى . وتلجأ المجتمعات بنفس الطريقة إلى كبت الإدراك الجماعى ، والاشتهاء الجماعى ، لصالح الوضع الثابت فى العلاقات المتبادلة بين مجتمع وآخر ، كتوازن القوى مثلا .

وحين نقول إن المجتمعات تقوم بهذه المحاولة نقصد أنها تفعل ذلك أحيانا عن طريق عاداتها وطرق معيشتها التقليدية ، وأحيانا أخرى نتيجة القصد العمدى لحكامها وفى كلتا الحالتين تجد هذه المحاولات فى أيامنا عونا يأتى من الوسائل الجديدة المتطورة للاتصال وهى قد دلت على أنها من أرقى المناهج المجندة لكبت الإدراك والاشتهاء الاجتماعيين .

ولكننا نقول هنا إن الوضع الثابت الذى يأتى من كبت الحقائق والمعتقدات هو فى أحسن حالاته وضع قلق غير آمن ، حتى إنه لو تسبب نمو الاتصال فى حل النزاع فى المجتمع ، وبين المجتمعات ، فلابد أن توجد رغبة لحل المنازعات ، لأن الاتصال سوف لا يحلها ولدينا اليوم هذه المناهج . فإن أدوات اللغة ، والمناهج الجماعية للاتصال ، قد وصلت إلى درجة عالية من الكفاءة . فما الفائدة التى سنجتنيها من ورائها ؟

ليس فى متناولنا اليوم إمكان الاتصال التام فى المجتمع فحسب ، بل الاتصال التام خلال كل المجتمعات فى العالم . ونجد الآن فى حيز الإمكان وجود لغة واحدة للاتصال العالمى ، وستزول بوجودها الحواجز الأخيرة . إن الكلمة المنطوقة ، والكلمة

للـكتوبة ، والصورة ، وهى الأشكال الثلاثة القوية للاتصال الرمزى ، ستصبح صالحة للنقل دون تحديد ولا تشويه فى كافة أنحاء الأرض . وتستطيع هذه الثلاثة مُفرَّقة أو مجتمعة أن تـكون وسائل للرمز الجماعى المباشر فى مجتمع واسع سعة الإنسانية جميعا، فنى السينما ، وعلى شاشة التليفزيون ، نجد الـكلمة المنطوقة ، والصورة ، ونجد فى الصحافة الـكلمة المـكتوبة والصورة .

وكما هى الحال فى مناهج أخرى كثيرة أسرعت الحرب بتطورها إلى غـير حد ، يمكن أن يكون الاتصال العالمى إما سلاحا فى النزاع ، وإما داعيا إلى السلام ، بحسب استعمالنا إياه . وإن الوسائل الموجودة فى بريطانيا فى عام ١٩٣٩ لجمع المعلومات ، ولإذاعة الأخبار ، والدعاية فى الخارج ، قد كانت حينئذ فى طفولتها . ولـكنها أصبحت بعد سنوات ست مناهج لا يستغنى عنها فى السياسة الداخلية والخارجية . فما استعمالنا لهذه المناهج ؟ لقد كان من هم هذا الـكتاب أن يوحى بأن الاتصال الرمزى هو المنهج الأساسى لـكل المناهج الأخرى . ومشـكلتنا اليوم هى كيفية استعماله فى حل المنازعات فى المجتمعات وبين بعضها وبعض .

ومن أجل هـذا يصبح من الضرورى وجود ثلاثة أشياء ، أى أشكال ثلاثة للعمل الجماعى : فيجب أن تـكون لنا رغبة فى استخدام الاتصال اللغوى من أجل هذا الهدف ، ويجب أن نهيىء أنفسنا لأن نفهم أى نوع من الوسائل هو ، وكيف يعمل ، ويجب أن نتعلم كيف نستخدمه .

(٣)

يجب أن تـكون عنـدنا رغبة فى حل المنازعات ، ورغبة فى استعمال الاتصال لهذا الغرض .

ولا شك أن ثمة رغبة متزايدة للوصل إلى ترابط اشتباكى فى المجتمعات ، وبين

بعضها و بعض . ولكننا بحاجة إلى شيء أكثر من هذا . فلا يكفى أن يرغب القليلون من كل مجتمع فى ذلك حتى ولو كانوا القادة . فإذا قدر للرغبة أن تكون حية قوية ، فيجب أن تعم الجماعة ، فتكون اشتهاء جماعيا . وللوصول إلى تكامل فى مجتمع ما يجب أن توجد رغبة جماعية فى التكامل ، واشتهاء جماعى متبادل للوصول إلى التكامل بين الجماعات .

وكما رأينا الآن ، ربما كان ثمة اشتهاء جماعى غير مكشوف بالنسبة للشعور الجماعى الشامل ، ولكن هذا الاشتهاء إذا أريد له أن يكون دليلا حاسما ، وخادما للعمل الجماعى ، فيجب أن يعرف عند الجماعة كجماعة . يجب أن تصير الإشتهاءات الجماعية اشتهاءات جماعية شعورية أو بعبارة أخرى ، يجب أن تعطى رمزية جماعية . أو باصطلاحات عملية مأخوذة من كلامنا السابق عن السلوك الجماعى ؛ من الضرورى أن يستعمل الاتصال الرمزى فى اثارة الرغبة ، والإرادة ، سواء فى داخل جماعة بعينها أو بين بعض الجماعات وبعضها الآخر ، لحل المنازعات ، ومع قصد استعمال الاتصال لهذا الهدف ، باعتباره منهجا رئيسيا للعمل الجماعى ، والعمل المتبادل بين الجماعات .

وعندنا هنا إذاً كما هى الحال دائما فى الشئون الإنسانية عملية دائرية أو حتى كروية . فلحل النزاع الاشتهائى فى الجماعة يجب أن ننمى الرغبة الجماعية ، ونجعل لها تكاملا لنصل إلى ذلك ، ولتكامل هذه الرغبة يبدو الاتصال اللغوى أداة لاغنى عنها . ويجب أن يكون أحد أهداف هذه الرغبة الجماعية أن نستعمل الاتصال اللغوى وسيلة لحل النزاع فى الجماعة .

ومن الطرق الأخرى للتعبير عن ذلك أن يقال : يجب أن يُحَاوَلَ حَلُّ المشكلة من جميع الجوانب فى نفس الوقت . فيجب أن نَستَعمِلَ الاتصال اللغوى وسيلة لتوجيه الرغبة إلى الوصول إلى تكامل فى المجتمع ، وكذلك لتوجيه الرغبة إلى استعمال الاتصال وسيلة لهذا التكامل .

والذى قلناه عن النزاع الجماعى الداخلى ينطبق بوضوح مع بعض التعديلات الضرورية على النزاع بين الجماعات : إذ يجب أن نستعمل الاتصال اللغوى وسيلة لتحريك الرغبة فى الجماعات لحل المنازعات بينها،وكذلك لتحريك الرغبة فى استعمال الاتصال وسيلة لحل المنازعات .

ولا يمكن أن يكون شىء أكثر معقولية ولا أعم مقبولية من وضع المسألة بهذه الطريقة ؛ ولكن يجب أن نعترف أننا فى هذه اللحظة بعيدون عن أن نراها ذات أثر شامل . — وليس ثمة بالتأكيد اتصال حُرّ سواء فى الجماعات أو بين بعضها وبعض ، ففى الجماعات هيئات تستخدم مناهج الاتصال لتعطل الاتصال لغرض ما ، وتسعى فى نفس الوقت إلى كبت ما لا يتلاقى مع أهدافها فيما وراء الشعور الجماعى . وإذا كنا قد رأينا ذلك بدرجة كبيرة فى الدول الاستبدادية قبل الحرب فإننا يمكن أن نجده فى كل مجتمع فى يومنا هذا .

أما فى الاتصال الحرّ بَيْنَ المجتمعات ، فإن العقبات هنا أوضح، لأن هذه العقبات نتيجة نية متعمدة معلومة . وواضح جداً أن المجتمع الاستبدادى مرة أخرى هو الذى يحدد ويشوه الاتصال بينه وبين المجتمعات الأخرى ، ولكننا لانبرئ أى مجتمع فى يومنا هذا تبرئة تامة من هذه النية .

يجب أن يوجَّهَ الاتصال الاجتماعى . والآن وقد بدأت المجتمعات فى تخطيط الاتصال وتوجيهه ، تخلت إلى الأبد عن الحل الآخر الذى هو تركه ينمو ويزدهر بنفسه . ولكن مجرد توجيه الاتصال ليس كافيا لحل منازعات المجتمعات ، بل يجب أن يُوجه توجيها صحيحا .

(٤)

ولتوجيه استعمال الاتصال اللغوى يجب أن تفهم طبيعة هذه الأداة . إنها منهج

جماعى نما فى معظمه دون أن نفطن إلى نموه . ومبدؤه مبدأ المجتمع الإنسانى وقد نما بنمو المجتمعات . وتعقده اليوم جزء من تعقد الحياة الاجتماعية . أما مافعلته آلة الطباعة وآلات الكلام ، فهو أن زادت زيادة ضخمة فى مجاله وقوته ، ثم أن فتحت إمكانيات لاستعماله لم يسبق لها مثيل ، ولا توجد لها حدود . ولكون الاتصال اللغوى منهجا جماعيا قديما ، وجزءاً ثابتا من حياتنا ، نأخذه حجة مسلمة ، وربما نخفق أن نرى كيف يتغير بالنسبة لنا ويُغَيِّرنا . فما هذه الأداة وكيف تعمل ؟

ومع أن الاتصال اللغوى منهج جماعى قديم جدا نحن لانعلم عنه إلا القليل ، ونحن اليوم مبتدئون فحسب فى دراسة أداء اللغة لوظيفتها فى المجتمع ؛ وجهلنا بهذا الشكل ذى الأهمية الكبرى من أشكال السلوك الجماعى جزء فى الحقيقة من جهلنا بطبيعة السلوك الجماعى فى عمومه .

ولقد تمت دراسة اللغة فى الماضى منفصلة تماما عن محيطاتها الاجتماعية . وهذا صحيح على الأخص فيما يتصل بالنواحى الإيجابية للدراسات اللغوية ، كالتاريخ ، سواء فى ذلك التاريخ الخيالى لأصل اللغة أو التاريخ الحقيقى للتغير الصوتى والنحوى والدلالى . وكالفيلولوجيا ، وكانت تهتم بشرح النصوص والنقد الأدبى . وهذا أقل صدقا بالطبع على الدراسات المعيارية كالنحو ، وقواعد اللغات الصناعية ، ولكن حتى هنا ظل الانتباه إلى المحيطات الاجتماعية ثمة ضئيلا جدا . وكل هذا مفهوم إذا اعترفنا بأن دراسة أداء الوظيفة الاجتماعية للغة لم تصبح مهمة إلا اليوم ، مع النمو الفجائى فى مجالها وقوتها .

وقد حدث اتجاه إلى دراسة الدلالة خلال القرن الماضى ، كما يمكن أن يرى فى الملحق ، وعلى الأخص فى السنوات الخمسين الأخيرة . تلك هى الدراسة التى يجب أن تنمو الآن . ونحن بحاجة إلى معرفة ما نستطيع معرفته عن عمل اللغة بالنسبة لسلوك الفرد والجماعة .

وقد بدأت دراسة اللغة والفكر عند الفرد ، سواء فى ذلك مناقشة القواعد النظرية ، والبحث الاستقرائى للحقائق . وكما نشأت دراسات مفصلة لنمو اللغة وعملها فى الطفولة والمراهقة ، وحياة الرجولة ، وكذلك دراسة التأخر فى أداء الوظيفة اللغوية والمعطلات المرضية لها . وصحيح على وجه العموم أن يقال إن الدراسة الاستقرائية لم تتقدم تقدم الدراسة التأملية .

وهذا التباين أكبر بالتأكيد فى حقل الدراسات اللغوية الاجتماعية . فقد تم الكثير من الدراسات التأملية ، والقليل من دراسة الحقائق . فإذا أردنا أحسن الدراسات العملية فعلينا أن نذهب إلى أصحاب الدراسات الإنسانية ethnographers مثل « مالينوفسكى » الذين يهتمون بالمجتمعات التى يبتعد تكوينها وسلوكها الاجتماعيان عن التكوين والسلوك فى مجتمعاتنا المعقدة . وليس ثمة شىء حتى الآن فى حقل الدراسات الأصيلة لعلم الدلالة الاجتماعى يمكن أن يقارن مثلا بالمناقشات التأملية الواسعة التى قام بها « كاسيريه » Cassirer و « أور بان » Urban . ولكن الدراسات الاستقرائية لعمل اللغة فى مجتمعاتنا هى التى نحن فى أشد الحاجة إليها . وربما كنا اليوم ولأول مرة فى وضع يمكننا من القيام بهذه الدراسة ؛ ولا نستطيع بالتأكيد أن نستغنى عنها إذا أردنا استعمال الاتصال اللغوى من أجل حل المنازعات الجماعية . ونحن بحاجة إلى رجال، وجماعات من الرجال، يكرسون أنفسهم لهذا الموضوع الجديد، أى للدلالة اللغوية الاجتماعية .

(٥)

ولكن الرغبة فى استخدام الاتصال لهدف الوصول إلى فهم أحسن ، ومعرفة أفضل لكيفية عمل اللغة فى المجتمع لا تعتبر شيئا إلا إذا عرفنا كيف نستخدمه . وإن الانتفاع بالاتصال اللغوى انتفاعا بصيرا عظيم الكفاءة فى يومنا هذا من جانب

الأفراد والهيئات لتقابله المحاولات الخاطئة من جانب المجتمعات أن يستخدم الاتصال اللغوى للصالح العام . ولكن الشعور بالعجز ، والنكسات فى المحاولات الأولى البدائية ، لا تصلح هنا – كما أنهما لم تصلح فى النواحى الأخرى للتخطيط الاجتماعى – مقياسا لقيمة النجاح النهائى للمهمة . إن قصة عصرنا هى محاولة مجتمع بعد الآخر أن يتحكم بسرعة وشمول فى مناهجه الاجتماعية السياسية والعسكرية والاقتصادية . وكل مجتمع لابد أن يتجه بمحاولته هذه إلى التحكم فى الاتصال اللغوى .

ومع هذا مهما كان التكوين المراد لأى منهج جماعى آخر لا يوجد شىء يسمى اتصالا تاما تتحكم فيه قلة . فالتحكم والتحديد والتوجيه للاتصال يجعله غير مؤثر ، وليس الاتصال الرمزى أداة يمكن صنعها و إدارتها ، بل هو نموذج سلوكى يجب أن يسمح له بالنمو . و إن المجتمع الذى يسعى إلى الحصول على الفوائد التامة للاتصال التام يجب أن يشرف على نموه و يعين عليه و يوجهه .

فكيف يتم ذلك ؟ نحن أقل تأكدا من الجواب مما كنا فى أية ناحية أخرى من نواحى التخطيط الاجتماعى . كيف تستخدم المجتمعات الاتصال الرمزى ، لا من أجل الهدم بل من أجل البناء ، لا كسلاح للحرب بل كوسيلة رئيسية للوصول إلى وحدة فى الفكر والإحساس والعمل ؟ كيف ؟

مُلحق

تغيرات فى فلسفة اللغة

إن من البديهيات فى تاريخ الاختراعات أن المنهج الجديد يندر أن ينشأ فجأة من لا شيء. ويُسبق الاختراع الفني عادة بتطورات فى النظرية العلمية. أما فى حالة اللغة فإن الحقيقة الساطعة هى أنه فى القرن الذى سبق نمو الاتصال باعتباره منهجا اجتماعيا جديدا كان هنالك تغير شبيه لهذا فى اتجاه فلسفة اللغة، ولكنه كان تغيرا مستقلا تماما. ولمَّا أصبح للغة خطر على أعظم فى المجتمع، بدأ العلماء فى نفس الوقت يعترفون بأن وظائف اللغة لا يمكن أن تفهم إلا إذا نظرنا إلى اللغة باعتبارها حقيقة فى المجتمع. وهذا الاتجاه الجديد فى النظر إلى اللغة له متابعه التى ترجع إلى وقت بعيد قبل بدء الثورة اللغوية فى منتصف القرن الثامن عشر لقد كانت هذه واحدة من الموجات الفكرية التى حركتها الدفعة القوية للنهضة الأوربية (الرينيسانس) التى كانت بدورها من الموجات الأوغل فى القدم. وأول آثار الرينيسانس فى لفت الناس إلى دراسة الماضى وعلى الأخص أدب الماضى هو بالضرورة إيجاد بعض الاهتمام باللغة، ولكن هذا كان مقصورا على صلتها بالأدب. وفى القرن السابع عشر جاءت دراسة العالم الطبيعى، وجاء معها بدء الدراسة العلمية للإنسان نفسه. ولم يكن بدء دراسة اللغة مع النظرة إلى علاقتها بالإنسان إلا فى ذلك الوقت، وبهذه الطريقة غير المباشرة. وإن التعليم الفيلولوجى الذى ظل هدفه الأساسى مدة طويلة التحديد الدقيق لنصوص

الآداب القديمة تحول الآن فى اتجاه مخالف . وأفسح الاهتمام بالآداب القديمة المجال للاهتمام بطبيعة اللغة نفسها .

وتبدأ النظرية اللغوية الحديثة فيما يظهر بكشف عرضى هو الملاحظة التى كتبها السيروليام جونز عام ١٧٨٦ وقال فيها إن السنسكريتية مفتاح تاريخ اللغة [١] ولم يكن هذا الكشف من الناحية العملية أكثر من مصادفة إلا بمقدار ما كان اختراع الجراموفون كذلك . فقد كان إيديسون غارق الاهتمام فى إمكان رَجْع الكلام ، حين قادته « المصادفة » إلى الجراموفون . وبنفس الطريقة اندفع السير وليام جونز بحماسته للسنسكريتية إلى الإقامة فى الهند ، ولكن كشفه لو تم فى جيل لا اهتمام له بمسائل أصل اللغة وتاريخها ما كان ليعنى شيئا .

ويكفينا ذكر اسم واحد هنا هو « اللورد مونبودو » الذى أشار قبل ذلك بثلاثة عشر عاما إلى أوجه الاتفاق بين الإغريقية والسنسكريتية وفرض اشتراكهما فى أصل واحد [٢] . ولقد سخر منه الدكتور « جونسون » لرأيه القائل : إن الإنسان ليس إلا قرداً بلا ذنب وإن القرد إنسان فى كل شىء إلا فى الكلام .

وربما يبدو اهتمام « جونز » بالسنسكريتية لأول وهلة بمنأى عن الاهتمام بلغة الإنسان المتكلم فى المجتمع أكثر مما كانت دراسة الآداب القديمة تنأى عن ذلك . ولكن الحقيقة العملية هى أنه دفع الطلاب كما لم يندفعوا من قبل إلى حصر انتباههم فى الكلمة المنطوقة . وقد دلت دراسة السنسكريتية إلى درجة لا تقبل النقض ، على أن تاريخ اللغات وبنيتها لا يتضحان إلّا عن طريق معرفة الأصوات التى يأتى بها

---

(١) فى المحاضرة الملقاة فى الجمعية الآسيوية البنغالية « لا يستطيع فيلسوف أن يدرس هذه الثلاثة جميعا (السنسكريتية واللاتينية والإغريقية) دون أن يعتقدها نابعة من مصدر عام واحد »
Jones W (i) 26.

(٢) Monboddo Op (ii) 581

المتكلمون . وهذا الكشف عن الكلمة المنطوقة أصبح أساس الدراسة اللغوية الحديثة .

وبعد سنوات قليلة من إعلان « جونز » بدأ « علم اللغة » الحديث يشق طريقه باعتباره حقلا خاصا مستقلا عن حقل الأدب . وكان على طلابه فى خلال القرن التالى أن يخلقوا لأنفسهم حدود مادته وطرقها ، وظهرت وجهات نظر ثلاث : فكان ثمة بعضهم الذى بدت دراسة اللغة فى نظره علما طبيعيا ، بقوانين ميكانيكية على نحو ما كان مفروضا فى قوانين الطبيعة . ووُجد هؤلاء الذين اعتقدوا أن الطريق الرئيسى إلى فهم طبيعة اللغة هو علم النفس،فلفهم أداء اللغة لوظيفتها يجب أن تدرس العمليات العقلية لمتكلميها . ثم كان هناك من رأوا أن دراسة اللغة يجب أن تكون اجتماعية ، وأن اللغة شكل من أشكال السلوك نما فى خلال مجهودات الإنسان لتحقيق حاجاته فى المجتمع .

إن المذهب القائل إن اللغة علم طبيعى له قوانين تشبه قوانين الطبيعة ربما اعتبر الآن من غرائب القرن التاسع عشر ، ولكن هذا الرأى فى أيامهم كان مقبولا قبولا عاما . والتلميح الذى لمحه « جونز » فقال إن السنسكريتية يمكن أن تفسر قوانين التغير فى اللاتينية والإغريقية استغله قوم مثل « بوب » و « جريم » اللذين تعتبر صياغتهما القديرة « للقوانين الصوتية » عاملا أساسيا فى رسم تلك الخطوط التى تجرى عليها الآن دراسة اللغة بصفة نهائية يقول بوب : « إن اللغات يجب أن ينظر إليها باعتبارها أجساما عضوية طبيعية ، مكونة طبقا لقوانين ثابتة ، وتتطور كأن لها قاعدة فطرية للحياة ، وتموت بالتدريج » [1] حقيقة أن العلماء الذين تبنوا هذا الرأى قبلوه باعتباره فرضا ميتافيزيقيا ، لاقاعدة لطريقة، ولكنه استقبل بالترحيب والاستحسان.

---

(١) in 1827 from Jesperson LN 65

فى العالم الخارجى ، وأصبح فى النهاية من بديهيات التفكير اليومى حين جعله « ماكس مولر » موضوعا لأحد كتبه الدائمة اللامعة .

وإن المؤسسة الملكية التى أصبحت بعد ذلك داراً للعلوم الطبيعية قد فتحت أبوابها لماكس مولر . ولقد سحر مستمعيه من الصفوة حتى اعتنقوا مذهبه القائل إن طريقة علم اللغة « يجب أن تكون كالطريقة المتبعة مع كثير من النجاح فى النبات والجيولوجيا ، والفلك ، والفروع الأخرى للدراسات الطبيعية »[1] ومع قدرتنا الآن كجيل لاحق على النظرة الشاملة إلى ما قامت به الأجيال السابقة ، قد ننظر إلى هـذا باعتباره مجرد نتيجة حتمية للجو الثقافى فى ذلك الوقت ، وباعتباره مظهرا لما عاصر ذلك من تكريم مبالغ فيه للعلوم الطبيعية . وإن « باكل » Buckle مثلا قد ادعى ادعاء مشابها لذلك بالنسبة للتاريخ فى كتابه History of Civilization الذى ظهر فى عام ١٨٥٧ .

وحتى ظهور الداروينية الذى تَسَبَّبَ فى النهاية فى ظهور اتجاه فكرى جديد ؛ وطريقة جديدة فى دراسة العلوم البيولوجية أيد فى مبدأ الأمر هؤلاء الذين اعتنقوا هـذا الرأى ، ولم يضعف الثقة بهم ، ولقد تمشى « شليخر » جاداً فى إثر ظهور كتاب داروين The Origin of Species ، مع دعوى أن اللغات تكوينات عضوية حية مستقلة فى أصلها عن الإرادة الإنسانية ، وقد عاشت بنفسها ، وهى عرضة للنمو والانحلال والموت[2] .

ولكن بالرغم من النتائج الملموسة التى وصل إليها علماء اللغة من الألمان ، وبرغم سطوع نجم « ماكس مولر » ، استطاع الوقت أن يكشف عن عيب هذا المذهب . فلقد قدر لفكرة أكبر نفعا فى اللغة أن تسود ؛ وهى أن اللغة فى جوهرها شكل من

---

(١) Müller SL 26.

(٢) in1863 from : Seward DS 527.

أشكال السلوك الاجتماعى ، حتى إن دراسة اللغة يجب أن تستعين بعلم النفس ، وعلم الحياة ، وعلم الاجتماع ، للحصول على مادتها وطرقها .

وكان هـذا الفهم الأخير نتيجة تجمع عدد من مظاهر النفوذ ، ربما كان أولها الاهتمام بعلم النفس الذى كان يعتبر علامة من علامات الفـكر الإنجليزى منذ أيام « لوك » ، والذى قدر له أن تزداد قوته زيادة عظيمة خلال ذلك القرن . فقد أعاد « لوك » من أجل العالم الحديث بنـاء الرأى الأفلاطونى القائل بتساند الـكلمات والعمليات العقلية [1] وقد أصبح ذلك فوق كل شىء قاعدة هادية فى دراسة اللغة .

ولم يكن ذلك على أى حال دون تعرض للضلال . فالاعتراف بالتساند بين الـكلمات والأفـكار فى يدى «ماكس مولر» اتخذ شكل إصرار على كون الـكلمات أم : « لا تفـكير بلا كلمات » . وقد أصبحت هذه القضية موضوع نقاش حاد بسبب بساطتها من ناحية وجدتها من ناحية أخرى ، ثم سرعان ما نسى كل ذلك ليعود إلى الظهور فى أيامنا هذه أكثر بدائية على يد بعض الدارسين، ولـكن مع إدراك دقيق من البعض الآخر لما يشتمل عليه هذا القول من صدق .

وجاء فى هذه الأثناء أثر أكثر تدرجا وأطول بقاء ، على دراسة اللغة من الاستدلال المعكوس على العلاقة بين الـكلمات والأفـكار ، ذلك هو أن اللغة أساسا « اتصال » والمراد بها سلوك المتكلم الذى ينوى أن ينقل أفـكاره إلى الآخرين . وقد يبدو غريبا أن مثل هذه الفـكرة الشائعة يمكن أن تهمل. ولـكن العلماء الأولين للعالم الحديث فى عصر النهضة ، وهم فى شغلهم بترميم البقايا الأثرية للقدماء ، مالوا إلى تجاهل حقيقة كون هذا الأدب كان مرة نطقا حيا لقوم أحياء . ثم مع الـكشف عن السنسكريتية فى وقت متأخر كان التفـكير فى مستقبل اللغة باعتبارها دراسة مستقلة

---

(١) Locke E 47.

فى غاية الإغراء ، وكانت أولى ثمرات هذا الفرض مشجعة جدا حتى إن العلاقة الثابتة بين اللغة و بين المتكلم الحى غابت عن الذهن .

لم يكن ذلك الرأى مقبولا عند الجميع على أى حال . فهؤلاء الذين عالجوا دراسة اللغة بطريق الفلسفة مثل « هاريس » و « لوث » و « مونبودّو » و « ستودارت » أصروا واحدا بعد الآخر على الأثر الشامل لأفكار المتكلم فى كافة اللغة التى يستعملها ، ولذا كان من التمهيدات الضرورية قبل التفكير فى اللغة أن يتم تحليل العقل الفردى[1] . ولقد كان هذا تقدما ملحوظا ، ولكن تحليل العمليات العقلية فى طفولة علم النفس الحديث كان عملا ضخما جدا ، ومعقدا جدا ، حتى إنه ليس من الغريب أن نجد فترة ركود قبل الخطوة التالية ، التى هى الاعتراف بأنه ليس المتكلم وحده عاملا قويا فى اللغة بل السامع كذلك . وهذا الاعتراف بالطبع لم يكد ينعدم تماما فى الماضى ، إذ نجده مثلا عند « مونبودّو » ، ولكن توكيده التام لم يأتنا إلا من عبقرية « و . فون همبولدت » (١٨٣٦) .

ومن ثم حين قال « شتاينهال » وهو التلميذ الأول بين اللغويين « لفون همبولدت » : « لا يمكن أن تفهم اللغة وتوضح إلا بطريق علم النفس » لم يكن يقصد أن الناس يعطون الفكرة للصياغة اللغوية فحسب ، بل إن اللغة فى كل مرحلة من تاريخها تحدوها حاجات الإنسان فى المجتمع ، وأنها بدورها تحدو عقله وسلوكه . واسم الصحيفة التى أسسها « شتاينهال » عام ١٨٥٩ مع « لا زاروس » له دلالة على موقفه النفسى والاجتماعى Zeitschrift für Volkerpsychologie und Sprachwissenschaft.

لقد كانت تلك السنة هى نفس السنة التى ظهر فيها « أصل الأنواع »

---

(١) يقول « ستودارت » مثلا (P L S) : « إذا أردنا دراسة النحو العالمى دراسة ذات أثر فمن الضرورى أن نكون رأيا أوليا عن ملكات الذكاء والإرادة التى يتوقف عليها علم اللغة » .

(٢) Monboddo OP 321.—3.

The Origin of Species والفرق الذى خلقه داروين هو أنه فى فرضه للتطور عن طريق الاختيار الطبيعى للأصلح منح كل الدراسات البيولوجية محوراً للمذهب والطريقة ، وأصبح كل شكل من السلوك الحى خاضعا للفحص . وليس من الغريب أن تكثر القياسات الخرافية بسرعة فى كل حقل من حقول الفكر ، حتى إن « شليخر » كما رأينا اعتبر اللغة تكوينا عضويا خاضعا للتطور . ولكن بعد أن تلاشت هذه الوفرة فى التخريج بدأ ما فى جذور فكرة داروين من رزانة وثمرة فى الظهور . وما دامت اللغة عملية بيولوجية ، أو شكلا من أشكال السلوك الإنسانى ، فلا بد أن يكون تاريخها وحاضرها محدودين بتطور الإنسان . وهكذا اتخذت دراسة اللغة أساساً ثابتا من علم الحياة والاجتماع .

ذلك بأننا يجب أن نذكر أن فرض داروين للتطور لم يكن بيولوجيا فحسب ، بل كان اجتماعيا كذلك . وإن الشرارة التى أطلقت فكرته — وفكرة « راسل والاس » أيضا — جاءت من « مالثوس » . وحين قرأ داروين عام ١٨٣٨ « مَقَالٌ عَنْ السُّكَّان » Essay of Population تنبه فجأة إلى أنه قد « وجد نظرية يعمل على أساسها »[١] . والاختيار الطبيعى كما رآه داروين عملية اجتماعية ، هى التطاحن بين أعضاء المجتمع للاستيلاء على الموارد الطبيعية . ومن ثم بالرغم من اتهام « صمويل بتلر » « لداروين » بأنه « نفى العقل من الوجود » يظل الاختيار الطبيعى عملية نفسية ، لأنها تتم فى التنافس والتعاون الجنسى Sexual وعن طريقهما .

والذى استعارته نظرية داروين من علم النفس والاجتماع ردته إليهما بكامله[٢] ، وعن طريق هذين العلمين اهتدى العلماء إلى اتجاه جديد فى دراسة اللغة ، بالكشف عن جوها النفسى والاجتماعى الحقيقى ، والكشف عن جذورها فى الحياة الحيوانية والمجتمعات الإنسانية البدائية . وظهر أن فكر الإنسان وإحساسه ، ومن ثمة لغته ،

(١) Darwin LL (i) 83.

(٢) Flugel HP ch. (i)

نبعت جميعها لا من تاريخه الماضي وحاجاته الحاضرة باعتباره فردا فحسب ، ولكنها نبعت كذلك من ماضي الناس الذين عاشوا في مجتمعات ، سواء أكان هذا الماضي منسيا أم غير منسي .

كان « وتني » Whitney هو اللغوي الذي عمل على إيجاد قبول عام للفكرة الاجتماعية في اللغة ، وكان الخصم الألد « لماكس مولر » . وقبل أن يتلاشى الأثر الذي أثارته محاضرات « ماكس مولر » دخل وتني في المعركة ليجابه الفكرة المركزية عند « مولر » التي تقول « لا تفكير بلا كلمات » ؛ فأوضح أن ذلك كان نصف حقيقة ، أدت إلى فكرة عن اللغة نفسها ضيقة ضيقا خطرا . وقد أصر على أن مما يضللنا أن ننظر إلى اللغة كأداة للتعبير عن عقل الفرد في عزلته ، بل إن الوظيفة الأساسية للغة هي الإعانة على الاختلاط في المجتمع ، « وتتشابه كل مراحل نموها ، فالكلام نظام اجتماعي بأخص معاني هذا التعبير .... وإن فكرة الكلام وفكرة المجتمع لا يمكن الفصل بينهما »[(١)].

وهنا نرى حتى « وتني » نفسه يقصر عن بلوغ الغاية . فهو لم يخط الخطوة التالية مع داروين ليكشف عن أن اللغة تكتسب وجودها لا من حاضر الإنسان في المجتمع فحسب، بل من الحياة السابقة للنوع في تطوره أيضا . وقد أنكر وتني استمرار التطور من الصيحات الحيوانية إلى اللغة الإنسانية فيقول « وإن الميزة الجوهرية لكلامنا هي أنه اعتباطي عرفي ، أما عند الحيوان من ناحية أخرى فهو طبيعي غرزي »[(٢)]. « والطاقة الإنسانية التي يرجع إليها الفضل في إنتاج الكلام رجوعا مباشرا . . هي القوة على التوفيق بين الوسائل والأهداف توفيقا ذكيا »[(٣)] . ولابد أنه قد بدا له كما بدا لآخرين أن الداروينية في نفيها للعقل من الكون حرمتنا من المفتاح الرئيسي

---

(١) Whitney SL 437 – 8.

(٢) the same 438.

(٣) Whitney LG 303.

لفهم طبيعة اللغـة . وقد ظهر أنه كانت ثمة فـكرتان متعارضتان لا تتصالحان ، هما وجهة نظر « داروين » من أن لغة الناس قد نمت بتطورهم من الحياة الحيوانية التى لا كلام فيها ، ووجهة نظر « وتنى » من أن اللغـة أداة خلقها الناس مع عمد ويقظة لتوفى أغراضهم فى المجتمع .

ومنذ أيام « وتنى » على أى حال أصبح واضحا باطراد أن هاتين الوجهتين أبعد من أن يتم بينهما التوفيق ، وقد غنى فهمنا لطبيعة اللغـة بالأدلة من علم الاجتماع وعلم النفس كليهما ، فعندنا دراسات لاستعمال اللغـة فى المجتمعات البدائية ، والعلاقة بينها و بين النشاط العملى ، و بينها و بين السحر والدّين ، تلك هى دراسات « وونلت » و « فريزر » و « دوركايم » ، « ليفى بريل » و « مالينوفسكى » . وقد قدم لنا علماء النفس دراسات مفصلة للطريقة التى يكيف بها الطفل صيحاته الطبيعية بكيفيات لغة أمه ، مدفوعا إلى ذلك بضرورات حياته فى المجتمع . ومن الدفعة الأولى التى جاءت من داروين نفسه عام ١٨٤٠ (١) اتسع البحث على يد قوم مثل « بريير » و« شترن» اللذين وضحا أنه حين يبدأ الطفل فى جعل صيحاته محددة كصيحات الحيوانات الثديية الأخرى ، سرعان ما يجد عونا للوصول إلى إتقان اللغة السائدة فى الجماعة التى ولد فيها بالنظر إلى مواهبه الفطرية . والضغط الدائم الذى يقع عليـه من حياته الاجتماعية اليومية . ونحن نرى أن ثمة عملية دائمة للتـكييف المتبادل بين صيحاته البدائية و بين النظام المرتب للـكلام العرفى . وأن الطريقة الرئيسية التى يعمل الضغط الاجتماعى على أساسها هى أن نواجه الطفل بالتجربة اليومية التى هى معروفة أى أن هذه اللغة تجعل فى استطاعته أن يحصل على حاجته فى المجتمع .

وهكذا وصلنا اليوم إلى نقطة تقبل عندها الطبيعة الاجتماعية للغة لدى اللغويين باعتبارها فرضا أساسيا . وقد اضطر « يسبرسن » مثلا إلى أن يبدأ كتابه Language عام ١٩٢٢ بقوله « إن التعريف الوحيد غير المتهم للـكلمة هو أنها عمل إنسانى ، أى

(١) Darwin B (1877 : fron notes made in 1840.)

عمل عادى من جانب الفرد الإنسانى ، له بالفعل أو بالقوة على حدما يقول المناطقة أثر فى بعث فكرة فى ذهن فرد آخر »[1] . وهكذا وضعت اللغة موضعها المناسب فى سيكولوجية الجماعة . ولكن علم النفس اليوم لا ينحصر فى دراسة التفكير ، فمن المعروف عموما أن التفكير نوع من السلوك ، أو أنه « لاشىء إلا السلوك » . وإن عالما لغويا مثل « دى لاجونا » بعد دراسته تطور اللغة فى الحياة الجماعية للإنسان استنتج من ثم أن الوظيفة الجوهرية للكلام هى أن يؤثر فى سلوك الآخرين »[2] . وهكذا يصبح اعتماد دراسة اللغة اعتماداً تاما على علم الاجتماع معترفا به فى النهاية . أو بعبارة « ألان جاردنر » وهو مصرْولوجيٌ درس اللغة فى محاولة أن يحل بعض المشاكل فى حقل نشاطه « إن العلم الذى نه دين على النظرية اللغوية فى النهاية ليس المنطق ولاعلم النفس ، وإنما هو الاجتماع »[3] . أما بعبارة « مالينوفسكى » فإن « أية مناقشة للرموز فى غير محيط علم الاجتماع دراسة فاشلة »[4] .

لقد دارت العجلة دورة كاملة . وتم التلاقى بين مذهبين كان يبدو فى بدايتهما أنهما متعارضان تعارضا تاما . ولقد ظن « وتنى » بلا شك أنه كان يتحرك فى اتجاه مضاد تماما لاتجاه « ماكس مولر » حين أصر على أن وظيفة الكلمات إنما كانت التأثير فى أفكار الآخرين ، لا أن تقوم بنقل الأفكار نقلا مجرداً ، والواضح أنه بالتأثير فى أفكار الآخرين تصبح اللغة فى الحقيقة أداة لنقل الأفكار . إن السلوكيين باعتبارهم من نقاد علم النفس ، والمنطقيين الإيجابيين باعتبارهم من نقاد المنطق ، ثم إن طلاب ماوراء الطبيعة قد بعثوا اليوم مذهب « ماكس مولر » . وهذا المذهب فى صورته الأساسية يَقْبَلُ أن يُعبَّر عَنْهُ بكون « الأفكار لغة » . ولكن الكثير من

---

(١) jespersen L N 7.

(٢) De Laguna S 37.

(٣) Gardiner TS 33.

(٤) Malinowski ST 136.

لا يستطيعون قبول هذا يذهبون خطوة أبعد إلى الاعتراف بأن الكثير من المسائل الظاهرة فى طبيعة التفكير ليس فى الحقيقة أكثر من مسائل لغوية . ويوافقون على أن المنطق وما وراء الطبيعة ، بل حتى الرياضيات كلها فى جوهرها بِنْيَةٌ اجتماعية ذات طبيعة لغوية فى أساسها . وإن دراسة اللغة لظاهرة غالبة فى كثير من حقول الفكر فى يومنا هذا التى لم تكن من قبل تكاد أن تُحِسّ أن اللغة كانت ذات خطر بالنسبة لها . وهكذا يتضح الآن شيئا فشيئا أننا إذا أردنا أن نفهم الفكر والنتاج الفكرى فالواجب أن ندرس اللغة ، وإذا أردنا أن ندرس اللغة فعلينا أن ندرس عملها فى المجتمع .

REFERENCES

Adamson EE	J. W. Adamson	*English Education* 1930
Alexander CP	S. Alexander	" Foundations of a Conational Psychology," *Br. J. Psy.* 1911
Allan CC	S. R. Allan	*Comrades and Citizens* 1938
Angyal SP	A. Angyal	*Foundations for a Science of Personality* 1941
Arnold ES	M. Arnold	*Reports on Elementary Schools* ed. 1910
Barker GT	E. Barker	*Greek Political Theory* 1918
Barker RG	E. Barker	*Reflections on Government* 1942
Bartlett R	F. C. Bartlett	*Remembering* 1932
Bell DM	E. T. Bell	*The Development of Mathematics* 1940
Bentham PL	J. Bentham	*Principles of Penal Law* (1832) ed. 1843
Bentham PM	J. Bentham	*Principles of Morals* (1789) Ed. 1823
Bergson H	H. Bergson	*L'Evolution Créatrice* (1907) Eng. tr. 1910
Bodmer LL	F. Bodmer and L. Hogben	*The Loom of Language* 1943
Bréal ES	M. Bréal	*Essai de Sémantique* (1897) Eng. tr. 1900
Bukharin HM	N. Bukharin	*Historical Materialism* 1925
Burt YD	C. Burt	*The Young Delinquent* 1927
Cajori HM	F. Cajori	*A History of Mathematics* 2nd ed. 1919
Carrington T	H. Carrington	*Telepathy* 1945
Cayton BM	H. R. Cayton and St. C. Drake	*Black Metropolis* 1946
Chuang EC	C. H. Chuang	*Education in China* 1922
Cohen RN	M. R. Cohen	*Reason and Nature* 1931
Cole SA	M. Cole	*Our Soviet Ally* 1943
Collingwood NL	R. G. Collingwood	*The New Leviathan* 1942
Cornford PT	F. Cornford	*Plato's Theory of Knowledge* 1935
Croce L	B. Croce	*Logic* Eng. tr. 1917
Darwin BI	C. Darwin	" Biography of an Infant," *Mind* 1877

REFERENCES

Darwin EE	C. Darwin	*The Expression of the Emotions* 1873
Darwin LL		*Life and Letters of Charles Darwin*, ed. F. Darwin 1887
Delacroix LP	H. Delacroix	*Le Langage et la Pensée* 1923
De Laguna S	G. A. de Laguna	*Speech* 1927
De Montmorency SI	J. E. G. de Montmorency	*State Intervention in English Education* 1902
Fisher HE	H. A. L. Fisher	*A History of Europe* (one vol. ed.) 1936
Flugel HP	J. C. Flugel	*One Hundred Years of Psychology* 1933
Flugel PS	J. C. Flugel	*The Psychology of Clothes* 1930
Fortescue HB	J. W. Fortescue	*A History of the British Army* 2nd ed. 1910
Freud EI	S. Freud	*The Ego and the Id.* Eng. tr. 1927
Freud IL	S. Freud	*Introductory Lectures.* Eng. tr. 1922
Gardiner TS	A. Gardiner	*The Theory of Speech and Language* 1932
Ginsburg PS	M. Ginsburg	*The Psychology of Society* 1921
Guillaume IE	P. Guillaume	*L'Imitation chez l'Enfant* 1925
Halbwachs CM	M. Halbwachs	*Les Cadres Sociaux de la Mémoire* 1925
Hitler MK	A. Hitler	*Mein Kampf* 1937
Hobbes L	T. Hobbes	*Leviathan* (ed. Pogson) 1909
Hogben MM	L. Hogben	*Mathematics for the Million* 1936
Hunt SS	J. L. Hunt and A. G. Pringle	*Service Slang* 1943
Jacobi PJ	J. Jacobi	*The Psychology of C. G. Jung* 1942
James PP	W. James	*Principles of Psychology* 1890
James RE	W. James	*Essays in Radical Empiricism* 1912
Janet MP	P. Janet	*Les Médications Psychologiques* 1919
Jast LC	L. S. Jast	*The Library and the Community* 1939
Jespersen LN	O. Jespersen	*Language, its Nature etc.* 1922

Jones W	W. Jones	*Works* 1804
Karlgren SS	B. Karlgren	*Sound and Symbol in Chinese* 1923
Layard SM	J. Layard	*Stone Men of Malekula* 1942
Leibniz NE	G. W. Leibniz	*New Essays on the Human Understanding*, ed. Langley 1896
Lewis IS	M. M. Lewis	*Infant Speech* 1936
Lewis LS	M. M. Lewis	*Language in School* 1942
Lippmann PO	W. Lippmann	*Public Opinion* 1922
Locke E	J. Locke	*Essay* (1690), ed. Fraser 1894
Malinowski AP	B. Malinowski	*Argonauts of the Western Pacific* 1932
Malinowski ST	B. Malinowski	*A Scientific Theory of Culture* 1944
Marriott EI	J. A. R. Marriott	*The English in India* 1932
Maynard RP	J. Maynard	*The Russian Peasant* 1942
McDougall GM	W. McDougall	*The Group Mind* 1920
McDougall OP	W. McDougall	*An Outline of Psychology* 1923
Mencken AL	H. L. Mencken	*The American Language*, 3rd ed. 1938
Mill OL	J. S. Mill	*On Liberty* 1859
Mill RG	J. S. Mill	*Representative Government* 1861
Miller SL	N. E. Miller and J. Dollard	*Social Learning and Imitation* 1941
Monboddo OP	J. B. Monboddo	*Of the Origin and Progress of Language* 1773
Mulcaster E	R. Mulcaster	*Elementarie* (1582), ed. Campagnac 1925
Müller SL	F. Max Müller	*Lectures on the Science of Language* 1861
Müller ST	F. Max Müller	*Lectures on the Science of Thought* 1887
Mumford CC	L. Mumford	*The Culture of Cities* 1938
Mumford TC	L. Mumford	*Technics and Civilization* 1934
Myrdal AD	G. Myrdal	*An American Dilemma* 1942
Ogden BF	C. K. Ogden	*Bentham's Theory of Fictions* 1932
Ogden MM	C. K. Ogden and I. A. Richards	*The Meaning of Meaning*, 2nd ed. 1927
Orwell TI	G. Orwell	*Talking to India* 1943
Pareto MS	V. Pareto	*The Mind and Society*. Eng. tr. 1934

REFERENCES

Pavlov CR	I. P. Pavlov	*Lectures on Conditioned Reflexes*, ed. Gantt 1928
PEP		*Report on the British Press*. P.E.P. London 1939
Piaget LP	J. Piaget	*Le Langage et la Pensée chez l'Enfant* 1923
Prince DP	M. Prince	*The Dissociation of a Personality* 1906
Richards BE	I. A. Richards	*Basic English and its Uses* 1943
Rickman SF	J. Rickman	*Sigmund Freud: a Selection* 1937
Rivers IU	W. H. R. Rivers	*Instinct and the Unconscious* 1920
Roberts HB	S. H. Roberts	*The House that Hitler Built* 1937
Rose IW	J. H. Rose	*The Indecisiveness of Modern War* 1927
Ruskin SL	J. Ruskin	*Sesame and Lilies* 1865
Russell AM	B. Russell	*The Analysis of Mind* 1921
Schonell BS	F. J. Schonell	*Backwardness in the Basic Subjects* 1942
Seth SC	G. Seth and D. Guthrie	*Speech in Childhood* 1935
Seward DS	A. C. Seward	*Darwin and Modern Science* 1909
Sheppard SH	E. W. Sheppard	*A Short History of the British Army*, 3rd ed. 1940
Smith WN	A. Smith	*The Wealth of Nations* 1776
Spearman NI	C. Spearman	*The Nature of Intelligence* 1923
Sprat RS	T. Sprat	*History of the Royal Society* 1667
Stoddart PL	J. Stoddart	*The Philosophy of Language* 1849
Stout AP	G. F. Stout	*Analytic Psychology* 1890
Stout MP	G. F. Stout	*Manual of Psychology*, 4th ed. 1929
Ure PM	A. Ure	*The Philosophy of Manufacture* (1835), Bohn's ed. 1861
von Hartmann PU	E. von Hartmann	*Philosophy of the Unconscious*, ed. Coupland 1884
Ward PP	J. Ward	*Psychological Principles* 1918
Watson PB	J. B. Watson	*Psychology from the Standpoint of a Behaviorist* 1919
Watson UB	J. B. Watson	"The Unverbalized in Human Behaviour," *Psy. Rev.* 1924
Webb SC	S. & B. Webb	*Soviet Communism* 1936
Wells A	H. G. Wells	*Anticipations* 1900

White PP	L. White and R. D. Leigh	*Peoples Speaking to Peoples* 1946
Whitehead IM	A. N. Whitehead	*Introduction to Mathematics* 1911
Whitney LG	W. D. Whitney	*The Life and Growth of Language* 1875
Whitney SL	W. D. Whitney	*Language and the Study of Language* 1867
Wilson SC	G. and M. Wilson	*The Analysis of Social Change* 1945
Woodward ER	W. H. Woodward	*Education in the Age of the Renaissance* 1906
Wright HC	T. Wright	*A History of Caricature* 1875
Young VE	G. M. Young	*Victorian England* 1936

فهرس